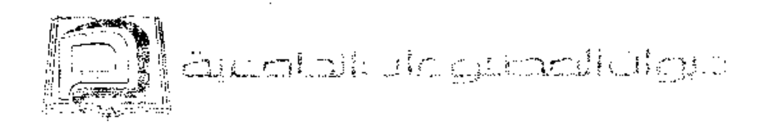
الحاج محمد بن رمضان شاوش

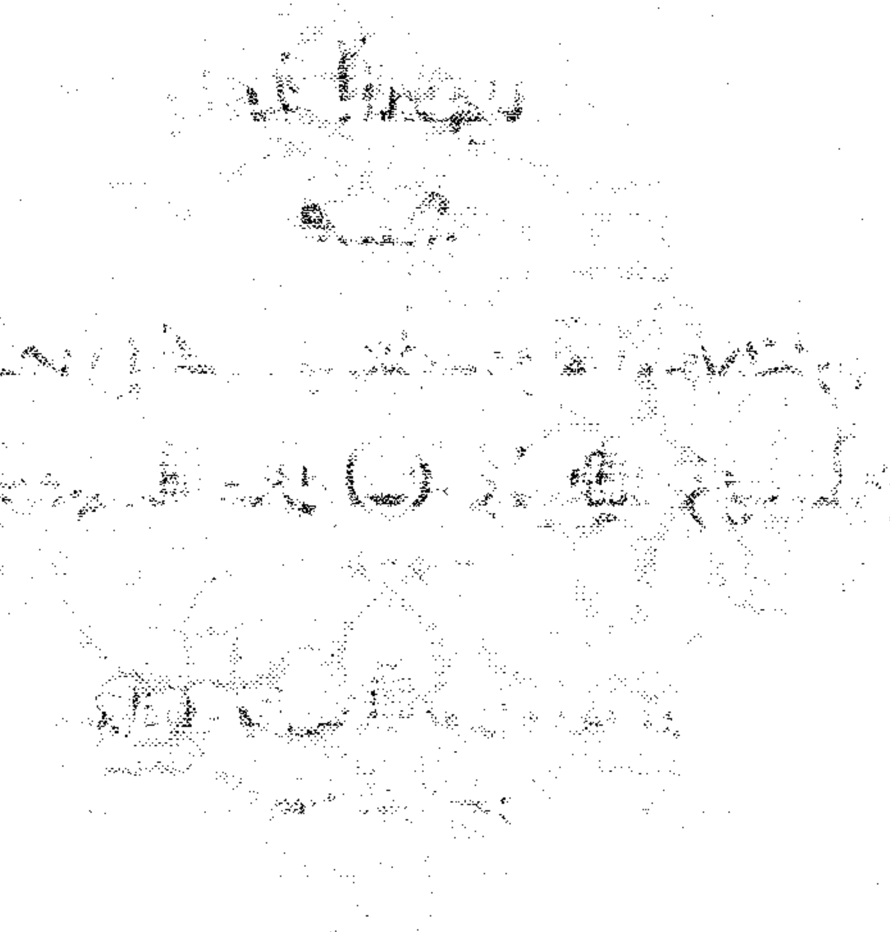
باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان

جغرافيا - وتاريخيا - وفنيا - ومعماريا -

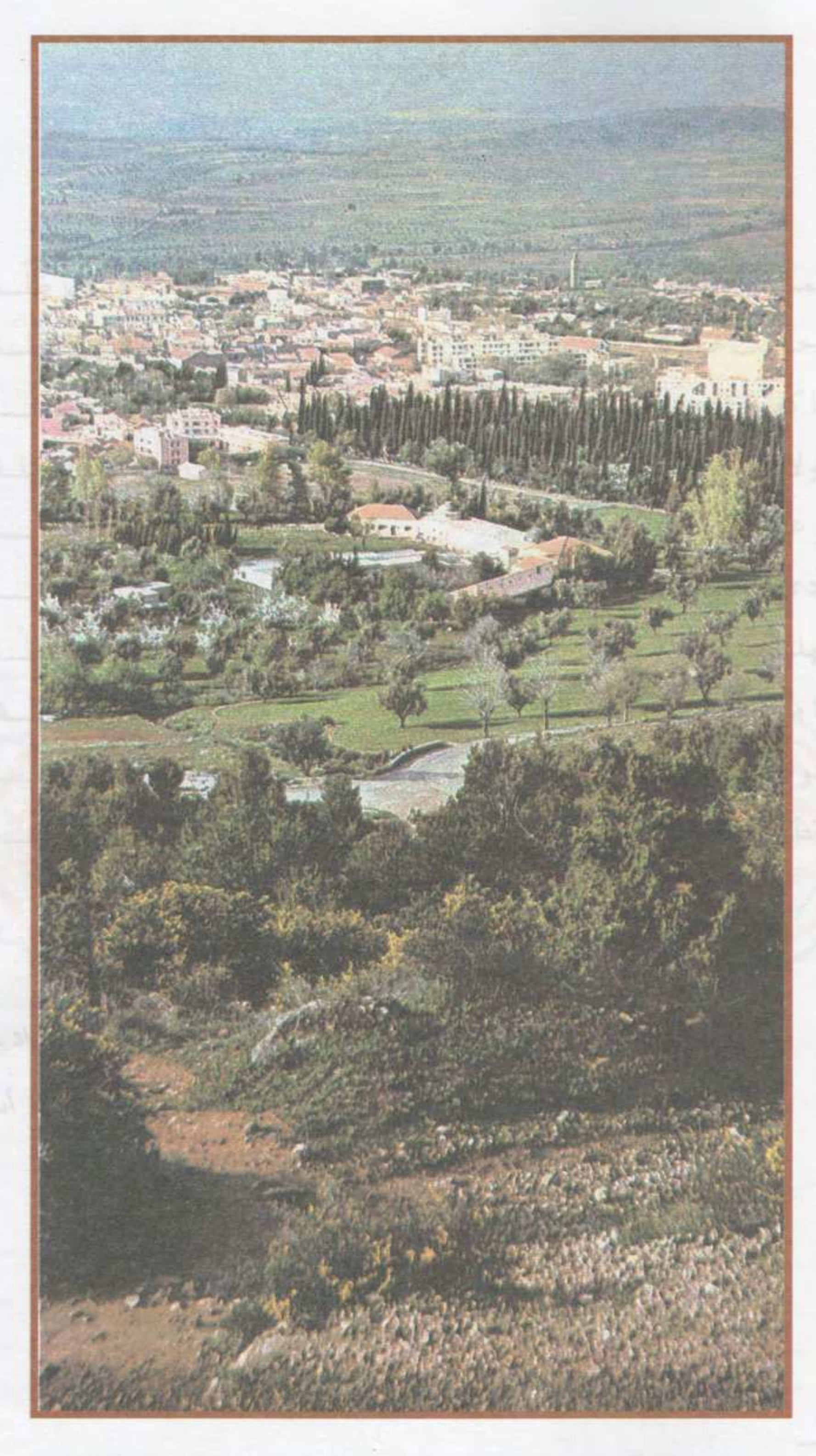
(دراسة مصحوبة بخرائط ورسوم وصور)

الجزء الأول





© ديوان المطبوعات الجامعية:2011/03
رقم النشر: 4.00.5216
رقم ر.د.م.ك (ISBN) : 978.9961.0.1459.2
رقم الإيداع القانوني: 2011-1316



1 - تلمسان ...... (عروس مستلقية على سرير عرسها) منظر عام لتلمسان

تمهيـــد

تلمسان[1]

تلمسان يا بلد الأهـــلّه — نشر السلام عليك ظلّـة
وحـابتك هـــامات المـآذن — بالتحيـة والتجـــلـة
يا كعبـة المجد الكـــبير — ولمحة الأمـل المطلـــة
لـولا كرامـــة مكـــــة — لجعلت من ركنيك قبلـة
أو عز حج البيت جـــئت — إلى بهاك أطـوف حولـــه
ودعوت لـلأرض اللـــتي — تشفـي بمائهـا أي علـــة
مهد العلوم ومقصد التاريـخ — عند بدايـة كـل جـولـــة
يـا من أنـــرت العـالمــــين — يوم كـنت خير دولـــة
تتـوارث الأجيــــال آيـــة — مجدهـا في كـل رحلـــة
وتظـل في كـــل العصـــور — تلمسان للثورة شعلـــة

لرشاد يوسف أحمد[2]

أستاذ فلسطيني

---

(1) أضفنا هذ القصيدة الصغيرة الحديثة العهد. وجعلناها تمهيدا لهذا الكتاب الجليل مثلما ذكر المؤلف رحمه الله عليه ست قصائد تصف تلمسان في ملاحقه.

(2) نظم هذ القصيدة شاعر فلسطيني الأصل أثناء إقامته بتلمسان في السنوات الأولى من عهد الاستقلال حيث كان يعمل أستاذ ثانوية(الرائد فراج) وهذه القصيدة مكتوبة على لوحة معلقة داخل مكتب إدارة تلك الثانوية.

مقدمة إضافية

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

نــم هادءا!!!

نم هادء أيهـــــا الصديق الــودود	فها قد خرج كتابك إلى الوجــــــــــود
نم هـادء مطمئـن البــــــــــال	فقد بلغت مقاصدك في المجــــــــال
نم هادء فرحـا بتربـة تلمســـــان	فقد عرفت مدينة مسقط رأسك للبعيد والداني
نم هادء سعيدا تحت ظل الخالق المجـي	فإنك نلت المنى بيثك العلم المفيــــــتــد

نعم كان هذا الكتاب على وشك الطبع أكثر من سبع سنوات[1] وصاحبه رحمه ألله عليه يعيش في حالة تشوق إلى ظهوره في الميدان الثقافي كما هي حالة كل مؤلف ولكن عراقيل شتى حالت دون ذلك فمن حثه على تغيير توجيه كتابه وجعله يختص بالسياحة فقط، ومن عاتبه على كثرة المبالغة في تاريخ تلمسان وكثرة تعظيم علمائها وكثرة تفضيل شعرائها وما من وراء ملاحظات أولائك وهؤلاء إلا وكأنه بعض النوع من الحسد على مجد تلمسان فإنهم يظنون أن نشر الحقيقة مبالغة وأن صاحب الكتاب يبث غير الواقع أي يأتي بالكذب وما يصوره له الخيال فيزيد ويغير ويبالغ فيما جاءت به الكتب والأخبار إنهم وألله لا يعرفون هذا الأستاذ ولا يتصورون شيئا من خلقه السامية ولا يعرفون أن شيمتك الكبرى أنك صاحب حق تنصر الحق ولا تبالي في ذلك لوعة لائم ولا يعترضك في تأييده خوف ولا مانع.

فالحمد لله لقد جمعت في كتابك هذا معلومات قيمة حديثة وقديمة. لها أهمية كبرى لاسيما منها التاريخية التي سيكون لها صدى، في المجال الثقافي لا محالة إن شاء ألله تعالى. وإن الجدول التاريخي الذي أتممت به كتابك هذا لهو ملخص متقن كافي لأهم الأحداث التي عاشتها تلمسان، وإنه وحده لدليل قاطع على مهارتك في علم التاريخ وحسن تلقينه.

وإني على يقين أن هذا الكتاب سيدخل بحين ديار أهل تلمسان على الأخص وستعتز به جميع خزاناتهم كما ستعتز به خزانات كل من يعشق الفن والجمال وكل من يحب التاريخ وسيتناوله شبانها كلهم فيطلعون بوضوح على المجد الذي بلغت إليه مدينتهم (جوهرة المغرب) وسيكون له صدى، وطنيا لما يحتوي على أخبار تاريخية تخص كذلك جميع أنحاء الوطن والكل سيعترف بأنك خلدت فيه تراثا نفيسا إلى أجيال المستقبل، ثم أنك جمعت لنا فيه (باقة عاطرة من السوسان[2] الرفيع) وذلك عندما وصفت لنا أناقة مساجدها وذكرت لنا ما أنشده في حسنها وبهائها بعض شعرائها وأنك (عرفت فيه

(1) قد تم تأليف هذا الكتاب في نوفمبر 1983.

(2) إشارة إلى عنوان هذا الكتاب.

حاضرة تلمسان)[1] تعريفا كاملا بل زدت بهذا ألكتاب الفذ خلودا وشهرة ورفعة لمدينة مسقط رأسك ومدينة مثواك الأخير فكأنك كنت مدينا لها فأردت بكتابته أن ترد لها جميلها أو شعرت بأنه كان على أحد أبنائها النجباء أن يقوم بهذا التعريف المدقق الواسع الجامع لما عاشته بين جدرانها وبساتينها فسرعت أنت لتقوم بهذا الواجب. فلا أحد يشك أن الفضل والثناء يرجع كله لمؤلفه. والكل يردد معي وتلمسان تردد معي: «نم هادء أيها الابن البار في رحمة المولى العزيز الغفار»!

الحاج الغوثي بن احمدان

نوفمبر 1992

(1) إشارة كذلك إلى عنوان هذا الكتاب.

حياة المؤلف

(1911- 1991م) (1329-1411هـ)



ولد الأستاذ الحاج محمد بن رمضان شاوش بن الغوثي بتلمسان يوم الأربعاء 7 جوان سنة 1911م (1329هـ) وتلقى كل دراساته الأولية بمسقط رأسه: فمن الكتاتيب القرآنية (1919- 1923) إلى مدرسة الأبلي («ديسيو» سابقا 1923-1928) إلى المدرسة الجديدة (1928 - 1932) ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة ليتابع دراساته العليا بالمدرسة الثعالبية (1932-1934) ثم باشر المؤلف سلك التعليم فقام في المرحلة الأولى بتدريس اللغة العربية من سنة 1935 إلى سنة 1946 وذلك بالمدن التالية: وهران، الغزوات، القل، وتيارت.

أما في المرحلة الثانية من سنة 1946 إلى عام 1972 (وهي سنة تقاعده) فإن المؤلف قد تقلد عدة مناصب تربوية منها: أستاذ الشريعة الإسلامية في كل من مدرسة قسنطينة (1946-1953) ومدرسة تلمسان (1953-1962) وأول مفتش للغة العربية بولاية تلمسان أبان الاستقلال (1962-1963) ثم اشتغل -أخيرا - منصب أستاذ اللغة العربية بثانوية الدكتور ابن زرجب بتلمسان (1963-1972).

كان الأستاذ - رحمه الله عليه - من أفذاذ رجال هذا العصر الذين خصصهم الله بالعلوم والعرفان فكان واسع المعلومات في الفقه والتاريخ والأدب معا وكان ذا ذاكرة متينة فاذة وذا رأي سديد قوي أعطى له لدى الجميع حرمة ووقارا ومحبة خاصة، فما من أحد من تلاميذه رآه إلا وتوجه إليه فرحا بلقاء أستاذه والتحاور معه.

فكم من محاضرة ألقاها في النوادي والمساجد والزوايا في عدة مناسبات وكم ساعد في المشاريع الدينية[1] وأبدى، بمواقفه[2] الدينية السديدة وكم قدم من توضيحات تاريخية على شاشة التلفزة وإرشادات غالية لمساعدة الباحثين الوافدين عليه.

فخروج المؤلف إلى المعاش لم يصرفه عن متابعة البحث والتأليف حتى لقي خالقه صبيحة يوم الاثنين 18 مارس سنة 1991م الموافق للثاني رمضان سنة 1411هـ بتلمسان.

وأخيرا فمؤلفاته التالية الذكر تدل دلالة على ما لهذا العالم من مكانة ولولا الضعف البصري الذي كان يعاني منه لكانت أوفر من ذلك وقد كتبها بأسلوب سهل واضح وبتعبير مدقق بسيط نتمنى أن تبرز كلها عن قريب في الميدان الثقافي وأن يجازي صاحبها برحمة الله الواسعة.

الحاج الغوثي بن احمدان

---

(1) كان عضوا في الجمعية الدينية بتلمسان.

(2) نذكر هنا من بينها على سبيل المثال موقفين مشرفين له فقد نهى عن الدروس التي تلقي بعد آذان المغرب وقبل إقامتها وذلك لضيق وقتها الاختياري، ونهى عن الجهر، والإعلان بمقدار المهور أثناء خطبة الزواج التي تقع بالمساجد وذلك للتفادي من المبالغة والمباهاة بين الأسر في المهور.

مؤلفاته

أوّلا: الكتب

من الأدب العربي الجزائري:

1 - الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي (الطبعة الأولى، المطبعة العلوية بمستغانم، عام 1385 هـ 1966م ، 108 ص.

محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان.

2 - الأدب العربى الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر المرتبة ترتيبا تاريخيا من الفتح العربي إلى عصرنا، الطبعة الأولى 1422 هـ 2001 م، 4 أجزاء في مجلدان، 836 ص، طبع وإشهار هـ . داود بريكسين تلمسان.

الجزء الأول: العصر القديم من القرن 1هـ (7م) إلى القرن 6هـ (12م).

الجزء الثاني: العصر الذهبي من القرن 7هـ (13م) إلى آخر قرن (9هـ) (15م).

الجزء الثالث: عصر الانحطاط من القرن 10 هـ (16م) إلى منتصف القرن 14هـ (بداية القرن 20م).

الجزء الرابع: العصر الحديث من منتصف القرن 14هـ (1926م) إلى بومنا هذا (قرن 20م)

ثانيا: المخطوطات

1 – المورثات لمشكل المثلث أو شرح الأرجوزة القرطبية نظما ونثرا.

2 – مجموعة أمثال وحكم وآراء شعبية باللهجة العربية الجزائرية (مخطوط في 3 أجزاء).

3 – الأقوال السائرة المنسوبة على سيدي أحمد بن يوسف الراشدي: دفين مليانة.

4 – حساب الجمل أو حساب الأبجدية حسب الطريقتين الشرقية والمغربية.

5 – معجم عواصم الغرب الإسلامي الباقية والدّارسة: المغرب الكبير، صقلية.

إهداء شكر وتقدير

إلى نجلنا عبد الحليم المهندس المعماري نقدم جزيل الشكر وعاطر الثناء على ما قام به من عمل الخرائط والرسوم لهذا الكتاب، حسب الوثائق[1] التي وضعناها بين يديه والتعليمات التي زودناه بها، كما نقدم شكرنا الوافر لمن ساعدنا مجانا بكتابة مخطوطنا على الآلة الكاتبة.

وكذلك نقدم خاصة تشكراتنا الحارة وامتناناتنا الخالصة إلى صديقنا الأستاذ الحاج الغوثي بن احمدان الذي نبهنا إلى الأخطاء الناتجة عن الكتابة بالآلة وصححها مرة بعد الأخرى[2] والذي ساهم في ترتيب الصور[3] والخرائط وزود هذا الكتاب بصور إضافية عديدة تزيده توضيحا وبين أسماء أصحابها وأضاف له بعض المعلومات القيمة[4] وفي الأخير أشرف على مراجعته وعلى طبعه[5].

الحاج محمد بن رمضان شاوش

(1) نقلت الوثائق بعد تعريبها وإصلاحها من قائمة الكتب الفرنسية الخاصة بتلمسان وخصوصا من كتاب (الآثار العربية بتلمسان) لوليام جورج مارسي. وجعلنا الخرايط7 في آخر الكتاب.

(2) بعدما أصابنا عجز في بصرنا

(3) نشير أننا استعملنا حرف: (ص) بمعنى صورة ويليه رقم ترتيبها في هذا الكتاب.

(4) قام مثلا ببيان أسماء الدروب والأحياء والساحات في خريطة تلمسان القديمة توضيحا لما جاء في قصيدة (يا ضوء أعياني) رقم: 2 لأبي مدين بن سهلة وبين في خريطة تلمسان مواقع الجوامع المساجد القديمة والحديثة وأضاف كذلك بعض التوضيحات داخل رسوم الجوامع

(5) لقد ساهم في ترفيه كتابنا هذا بما يفوق المائة صورة

إهـداء

إلى النشيء الصاعد التلمساني،

ها أني أهدي لك هذا الكتاب المتواضع لأعرفك بماضيك المجيد. لقد سطرت لك فيه - ولو باختصار - تاريخ مدينتك ليكون لك اطلاع موجز على الوقائع والأخبار التي مرت بها...

ثم حاولت أن أبين لك فيه جانبا من عادات أجدادك لتتصور شيئا ما كيف كانوا يعيشون...

وفي آخره جمعت لك جل علمائها الأجلاء وأدبائها النجباء وأتيتك عمدا عند ذكر حياتهم ببعض آرائهم العالية وشعورهم العميقة، مقتطفا لك نبذة من الأشعار التي أنشدتها قريحتهم الغراء عندما مدحوا مدينتك العزيزة (جوهرة المغرب) وذلك ليزداد افتخارك بهم وتعلقك بها...

نعم إن لمدينتك شهرة عالمية اكتسبتها بازدهارها العلمي والأدبي وبآثاراتها المعمارية الخالدة الدالة على مدى هذا الازدهار الفائق.

وإني أدعو المولى عزوجل أن يرشدك ويعينك لتحتفظ بدورك على هذا التراث العلمي راجيا منك أن ترفع فوق سماء مدينتك مشعل العلم عاليا أكثر مما كان في ماضيها وأطلب منك أن تحتفظ كل الاحتفاظ[1] بتلك الاثارات الغالية التي شيدها الأجداد بإخلاص قوي، ومهارة باهضة، وإتقان عجيب، منذ قرون بعيدة ووصلت إليك جليلة هائلة فيكون عار عليك أن تتركها تندثر وألا تقوم بترميمها قبل فوات الأوان بالكيفية المرغوبة لتبقى شامخة كما هي إلى أجيال المستقبل.

وفي الختام إني أرجو منك أن تتعلق كثيرا بهؤلاء الأجداد كلهم من علماء وأدباء وفنيين وأمراء وغيرهم معترفا لهم بما حققوه لك، فتذكرهم بالخير والاحترام وترحّم عليهم دائما فإنك ربما تمشي في الدرب والطريق الذي مشوا فيه مرارا قبلك وإنك تسجد في الجامع في نفس الموضع الذي سجد فيه والدك وعمك وجدك - تغمدهم الله برحمته الواسعة - وليكن شعارك الآية الكريمة: (...إنا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) .[2]

الحاج محمد بن رمضان شاوش

---

(1) يلزم تأسيس جمعية يكون لديها جميع الإمكانيات والصلاحيات ويخصص لها ميزانية كافية للقيام بمهمتها التي تنحصر على مراقبة صارمة لجميع الأثارات وترميمها إن اقتضى الأمر وأخذ الاحتياطات اللازمة قبل توقع أي اندثار. ولابد أن يكون أعضاؤها من أهل البلد لهم خبرة واسعة بتاريخ مدينتهم ومن بينهم معماريون مختصون ليذودوا بأنفسهم عن تراثهم.

(2) آية 22 من سورة الزخرف

2 - تلمسان : منظر عام

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه

الديباجة

الحمد لله الذي تفرد بالإبداع والإتقان.. والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان.. الذي أخرج العرب من طور الجهالة إلى العلم والعرفان.. ومن طور البداوة إلى الحضارة والعمران.. وعلى آله وصحبه ذوي الفضل والشأن والتقوى والإيمان والجود والإحسان.

(وبعد) فها نحن نقدم للجمهور الكريم كتابا دعوناه (باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان) وما أدراك ما تلمسان: المدينة ذات الجمال الفتان، والمناظر الطبيعية الزاهية الألوان (ص:1) والمساجد الرفيعة الأركان، حيث أنها كانت مقر ذوي السلطان، من أمراء بني زيان، ذوي الأكاليل والتيجان، والصولة والصولجان، وقد كان لهم بها ذكر وعز وشأن، واحتوت بفضلهم من دون البلدان، على خيرات حسان، ومعالم لا زالت شاخصة للعيان، تبهر كل سائح وفنان، عبر العصور والأزمان، وتشهد بما كان لها في سالف الأوان، من التشييد والعمران، والرفعة والمكان، وإن كان بعضها قد تلاشى ودخل في زوايا الإهمال والنسيان، بسبب تعاقب الحدثان، فصار عبرة لبني الإنسان، من شيوخ وكهول وشبان، ولاسيما أهلها والجيران، الذين لم يفتر لهم سلوان، ولا زالوا يتأسفون على ما كان ويترنمون بذلك في كل مكان.[1]

فهذا ما دعانا للتعرض لها بالوصف والبيان، معتمدين في ذلك على الله الملك الديان، راجين منه التوفيق لما فيه الخير والصلاح لبني الإنسان، وبعد تقديم العذر لأهل العلوم والعرفان، عما قد يقع بهذا الكتاب من خطأ أو نقصان، أو خلال أو نسيان، فلنختم هذه العجالة بما قاله شاعر بني سلمان[2] في بلدة[3] شبيهة بتلمسان: (الكامل).

هي جنة الدنيا التي من حلهـــــــــــــا

نال الرضا والروح والريحـــــــــان[4]

---

(1) في ذلك إشارة إلى الأنشودة: (يا أسفي على ما مضى) توجد هذه الأنشودة في كتاب (الموشحات والأزجال) للحفناوي أمقران وجلول يلس ج3 ص191و 192 طبع الجزائر1982 .

(2) هو لسان الدين بن الخطيب السلماني

(3) هذه البلدة هي بليونش من نواحي سبتة (المغرب الأقصى)

(4) أزهار الرياض للمقري ج1 ص 34 طبع القاهرة 1358هـ (1939م)

وما قاله الحاج محمد بن أبي جمعة التلالسي في تلمسان عينها:

(الطويل)

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبـــــــلا
ربوع تلمسان التي قدرها استعلـــــــــى

....
....

إلى أن قال:

لها بهجـة تزري على كـل بلـــــــــــدة
بتاج علاها كالعروس إذا تجـــــــــــلى

فياجنـة الدنيـا التي راق حسنـــهـــــا
فحازت على كل البلاد به الفضلـــــــــى[1]

ومما قال عنها الأستاذ أحمد توفيق المدني من المعاصرين: «تلمسان العظيمة ذات المدنية الشامخة والأمجاد التي سجلها التاريخ بأحرف من نور»[2].

وقال شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء في (إلياذة) أيضا: (المتقارف):

أمانـــــــا ربوع الندى والحسب
أمانا تلمســـــــان مغنى الأدب

....
....

تلمســــــــــان أنت عروس الدنيا
وظلم الليالي وسلوى المـــــحب

نوفمبر 1983 الحاج محمد بن رمضان شاوش

(1) بغية الرواد ليحي بن خلدون مجلد 1 ص 17 و 18 طبع الجزائر 1321 م هـ (1903م).

(2) الأصالة: العدد 26 ص 36.

المقدمة

يحتوي هذا الكتاب، كما أشرنا إلى ذلك في الديباجة على الأقسام الآتية:

1 - **القسم الجغرافي**: أي بيان موقع تلمسان وتركيب أرضها وذكر جبالها وسهولها وفصولها وأمطارها وأنهارها وحيوانها ونباتها ومعادنها وسكانها وكل ما يتعلق بطبيعتها بصفة عامة.

2 - **القسم التاريخي**: أي بيان الدور الذي لعبته أثناء القرون الوسطى كقاعدة المغرب الأوسط منذ أن أسسها بنو يفرن من ملوك زناتة ومن تلاهم من الأدارسة والمرابطين والموحدين إلى أن جعلت منها قبيلة بني عبد الواد العتيدة عاصمة لها وما جرى بينهم وبين جيرانهم الحفصيين والمرينيين من حروب وغارات، مختصرا الكلام على الفتن الداخلية والحروب الخارجية التي من شأنها إزهاق الأرواح وهدم الديار، وضاربا صفحا ما استطعت إلى ذلك سبيلا عن الأساطير الشعبية[1] والأحاديث الخرافية التي من شأنها تفويض العقول وتهديم الأفكار، ثم أخيرا ما آل إليه أمرها بعد استيلاء الأتراك عليها ثم احتلال الفرنسيين لها إلى أن حصلت الجزائر على استقلالها.

3 - **القسم الفني**: أي بيان نشأة الفن العربي بالمشرق ونموه وازدهاره ثم كيف تطور هذا الفن بالمغرب الإسلامي عموما وبتلمسان خصوصا إلى أن بلغ الغاية التي لا غاية بعدها ثم كيف تقلص ظله شيئا فشيئا إلى أن أضمحل تماما وصار أثرا بعد عين.

4 - **القسم المعماري**: أي وصف هياكلها التي لا تزال قائمة من مساجد وضرائح وما بقي من مدارس مع ذكر ما انطمس منها ومن القصور والديار الفخمة التي عفا رسمها و لم يبق مذكورا إلا اسمها في كتب التاريخ والتراجم والسير.

5 - **القسم الاقتصادي**: أي بيان الدور الذي قامت به تلمسان وإقليمها أثناء القرون الوسطى في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة والذي لا تزال تقوم به إلى الآن وحتى الآن.

6 - **القسم الاجتماعي**: أي بيان حال سكانها من حيث جنسهم ودينهم ولغتهم وعوائدهم وتقاليدهم وغير ذلك من كل ماله صلة بالبيئة الاجتماعية.

7 - **القسم الثقافي**: أي بيان أسباب ازدهار العلوم والآداب والفنون بها في جميع العصور بصفة عامة وفي العصر العبد الوادي الزياني بصفة خاصة مع ذكر من اشتهر بها من رجال الفكر وما خلفوه من الآثار التي سلمت من الضياع مما يمكن نشره والانتفاع به في المستقبل إن قيض الله لهذه الأمة رجالا عاملين مخلصين لا يبخلون بمجهوداتهم ويسعون بكل ما في وسعهم في إحياء تراث آبائهم وأجدادهم

(1) وإن قيل: إن بعض الأساطير أصح من التاريخ.

حتى يجددوا لبلادهم شرفها الخالد ويبنوا لها شرفا طريفا تفتخر به في مستقبل الأيام، وأخيرا لابد من الإشارة إلى الآثار العلمية المندثرة التي قد يقع العثور عليما في قابل الأيام فتبعث من جديد «وما ذلك على الله بعزيز ».[1]

8 - القسم العلمي: يشمل هذا القسم موجز تراجم العلماء ومن إليهم من فقهاء ومحدثين سواء كانوا من أهل تلمسان أو من الأفاقيين مع بيان إنتاجهم العلمي الباقي والمندثر للدلالة على حصافة عقولهم وسعة ثقافتهم.

9 - القسم الأدبي: يشمل هذا القسم كذلك موجز تراجم الأدباء ومن إليهم من كتاب وشعراء وحكماء التلمسانيين منهم والأفاقيين مع بيان إنتاجهم الأدبي معززين ذلك كله بنصوص نثرية وشعرية دالة على طول باعهم مع جودة أفكارهم ورقة شعورهم.

(1) قرآن كريم، آية 20 من سورة إبراهيم و آية 17 من سورة فاطر.

القسم الجغرافي

قال الشاعر السائح الهروي: (البسيط).

أوراق كديته في بيت كـــــل فتـــــــى

على اتفاق معــــــــان واختلاف روى

قد طبق الأرض من سهل ومـــن جبــــــل

كأنه خط ذاك السائح الهـــــــــروي .[1]

(1) كان هذا الرحالة كلما زار بلدا إلاّ كتب خطه في حائطه حتى صار مضرب الأمثال. من تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج 3 ص 95 طبع دار الهلال بلا تاريخ.



3 – تحتل تلمسان موقعا في غاية الروعة

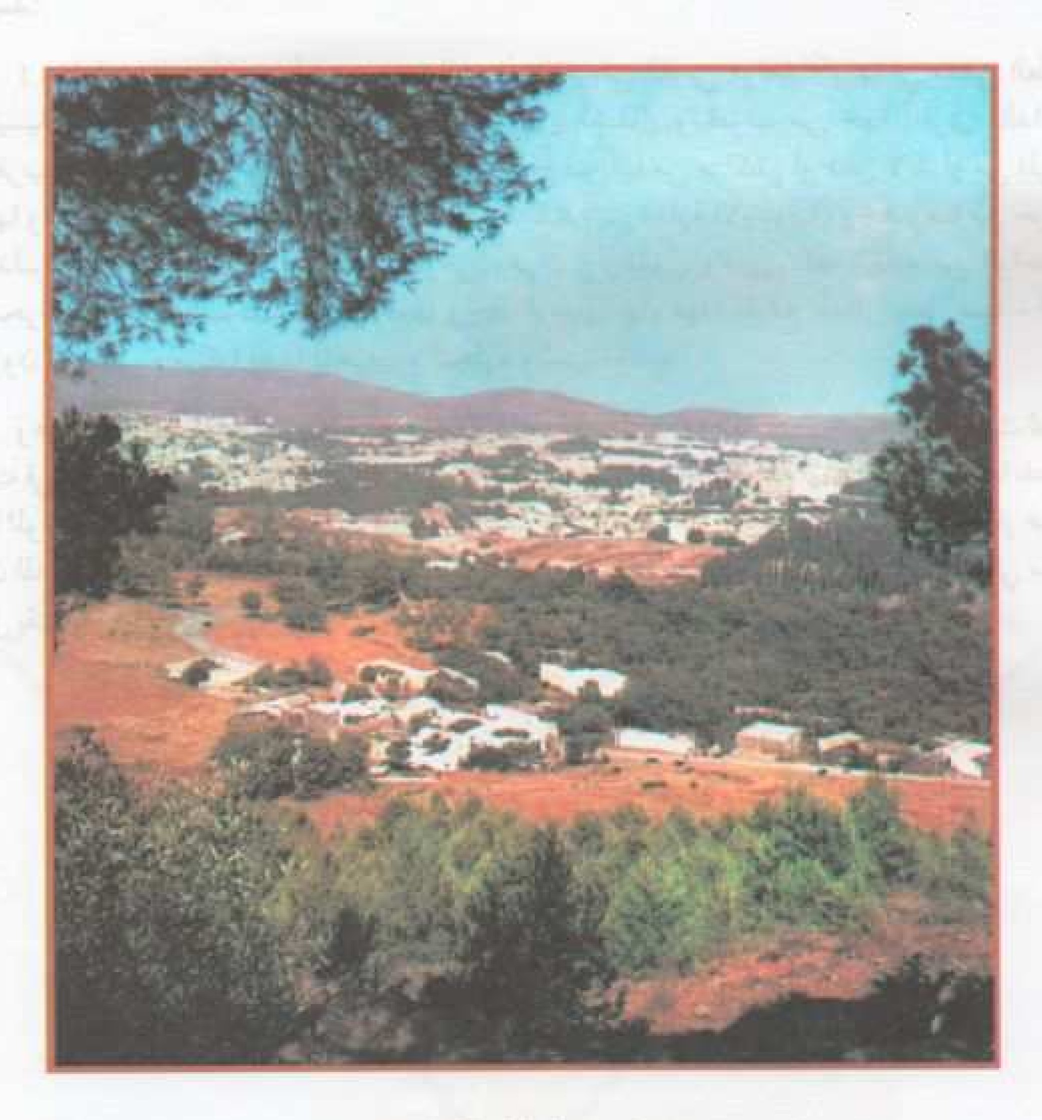
القسم الجغرافي

تمهيد:

1 - **الموقع:** تلمسان من أحسن مدن الشمال الإفريقي الغربي موقعا لكونها في ملتقى الطرق الرئيسية الرابطة بين الشرق والغرب من جهة وبين الشمال والجنوب من جهة أخرى فالداخل للمغرب الأقصى آتيا من تونس أو الجزائر، والخارج منه آتيا من مراكش أو فاس لابد له من المرور عليها والنزول والإقامة بها ولو أياما قلائل، وكذا القادم من القارة الأوروبية، وخصوصا من جزيرة الأندلس عبر البحر الأبيض المتوسط وموانئ وهران وأرشقول وهنين. كذا القادم من الواحات الصحراوية والبلاد السودانية المرور عليها وحط الرحال بها، فهذا الموقع الممتاز جعل منها - أثناء القرون الوسطى - مركزا مهما للحرب والتجارة والسياحة.

وهي ترتفع عن سطح البحر بنحو ثمانمائة وثلاثين مترا (830م) وتبعد عنه بنحو 60 ميلا حيث تمكن رؤيته في أيام الصحو من الجبال المشرفة عليها عند مصب نهر تافنة تجاه جزيرة أرشقول. وهواؤها بفضل هذا الموقع ألطف هواء [1] فلا هو رطب شأن المدن الساحلية لبعدها عن البحر شيئا ما.. ولا هو حار صيفا شأن المدن الواقعة في السهول والهضاب العليا، لقربها منه قليلا ما_ أضف إلى ذلك أنها بنيت في سفح جبل يقيها من ريح السموم الآتية من الصحراء في فصل الصيف (ص: 2 و ص:3)

(1) يقول الأطباء: إن هواءها صالح للمصابين بالتعب المفرط والخلقي والمصابين بفقر الدم ولكل من كان عصبي المزاج.



4 - تلمسان: الجبال التي تحوط بها غربا

2 - **تركيب أرضها**: مما تمتاز به أرض تلمسان وناحيتها تركيب أرضها الخاص الذي قل أن يوجد له مثيل في النواحي الأخرى من أرض المغرب الكبير إذ هي مركبة من عدة طبقات بعضها فوق بعض فأعلاها أي ما يقرب من سطح الأرض مكون من صخور الكلس المنشق ثم تأتي بعدها طبقات أخرى مكونة من الصلصال ثم تأتي بعدها طبقة ثالثة مكونة من الطين وهذا التركيب هو الذي يصلح لاجتماع المياه في باطن الأرض عند نزول الأمطار فهي تنزل ابتداء على صخور الكلس المنشق ثم تنفذ إلى الصلصال ومنه إلى الطين الذي لا يمكنها أن تخترقه فتكون حينئذ غمارا تحت الأرض ثم تنفجر عيونا تنحدر من الجبال والربى شاقة طريقها عبر أودية ومفاوز عديدة وتبقى هكذا جارية متدفقة تسقى البساتين والرياض والحقول والمزارع مكونة جداول كثيرة ذات مياه عذبة صافية تلمع تحت أشعة الشمس لمعانا ويسمع لها خرير في كل شعبة وتحت كل ربوة وتستمر هكذا في جريانها عبر السهول إلى أن تصل إلى النهر ومنه إلى البحر ولا تنضب هذه المياه حتى في فصل الصيف عندما تشتد الحرارة ويقع الجفاف في النواحي الأخرى من البلاد الجزائرية.

3 - **الجبال**: أما جبالها (ص:4) المعروفة في اصطلاح الجغرافيين المعاصرين (بجبال تلمسان) فإنها تتألف من أربع سلاسل تكاد أن تكون متوازية بعضها فوق بعض ودونك. ترتيبها من الجنوب إلى الشمال.

أ - سلسلة جبال تنوشفي التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها 1483 مترا وهذه السلسلة تشرف على المفازة التي توجد بها مدينة سبدو الواقعة على نحو 37 ميلا بجنوب تلمسان.

ب- سلسلة جبال بني إسماعيل[1] المشرفة على المفازة الممتدة من قرية أولاد الميمون شرقا إلى مدينة سبدو غربا وهذه السلسلة المؤلفة من أثنى عشرة قمة تدعى الأثنا عشر رسولا وتظهر من بعيد كأنها أشباح عظيمة جالسة وهي تنظر إل سبدو.

ج- سلسلة جبال رأس عصفور التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها 1566 مترا وهي تشرف على السهل الذي توجد به مدينة وجدة قرب الحدود الجزائرية المغربية

د- سلسلة جبال لالة ستي التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها 1306 مترا وهذه السلسلة الأخيرة هي التي تشرف على مدينة تلمسان الموجودة في سفحها الشمالي، ومن هضبة لالة ستي هذه تنبع عين غزيرة المياه تدعى (الفوارة) كان عليها مدار شرب أهل المدينة فيما مضى وهذه العين هي التي ورد ذكرها في قول الشاعر التلمساني أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي إذ هو يقول عنها في قصيدة له يصف فيما تلمسان ونواحيها: (الكامل).

(1) والسكان يقولون: جبال بني اصميل.



5 – غابة الوريسط



6 – غيران بني عاد (قرية قريبة من قرية عين فزة)

وأقصد بيوم ثـــالث فـــوارة	وبعذب منهلهـا المبارك فـانهـل
تجري في در لجين سائـــــــل	أحلى وأعذب من رحيق سلسل
وأشرف على الشرف الذي بإزائها	لترى تلمسان العليـة من عــــل[1]

فهذا الوضع الطبيعي الممتاز هو الذي جعل يحي بن خلدون، مؤرخ بني عبد الواد يقول عن تلمسان: (اقتعدت بسفح جبل ودون رأسه ببسيط أطول من شرق إلى غرب عروسا فوق منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين تطل منه على فحص أفيح معد للفلاحة[2] وهذه السلسلة من الجبال المشرفة على المدينة كلها مكسوة بغابات من الصنوبر (ص:5) ذلك الشجر الدائم الاخضرار الذي يزيد المدينة بهاء وجمالا بمنظره الخلاب.

وجبال تلمسان علاوة على ما ذكر إنها كثيرة الكهوف والمغارات ويمكن مشاهدة البعض منها كغيران (بودغن) الواقعة تحت جبل لالة ستي وغيران (بني بوبلان) بقرب المنصورة.

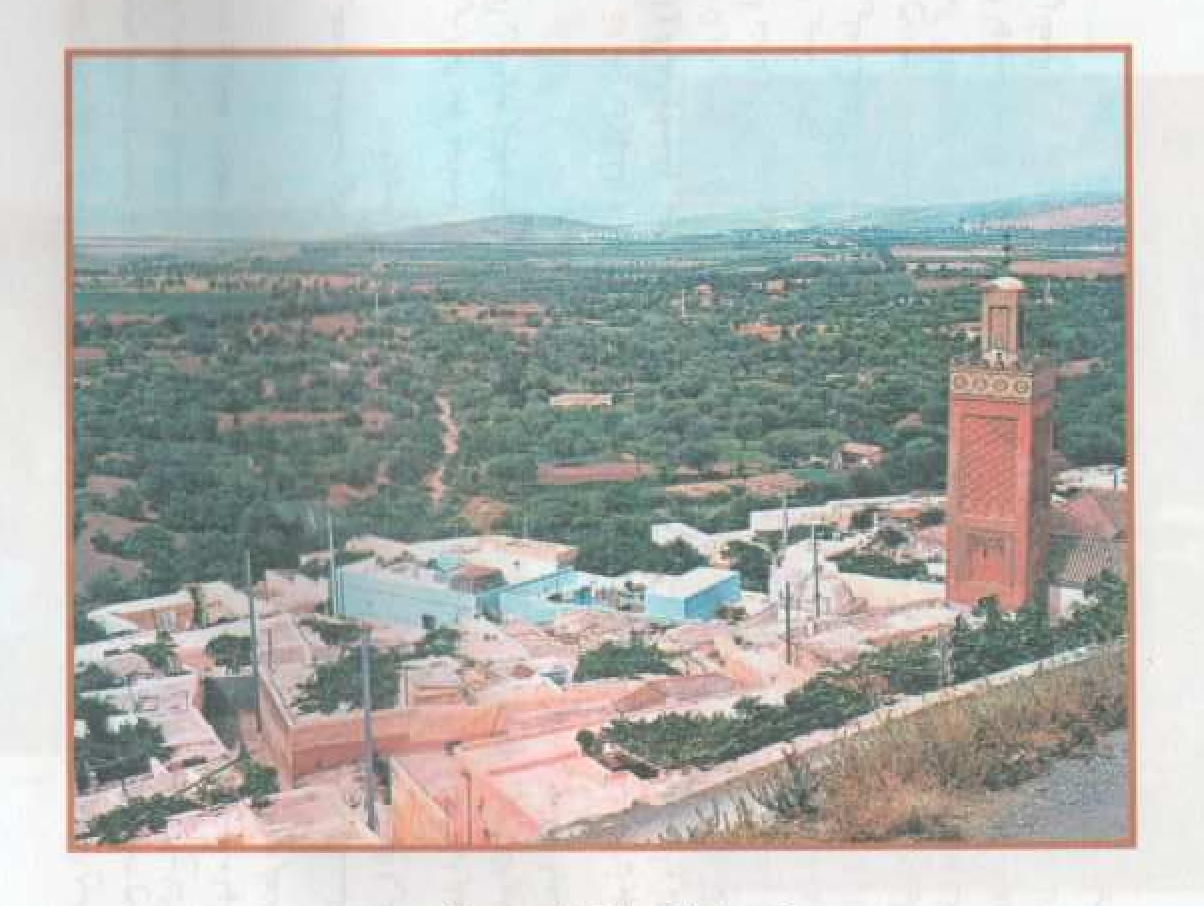
وهناك مغارات أخرى تهم السواح لما تتركه في نفوسهم من الروعة والإعجاب كغيران (بني عاد) (ص: 6) أو غيران (أهل الوعد) القريبة من قرية عين فزة وذلك بسبب ما انشملت عليه من الأروقة والتماثيل الطبيعية القائمة والمدلاة من سقف الغار.

4 - **السهول**: تكتنف تلمسان سهول من جهاتها الأربع، وتمتاز هذه السهول بجودة تربتها وفرط خصبها، وأشهرها أثنان: (الحرطون) الواقع في جنوبها الشرقي بين ربى القلعة والعباد و(المنية) (ص: 7) الواقع في شمالها حتى أنه ضرب بهما المثل منذ أمد بعيد فقيل عنهما: (الحرطون والمنية نصف الدنيا) وهذه البسائط وما يعلوها من ربوات كلها بساتين فيحاء ورياض غناء ذات أشجار باسقة (ص: 8) وظلال وارفة وثمار يانعة تغرد على أفنانها طيور مختلفة بأنغام شجية تغمر القلب بهجة وسرورا وتملأه انشراحا وحبورا ولا يعرف لمنظر المنية نظير إلا منظر مليانة المشرف على سهل واد الشلف البديع أو مرج غرناطة أي فحصها الواقع في جنوبها الشرقي والذي يمكن تسريح البصر فيه من مشارف قصر الحمراء العالية فيرى السائح بسائط خضراء يانعة تزخر بالحدائق الغناء[3] كما أنها تشرف بنحو400 مترا على سهل الحنايا الممتد في أقصى شمالها وسهل زناتة الواقع شمالها الغربي وهما السهلان اللذان يكونان ثروتها الزراعية وعليهما المعمول في إنتاج الحبوب والقطاني التي عليها مدار حياة أهل تلمسان خاصة وكذا الثمار والمواشي.

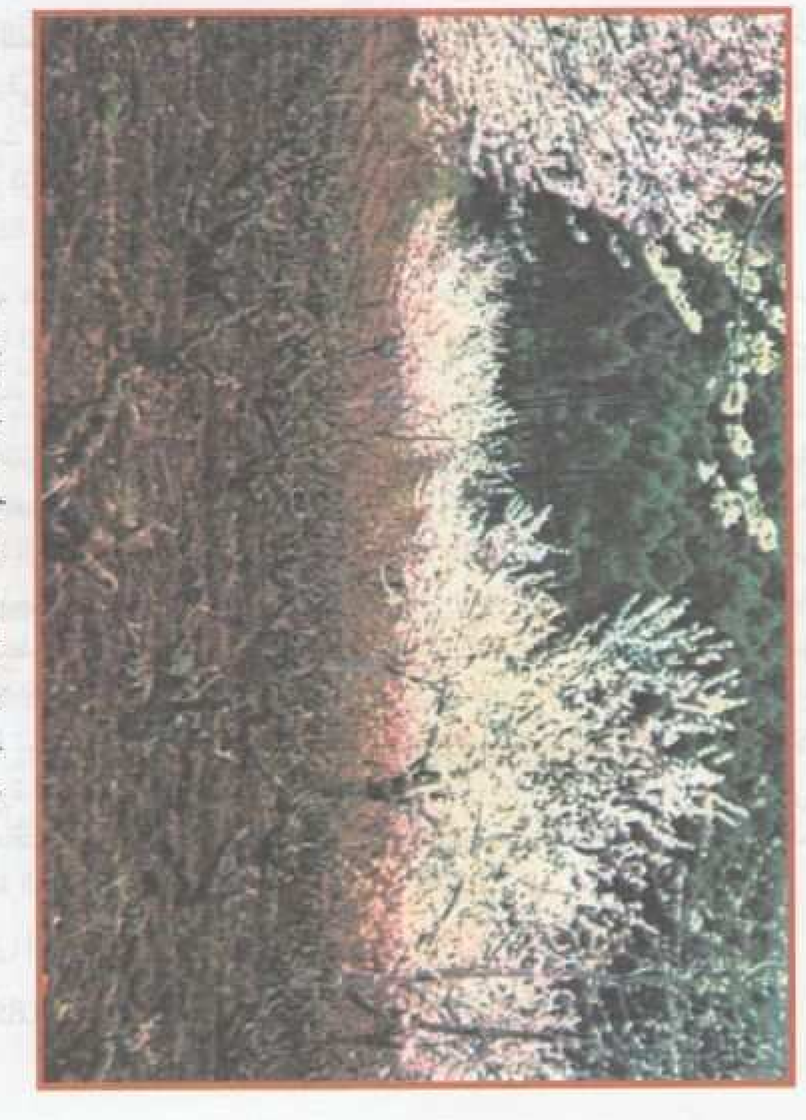
(1) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: المجلد الأول ص15، طبع الجزائر 1321هـ (1903).

(2) نفس المصدر، ص9 .

(3) يدعي هذا الفحص في لغة الأسبان: "لافيقا". La véga



7 - سهل المنية ومئذنة جامع سيدي الحلوي



8 – تلمسان: بستان من بساتينها بأشجاره الباسقة الزاهرة

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه السهول لها ري منتظم فمياه العيون والجداول التي لا تنصب صيفا كلها موزعة منذ أقدم العصور على الحقول والبساتين والرياض بحيث يأخذها الأعلى فالأعلى فيسقي بها أرضه ثم يطلقها لمن هو أسفل منه ويتكرر هذا السقي كل أسبوع طيلة فصلي الصيف والخريف الشيء الذي يزيد في خيرات الأرض ويجعل منها زربية خضراء، وجنة من الجنان تغص بالزروع اليانعة والرياض الفيحاء.

5 - **المناخ والفصول**: كذلك لتلمسان مناخ خاص بها وإن كانت واقعة في إقليم ذي مناخ معتدل حار فإن جوها يبقى معتدلا حتى في فصل الصيف لأن ريح السموم الآتية من الصحراء لا تؤثر فيه كما أشرنا إلى ذلك عند الكلام على موقعها إذ جبال الأطلس الواقعة جنوبها تقيها منها اللهم إلا إذا كانت تلك الريح قوية جدا فإن الحرارة قد تشتد بضعة أيام فقط ثم تنخفض بمجرد سكون تلك الريح أو ضعفها.

أما البرد فإنه شديد بها في فصل الشتاء لارتفاعها عن سطح البحر كما ذكر ذلك من قبل وقد يكون البرد قارسا أثناء شهري ديسمبر وجانفي خاصة وقد تنزل الثلوج المتوالية بهما فتغشي جبالها ورباها بحلة بيضاء بديعة المنظر وكثيرا ما تنزل الأمطار والثلوج حتى في فصل الربيع.

أما الخريف ففي وسعنا أن نقول إنه لا خريف بها لقصر مدته إذ الحرارة تبقى مرتفعة إلى أواخر شهر سبتمبر ولا يعتدل الجو بها إلا مدة قليلة أثناء شهر أكتوبر وتنخفض بمجرد دخول شهر نوفمبر حيث تهب عليها الرياح الشمالية الغربية حاملة معها الرطوبة والبرد، وأحسن أيامها الربيع إذ يمكننا أن نقول إنه يبدأ فيها في أواسط شهر فيفري حيث تكسى أشجار اللوز بحلة الأنوار البهية ولا ينتهي الربيع إلا في أواسط جوان ففي أثناء هذه المدة الطويلة التي تبلغ أربعة أشهر أو ما يقرب منها فإن الجو يعتدل بها اعتدالا لا حرارة شديدة ولا بردا قارسا، وفيه تكسى الأرض بحلة زبرجدية خلابة فترى لها مناظر ساحرة تستهوى الأنفس وتطرب لمرآها الأعين فأينما سرحت بصرك فلا ترى إلا زرابي من الأعشاب المخضرة تتخللها أزهار مختلفة الأشكال والألوان ولا تكاد تسلك مسلكا في ضواحيها إلا وترى على حافتيه أنوار الورد الطافحة بالروائح الذكية، وهذه المناظر الرائعة تذكر السائح بقول الشاعر ابن اللبانة الداني حينما وصف جزيرة ميورقة قائلا فيها:

بلدا أعارته الحمـــــــامة طوقها	وكساه حلة ريشة الطاووس
فكأنما الأزهارفيهــــــا مدامـــه	وكأن ساحات الديار كؤوس[1]

(1) المتغرب في حلي المغرب ج2 ص455 طبع دار المعارف بمصر بلا تاريخ.

6 - الأمطار: إن ارتفاع جبال تلمسان عن سطح البحر هو السبب الرئيسي في غزارة الأمطار النازلة بها حيث أنها تنزل بها سنويا نحو670م وهذه الأمطار يبتدئ نزولها غالبا في الشهر الثاني من الخريف أي في شهر أكتوبر ولا ينتهي نزولها إلا بانتهاء فصل الربيع أي في شهر ماي وقد تتخللها ثلوج كثيرة في فصل الشتاء وحتى في أوائل فصل الربيع في بعض السنين ومع ذلك فقد يتخلف المطر أحيانا أو يقل نزوله حتى في فصل الشتاء فيلتجئ الناس إلى حفر الآبار لسقي زروعهم وشرب مواشيهم وذلك لعلمهم بوجود الماء في باطن الأرض وإذا اشتدت بهم الحاجة التجئوا إلى الله تعالى بأداء صلاة الاستسقاء واستصحابها بصيام وصدقات مع الدعاء والاستغفار كما هو الشأن في جميع البلاد الإسلامية. وعند انحباس المطر وحصول الجفاف ترى الأطفال وخصوصا البنات في الأيام التي قبل الصلاة يملئون الأواني ماء من العيون ثم يرش بعضهم بعضا وهم ينشدون هذا البيت:

غنجة غنجة طالب الرجـا   يارب تعطينـــــــا الشتـا[1]

7- الأنهار (الخريطة رقم 1): إن الأودية المنصبة من جبال تلمسان بسبب ما ينزل عليها من الأمطار الغزيرة لا ينصب ماؤها حتى في فصل الصيف خلافا لما هو معهود في باقي الأقاليم الأخرى، وأشهر هذه الأودية ثلاثة: نهر تافنة[2] وساعدتاه: الخميس ويسر فالأول أي تافنة ينبع من سطح جبل مرشيش الواقع جنوب قرية ترني بعد أن يقطع مسافة أربعة أو خمسة أميال تحت سطح الأرض ثم يعبر بسائط سبدو ومغنية والرمشي ويبقى هكذا شاقا طريقه إلى أن ينصب بالبحر الأبيض المتوسط تجاه جزيرة أرشقول وهو غر صالح للملاحة وأما ساعدتاه فإحداهما غربية وهي واد الخميس وثانيتهما شرقية وهي واد يسر وهذه الأودية الثلاثة تنصب فيها أيضا عدة أودية وجداول عديدة يسمع لها خرير في كل ناحية، حتى قال عنها الإمام ابن مرزوق الخطيب:

بلد الجداول ما أمـــــــــر نواها   كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلي كن عاذري في حبهــــــا   يكفيك منها ماؤها وهواها[3]

---

(1) أي المطر.

(2) أطلق اسم هذا النهر على المعاهدة التي أبرمت بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو بتاريخ 30 مايو 1837 والتي بمقتضاها أرجعت تلمسان للأمير بعد أن كانت استولت عليها فرنسا سنة من قبل.

(3) تحفة الزائر للأمير محمد بن عبد القادر ص 18 طبع بيروت بلا تاريخ.

ومن أشهر هذه الأودية واد الصفصيف[1] المار شرق تلمسان ذلك الواد الذي يقول عنه الشاعر أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي: (الكامل)

واقصد إلى الصفصيف يوما ثانيا	وبه تسل وعنه دأبا فاسـأل
واد تراه من الأزاهر حـاليا	أحسن به عطلا وغير معطـل
ينساب كالأيم انسيابا دائمـا	أو كالحسام جلاه كف الصيقل
فزلاله في كل فم قـد حلا	وجماله في كل عين قـد حلي[2]

وهذا الواد يدعي ابتداء «المفروش» (ص:9) حين مروره بالجبل وعند نزوله منه يكون شلالة (ص:10) بديعة المنظر طالما تغنى بها الشعراء وهذه الشلالة تدعى (الوريط)[3]

فأسمع لقول أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس عنه: (الطويل)

نسيت وما أنسى الوريط ووقفة	أنافح فيهـا روضة وأفاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت	لإنسان عيني من صفاه صفائح

إلى أن يقول:

قراح أتى ينصب من فوق شاهق	لمثل حـلاه تستحث القـرائح
أرق من الشوق الذي أنا كـاتم	وأصفى من الدمع الذي أناسافح[4]

وقال عن الوريط أيضا مفدي زكرياء في إليادته: (المتقارب)

وتاه الوريط بشلالـه	يلقن زرياب[5] معنى الطـرب
وأغرى الملوك بحـب الملو	ك وأخلص في حبها كـل صب

8 - الحيوان: تعيش في الغابات التي تكسو جبال تلمسان حيوانات وحشية كثيرة مثل الضباع والذئاب والثعالب ولاسيما الخنازير البرية التي قد تتعرض للإنسان وتهجم حتى على القرى أحيانا أما الوحوش مثل الأرانب وغيرها فلا يكاد يخلو منها مكان لكثرتها وقلة من يقتنصها أو يتعرض لها بسوء.

(1) كلمة بربرية محرفة وأصلها أصيف بمعنى الواد.

(2) بغية الرواد ليحي بن خلدون مجلد 1ص 15.

(3) تبعد شلالة الوريط عن تلمسان بنحو ستة أميال وهي واقعة على الطريق الذاهبة إل مدينة سيدي أبي العباس.

(4) بغية الرواد ليحي بن خلدون مجلد 1 ص12

(5) زرياب هو تلميذ إسحاق الموصلي الذي أدخل الموسيقى العربية إلى الأندلس.



9 – وادي المفروش بالأعلى وشلالات الوريط بالأسفل



10 – شلالات الوريط

أما أشجار تلك الغابات فهي آهلة بالطيور على اختلاف أصنافها وأجناسها وألوانها وتباين أصواتها فكثيرا ما تسمع بها تغريد البلبل والعندليب وأم الحسن وجميع أنواع العصافير حتى أن السامع لتغريدها يتذكر قول الشاعر التونسي: (الكامل)

والطير من فوق الغصون تغازلـــت   كل يساجل غيره بغنـــــائه[1]

أما في السهول والبسائط فإن الفلاحين يعتنون جدا بتربية الحيوانات الأهلية ولاسيما البقر والغنم من ضأن ومعز وكذا الخيل والبغال والحمير الصالحة للعمل وحمل الأثقال كما يعتنون أيضا بتربية الطيور الأهلية من دجاج وحمام وبط وإوز وغير ذلك مما هو صالح للكسب والاستهلاك.

9 - النبات: إن جبال تلمسان تكسوها غابات كثيفة من أشجار الصنوبر والبلوط والبطم والدردار كما أن الربى والمفازات تغطيها أشجار الزيتون والخروب والضرو والعرعر بكثرة ولاسيما في منحدر الجبال وفي حافتي الأودية وأعظم هذه الغابات غابة زريفت وغابة أحفير وكلتاهما واقعة في الجنوب الغربي من مدينة تلمسان.

أما البسائط المكتنفة للمدينة والقريبة منها فإنها تمتاز بجودة أرضها المنتجة لجميع أصناف الحبوب من قمح وشعير وذرة وكذلك جميع الخضر سواء منها التي تستهلك خضراء أو تيبس وتدخر لفصل الشتاء من فول وجلبان ولوبياء وغيرها من القطاني.

أما الأشجار المثمرة فحدث عنها ولا حرج فالزيتون يكسو بسائطها ورباها وكذا النارنج والليمون بجميع أصنافها والتين واللوز والرمان وغير ذلك من الأشجار التي لا تنبت ولا تنمو إلا في الأقاليم المعتدلة كما يوجد أيضا الجوز والتفاح والأجاص والخوخ والكرز المعروف بحب الملوك الذي اشتهرت به تلمسان حتى قال عنها أديب الأندلس لسان الدين بن الخطيب: (ألا أنها بسبب حب الملوك مطمعة للملوك[2] وغير ذلك من الأشجار المثمرة التي لا تنبت أو لا تنمو إلا في الأقاليم الباردة.

10 - **المعادن والحمامات المعدنية:** في جبال تلمسان الواقعة في غربها وشمالها توجد معادن كثيرة ولاسيما معادن الحديد والرخام والمرمر الذي صنعت به أعمدة وتيجان المساجد والضرائح والقصور أثناء القرن الثامن الهجري (والرابع عشر الميلادي) وأشهر معادن الحديد فهما مقطع الحديد قرب بني صاف وغار المعدن قرب هنين أما أشهر معادن الرخام والمرمر فمعادن عين تاقبالت الواقعة في الشمال الشرقي من تلمسان. كما يوجد كذلك بنواحيها حمامات معدنية مياهها الحارة صالحة لمعالجة كثير من الأمراض وأشهر هذه الحمامات: تحماميت الواقعة على ضفة واد الصفصيف بين قريتي عين الحوت وأوزيدان وحمام سيدي العبدلي الواقع في شمال هذه القرية والذي يبعد عن تلمسان بما يقارب من الخمسين ميلا من جهة الشمال الشرقي وحمام بوغرارة والشقر الواقعان في شمال بلدة مغنية التي تبعد عن تلمسان بنحو الخمسين ميلا من جهة الغرب.

---

(1) قطع مختارة من النظم والنثر لمحمد الحبيب ص 24 طبع مصر 1348هـ (1929م).

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد المقري ج 4 ص 268 طبع مصر 1302 هـ.

11 - **السكان**: قبل أن نختم هذا الفصل لابد أن نقول كلمة عن سكان تلمسان وناحيتها. إن سكانها ثلاثة أصناف: حضر وحوز وبدو.

أما **الحضر** فهم سكان المدينة وهم إما من أصل عربي أو بربري سكنوا المدنية وتحضروا منذ آلاف السنين وإما من أصل أندلسي استوطنوا تلمسان بعد أن هجروا من وطنهم الأصلي منذ ما يزيد على الخمسة قرون وإما حضر من أصل تركي استوطنوا تلمسان بعد استيلاء الأتراك عليها منذ ما يقرب من أربعة قرون ونصف ويقال لهم القراغلة لتناسلهم بادئ ذي بدء من أب تركي وأم من أهل البلد الجزائري.[1]

أما **الحوز** فهم سكان الفحص أي ضواحي تلمسان القريبة منها وميزتهم أنهم مزج من البداوة والحضارة فلاهم بدو قحاح ولا حضر خلص وذلك بسبب سكناهم خارج المدينة وكثرة ترددهم عليها ومخالطتهم لأهلها.

أما **البدو** فهم سكان القرى والمداشر الذين بقوا على الفطرة التي فطرهم الله عليها و لم يتحضروا من أجل قلة ترددهم على المدينة وهم إما بربر وهم سكان الجبال الواقعة غرب نهر تافنة غالبا وأما عرب وهم سكان البسائط والربى الواقعة شرق نهر تافنة في غالب الأحيان.

ويضاف إلى ما ذكر جماعة من الزنوج الذين هم ذرية أولئك العبيد الذين جيء بهم قديما من السودان واسترقوا ولكن عددهم قليل جدا حتى أنه يمكنك أن تعدهم على الأصابع.

وقد كان يعيش بتلمسان وناحيتها عدد كبير من اليهود الذين لجأ أجدادهم إلى هذه الديار أثناء القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) بعد أن اضطهدهم الأسبان وشردوهم عن البلاد التي عاشوا بها مع المسلمين عدة قرون فوجدوا بتلمسان الصدر الرحب من طرف ملوك بني زيان وأهل البلاد وعاشوا بين أظهرهم قرونا متوالية إلى أن جاء عهد الاستقلال ففضلوا الهجرة إلى فرنسا كبقية يهود القطر الجزائري كله إلا أن الكثير من يهود تلمسان لا زالوا يترددون عليها كل سنة لزيارة ضريح حبرهم الراب أنكاوة المدفون بحي (قباصة) الواقع قرب المدينة وقد صدق أبو تمام حين قال: (الكامل).

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى	ما الحب إلا للـــحبيب الأول
كـــم منزل في الأرض يألفه الفتى	وحنينه أبــــدا لأول منزل[2]

كما كان يعيش كذلك بتلمسان وناحيتها جماعة كثيرة من الأوربيين المستعمرين من فرنسيين وإسبانيين لكنهم نزحوا هم كذلك إلى فرنسا بعد الاستقلال وعوضوا بأوربيين متعاونين جيء بهم من جميع أقطار أوروبا وخصوصا الشرقية كالروس والبلغار وغيرهم من الصقالبة الذين (لا خير فيهم قاطبة) كما قيل عنهم إلا أن إقامتهم ببلادنا محدودة تنتهي بانتهاء مهمتهم.

---

(1) الكلمات التركية والفارسية الباقية في اللسان الجزائري لمحمد بن شنب ص 69 طبع الجزائر 1922 .

(2) البيان والتبيين للجاحظ ج3 ص188 و 189 طبع القاهرة 1351هـ (1932م).

القسم التاريخي

قال ابن خلدون في المقدمة مخاطبا المؤرخ: "**تأمل الأخبار وأعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه**"[1]

وقال الشاذلي خزنة دار التونسي: (البسيط)[2]

أذكر لشعبك تاريخ الجدود ومـــــــــا

كانوا عليه وما في سالف العصـــــــــر

عسى تقوم معوجا لسيرتهـــــــــم

بما تقصه تقويما من السيـــــــــر

(1) المقدمة لعبد الرحمان بن خلدون ص 10 طبع مصر بلا تاريخ.

(2) قطع مختارة من النظم والنشر لمحمد الحبيب ص17 طبع مصر 1348هـ (1929م).

القسم التاريخي

تمهيد:

إننا لا نعرف بالضبط من اختط لأول مرة مدينة تلمسان ولا متى كان اختطاطها كما أننا لا نعرف كذلك بالضبط من أعطاها هذا الاسم ولا متى وقع إطلاقه عليها فكل ما نعلم عنها هو أنه اختطها أمراء بني يفرن من زناتة في القرون الأولى أي في العصر القدموس وأن اسمها الأول هو (أقادير) وهي لفظة زناتية معناها: الصخرة ذات انحدار الوعر وهو اسم يطابق المسمى لفرط علوها من جهة الشمال وإشرافها على بسيط المنية الذي تقدم الكلام عليه وأنها صارت تدعى تلمسان منذ أواخر القرن الثاني وابتداء القرن الثالث للهجرة (أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للميلاد) مع أن لفظة أقادير بقيت ولا زالت تطلق إلى يومنا هذا على الحي الذي كانت به المدينة القديمة في الجهة الشرقية من تلمسان الحالية.

وقد وقع اختلاف كبير بين المؤرخين في معنى كلمة تلمسان فمنهم من قال إنها (بفتح التاء، وضم اللام) وإنها كلمة عربية مركبة من تلم أي تجمع وسان أي الإنسان حذف منها أداة التعريف والهمزة والنون اختصارا. ومنهم من قال إنها (بكسرتين) علم زناتي مركب من تلم أي تجمع وسان أي اثنين ويعنون بذلك أنها تجمع بين السهل والجبل وقيل بين الصحراء والتل وقيل بين البر والبحر وكل ذلك تأويل بعيد والصحيح أنها لفظة زناتية وأن أصلها ثلمسين جمع ثلمت بمعنى عين أي ينبوع الماء الذي تحيط به أشجار كما أخبرني بذلك أحد الزملاء الذين لهم خبرة باللهجات البربرية وهذا المعنى يطابق المسمى كل المطابقة لما يوجد بتلمسان وضواحيها من العيون المتعددة التي قلما تخلوا مكنتها من أشجار تكتنفها وتنشر عليها ظلها الوارف. ومما يؤكد أن ابن عبد الحكيم يسميها تلمسين في كتابه «فتح إفريقية والأندلس»[1] إذ يقول فيه وهو يتحدث عن طارق بن زياد وموسى بن نصير: (وطارق يومئذ بتلمسين وموسى بن نصير بالقيروان) كما يقول من بعد متحدثا عن بنتي بليان: فأقرهما طارق (بتلمسين) كما أن لفظ تلمسين استعمله كذلك ابن خردادبة في كتابه: (المسالك والممالك) وابن الفقيه في كتابه (البلدان) وكلاهما من جغرافي القرن الثالث للهجرة.

وتدعى تلمسان أيضا (مدينة الجدار) أو (الجدار) فقط أي الحائط ويعنون بذلك أنها مسورة أي محاطة بالأسوار مما يدل على قدمها لقلة المدن المسورة في العهد القديم خصوصا بالمغرب، ولكن من جاء بعدهم من المؤرخين عدلوا عن كلمة تلمسين وأبدلوها بتلمسان لأسباب نجهلها.

---

(1) فتوح إفريقية والأندلس لابن عبدالحكم ص90 و91 من الترجمة الفرنسية. طبع الجزائر سنة 1947م.

وباختصار أن تلمسان هي مدينة عريقة في القدم بها آثار كثيرة أزلية من بقايا الأمم السالفة هي في حاجة إلى عناية فائقة ودراسة شاملة دقيقة مستفيضة تبرز ما تبقى من حضارة رائعة ومجد شامخ وما أحسن قول شاعرها أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي في هذا المعنى: (الكامل).

فلو أمرؤ القيس بن[1] حجر رآهـــــا قـــــدما تسلى عن معاهد مأسل

لو حام حول فنائها وظبائهـــــا مـــا كان محتفلا بحومة حومل[2]

(1) الشاعر الجاهلي المشهور صاحب المعلقة التي مطلعها:
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(2) (بغية الرواد). ليحي بن خلدون مجلد 1 ص 14 .

العهد الروماني

لم تكن تلمسان في عصر استيلاء الدولة الرومانية على الشمال الإفريقي أي ابتداء من القرن الثالث للميلاد إلا مركزا حربيا يحمل اسم (بوماريا) الذي معناه الحدائق بالمكان المعروف بأقادير المتقدم ذكره ولا نعرف تاريخ المركز بالضبط لأن الرومان لم يتركوا به آثارا ذات أهمية يعول عليها المؤرخون والباحثون فكل ما وجد بها من معالم هو عاديات ضئيلة لا تفيد شيئا وبضعة أحجار منحوت عليها خطوط لاتينية بسيطة لا تسمن ولا تغني من جوع.

يضاف إلى ذلك قناة للمياه بنوها في سفح جبل البعل [1] لا زالت تدعي إلى يومنا هذا (بساقية النصراني) يجري بها ماء غزير جيء به من عيون الوريط على ستة أميال من المدينة وهو معد لسقي البساتين الواقعة تحت تلك الساقية فاسمها دليل على أنها من صنع الرومان كما هي دليل على اعتنائهم بالري. وقد أشار الشاعر ابن خميس التلمساني إلى هذه الساقية بقوله: (الطويل)

لساقية الرومي عندي مزية　　　وأن رغمت الروابي الرواشح[2]

وإلى هذه الساقية عينها يشير صاحب (الإليادة) بقوله: (المتقارب):

وأجرى بك الـــروم ساقية　　　بها أسكر الحسن بنت العنب

ويقول أبو عبيد البكري في كتابه (المسالك والممالك): فيها (أقادير أو تلمسان القديمة) للأول آثار قديمة بها بقية النصارى إلى وقتنا هذا (القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي) ولهم بها كنيسة معمورة وأكثر ما يوجد الركاز بتلك الآثار) أي المال المدفون في باطن الأرض هذا يؤكد ما قلناه عن قدمها وأن تاريخ تأسيسها غير معلوم بالضبط.

(1) بفتح العين وهو الجبل الذي يشرف على قرية العباد.

(2) "بغية الرواد" ليحي بن خلدون مجلد 1 ص 11.

الفتح العربي وعهد الولاة

55 – 148 هـ (675 – 766م)

إن أول من وطئت قدماه أرض تلمسان من العرب الفاتحين هو أبو المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري ولي الخليفة معاوية على مصر وإفريقية وقد زحف إليها أبو المهاجر وجنوده حوالي عام 55 هـ (675م) حادا في أثر كسيلة الأوربي البرنسي الملك البربري الذي فر إليها بجنوده وقد وقعت بينهما معركة حامية الوطيس بمكان عرف فيما بعد (بعيون أبي المهاجر) قرب واد يسر المار شمال تلمسان وقد انتصر في هذه المعركة أبو المهاجر على كسيلة الذي عاد إلى الإسلام بعد أن كان قد ارتد فضمه أبو المهاجر إليه واستصحبه في حله وترحاله، ثم أن عقبة بن نافع الفهري بعد أن فتح مدينة تيهرت عام 62 هـ (681م) ونشر بها تعاليم الدين الإسلامي توجه بجنده إلى تلمسان ونزل بها لكن إقامته كانت قصيرة فيما يظهر لأن وجهته كانت مولية إلى فتح المغرب الأقصى من أجل نشر مبادئ الدين الحنيف في ربوعه وهكذا صارت تلمسان تابعة لولاة القيروان الذين كانوا يحكمون البلاد باسم الخليفة الأموي المقيم بدمشق قبل عام132 هـ (750م) ثم باسم الخليفة العباسي المقيم ببغداد بعد هذا التاريخ ومن جملة الولاة موسي بن نصير الذي بنى أول جامع بها عام 89 هـ (708 م) يقال إنه كان يضاهي جامع القيروان الذي بناه عقبة بن نافع، وقد غزاها من الولاة عبد الرحمن بن حبيب عام 135 هـ (752م) وظفر بما لم يظفر أحد قبله بها[1] وبقيت في حكم أولئك الولاة الآتين من الشرق إلى أن استولى عليها أبو قرة اليفرني أثناء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وأسس بها إمارة خارجية صفرية[2] لم تطل مدتها جاعلا منها قاعدة لإمارته.

(1) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ص13 طبع تونس 1968

(2) فرقة من الخوارج منسوبة إلى زياد الأصفر وهي أشد حماسا وحمية من فرق الخوارج الأخرى "أنظر كتابنا «الدر الوقاد»"، ص 13.

إمارتا أبي قرة اليفرني ومحمد بن خزر المغراوي

148 - 173 هـ (766 - 790 م)

في سنة 148هـ (755م) انتقض بتلمسان على ولاة القيروان قبيلتان من زناتة هما بنو يفرن ومغلية بعد أن اعتنقوا المذهب الخارجي الصفري ثم قدموا على أنفسهم أبا قرة اليفرني وبايعوه بالإمامة وقد لعب هذا الأخير دورا مهما في المعارك التي دارت رحاها بنواحي مدينة طبنة [1] بين ولاة القيروان من جهة وبين الخوارج من جهة أخرى أما إمارته بتلمسان فقد كانت قصيرة المدة إلا أنه فيما يظهر هو الذي أحاط المدينة القديمة أي أقادير بسور لاتزال بعض جدرانه قائمة إلى يومنا هذا إذ أن أحد أبواب المدينة «وهو الباب الغربي» كان يحمل اسم باب أبي قرة ولا ندري بالضبط متى انتهت إمارة أبي قرة ولكن المؤرخين اتفقوا على أنها كانت قصيرة المدى ثم تولى الأمر بتلمسان بعده بنو خزر المغراويرن الزناتيون ومن هؤلاء محمد بن خزر المغراوي الزناتي الذي سلمها للمولى إدريس ابن عبد آلله صاحب المغرب الأقصى عام 173هـ (790م) من دون حرب ولاقتال وذلك ما كان يخشاه الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي قال حين بلغه خبر استيلاء إديس عليها: «علا شأنه واشتهر أمره واسمه وفتح مدينة تلمسان وهو باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار» [2]

(1) مدينة اندثرت وكان موقعها بالحضنة قرب مدينة بريكة الحالية تبعد عنها بنحو أربعة أميال.

(2) «الأنيس المطرب القرطاس»، ص 8 طبع بفاس بلا تاريخ لابن أبي زرع.

العهد الإدريسي

139 – 173– هـ (790 – 931م)

إن المولى إدريسى بن عبد الله الحسيني رضي الله عنه لما دخل المغرب الأقصى عام 172 هـ (789 م) فارا من اضطهاد الخلفاء العباسيين فإنه التجأ أولا إلى مدينة وليلي في جبل زرهون فبايعه أهلها بالخلافة ثم دان له أهل المغرب الأقصى كلهم فلما ذاع صيته واستتب له الأمر توجهت أنظاره إلى الشرق فقدم بجيوشه إلى تلمسان ونزل خارجها فلقيه صاحبها محمد بن خزر المغراوي وبايعه وسلم له المدينة بدون مقاومة أصلا فدخلها إدريس صلحا وأقام بها عدة أشهر شيد أثناءها مسجدها الجامع[1] وصنع له منبرا كتب عليه مايلي: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وذلك في شهر صفر أربع وسبعين ومائة) وقد اندثرت معالم هذا الجامع منذ قرون عديدة إلا أن الحفريات ص: 152 و153 التي أجريت في السنوات الأخيرة قد أثبتت أنه كان يتألف من ثلاثة بلاطات وأحد عشر رواقا وأن محرابه ومنبره كانا في الرواق الأوسط من جهة القبلة ولا تزال الحفريات جارية لاكتشاف ما بقي منه وما كان حوله إلا أن مئذنته التي لا تزال قائمة –التي يفصل بينها وبين قاعة الصلاة الآن طريق عريضة لعل جزء منها كان صحنا له– هي متأخرة عنه بناء بما يقرب من خمسة قرون لان مشيدها هو السلطان يغمرا سن بن زيان العبد الوادي أثناء القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وبعد أن استتب لادريس أمر تلمسان واصل فتحه في المغرب الأوسط إلى أن بلغت جيوشه نواحي نهر شلف ثم قفل راجعا إلى المغرب الأقصى لكن مدة حكمه لم تطل حيث أن الخليفة العباس هارون الرشيد بعث له من قتله مسموما عام 177 هـ (794م). ثم تولى الأمر بعده ابنه إدريس الذي كانت أمه حاملا به حين وفاة والده.

أما تلمسان بعد انصراف إدريس الأول عنها فقد التجأ إليها أخوه سليمان ابن عبد الله الذي نزل بقرية عين الحوت[2] البعيدة عن المدينة بنحو عشرة أميال في الناحية الشمالية منها ثم تملكها وبعد وفاته خلفه عليها ابنه محمد. وفي أيامه أحدث الخوارج الصفرية فتنة عجز محمد هذا عن إخمادها فكانت هذه الفتنة هي السبب في قدوم إدريس الثاني إليها عام 199 هـ (815م).

ولما علم محمد بن سليمان بقدوم إبن عمه إدريس الثاني أطاعه وسلم له الأمر فقاتل إدريس الثوار وقضى على الفتنة وأقام بتلمسان نحو ثلاث سنين حتى دان له جزء كبير من المغرب الأوسط وكان الجامع الذي شيده والده قد تصدع فأمر بترميمه كما أمر بترميم ما انثلم من سور المدينة وأمر كذلك بإصلاح منبر الجامع وكتب عليه مايلي: «هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنهم في شهر المحرم سنة 199هـ» (815م).

---

(1) الذي آثاره الآن بحي أقادير.

(2) ومن ذلك الحين دعيت قرية «العلويين» أيضا إلا أنه غلب عليها اسم عين الحوت فيما بعد.

أما ابن عمه محمد بن سليمان الذي كان مستقرا بعين الحوت فان المولى إدريس الثاني جدد له العهد على ولاية تلمسان بعد أن عقد صلحا مع بني الأغلب أمراء إفريقية على أن يكون الحد الفاصل بينهما نهر شلف ثم قفل راجعا إلى مدينة فاس بعد أن أقام ثلاثة أعوام بتلمسان.

وبعد وفاة محمد بن سليمان بجبل وهران استمرت ولاية تلمسان في ذريته إلى أن استولى عليها موسى بن أبي العافية المكناسي عامل العبيديين[1] عام 319هـ (931م) وقطع دعوة الأدارسة منها ففر آخر بني محمد وهو الحسن بن أبي العيش إلى أرشقول واستقر بها ثم ملكها بعد استيلائه عليها بقليل بنو خزر المغراويون الزناتيون وحكموها باسم الخليفة الأموي صاحب الأندلس وابتداء من هدا التاريخ تعرضت تلمسان إلى فتن متوالية وحروب متتابعة بين القبيلتين العتيدتين صنهاجة الموالية للفاطميين وزناتة المناصرة للأمويين وقد دامت تلك الفتن والحروب ما يقرب من قرن ونصف وعرفت تلمسان خلالها البؤس والبوار والخراب والدمار ومما زاد الطين بلة وصول بني هلال والمعقل أثناء تلك الحقبة إلى نواحي تلمسان وعيثهم فيها كما فعلوا في غيرها من البقاع التي استولوا عليها من قبل بالمغربين الأدنى والأوسط وقد صدق العلامة عبد الرحمن بن خلدون لما قال عنهم في مقدمته (وذلك عنوان فصل من فصول هذه المقدمة) «إن العرب[2] إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب»[3] ولا نظن أن ابن خلدون كان مبالغا حيث أن قوله هذا يؤكد ما حكاه الإمام ابن مرزوق الخطيب عن نصيحة ثبتت عن أشياخ العرب أنفسهم للسلطان أبي الحسن المريني بما كان يظاهر قسنطينة مستقبلا إفريقية قالوا له: «قد أمكنه ألله من جميع طوائف العرب وشرار الوطن الذين أخربوا البلاد وخرقوا المعتاد وأظهروا في الأرض الفساد فلو قبض عليهم عند قدومهم إلى إفريقية لخلت من الشرار وأمنت من الفساد الدهر» فلم يعمل بنصيحتهم فكانت النتيجة الغدر به والنكث لعهده في واقعة القيروان عام 768هـ[4] (1348م) وقول سيدي أحمد بن يوسف الرشدي دفين مليانة الذي هو متأخر عنها بما يزيد عن القرن إذ هو يقول، في قوله السائر:

إذا عربت خربت — وإذا خربت لا تعمر

(1) نسبة إلى عبد الله المهدي مؤسس دولتهم ويقال لهم كذلك الفاطميون لزعمهم أنهم من ذرية فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم.

(2) المراد بالعرب الأعراب من بني هلال وأحلافهم الذين أنزل الله فيهم: «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله» سورة التوبة آية 97.

(3) مقدمة ابن خلدون ص 105 طبع مصر بلا تاريخ.

(4) المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق الخطيب، ص 336 طبع الجزائر 1401هـ (1981)

العهد الفاطمي والأموي والزحف الهلالي

(319 - 454 هـ (931 - 1063 م)

في هذه الحقبة الطويلة كانت قبيلة صنهاجة موالية للدولة الفاطمية: صاحبة السلطة في القيروان والمهدية وتقوم بالدعوة لها وكانت قبيلة زناتة مناصرة للدولة الأموية: صاحبة السلطة في قرطبة وتقوم بالدعوة لها لما تقدم من هجرة جدها إلى المدينة المنورة وإسلامه على يد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فنتج عن ذلك التنافس حروب هائلة وفتن كثيرة كانت تلمسان ضحيتها لأنها كانت تخضع تارة للفاطميين وطورا للأمويين وهكذا بعد استيلاء موسى بن أبي العافية عليها فإن أهلها ثاروا عليه وبايعوا صاحب الأندلس الخليفة عبد الرحمن الناصر فأسند هذا الأخير أمرها إلى عامله على المغرب الأقصى يعلى الافريني وكانت فترة كثرت فيها الفتن و لم يستتب الأمر فيها لا للعبيديين ولا للأمويين لكن في الأخير قضى القائد جوهر المقلي على الموالين للأمويين من بني يفرن ومغراوة الزناتيين وضمها نهائيا إلى مملكة العبيديين عام 347هـ (758م).

ثم بعد فتح العبيديين لمصر ونقلهم كرسي الخلافة من المهدية إلى القاهرة انضمت تلمسان كغيرها من باقي مدن المغرب الأوسط إلى الزيريين الصنهاجيين أصحاب (أشير)[1] الذين صاروا يحكمون البلاد باسم الفاطميين لان الزيريين أجلوا عن البلاد زناتة المناصرين للأمويين الذين كانوا يمدونهم بالرجال والأموال وقد وقع هذا الاجلاء عام 363 هـ (973 م) إذ في هذه السنة نفسها كان قد استولى على تلمسان بولقين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي وخربها وشرد أهلها ونقل الكثير منهم إلى عاصمته أشير إلا أنه لم ترق لهم الإقامة بهذه المدينة فبنوا بالقرب منها مدينة أخرى، عمروها ودعوها تلمسان الجديدة.

أما تلمسان الأصلية فجدد بنائها أمراء بني يعلى المغراويون وجعلوها عاصمة المغرب الأوسط ثم قام إليها زيري بن عطية بن خزر عام 381 هـ (991م) قائما بالدعوة للأمويين. وتمكن من الاستيلاء عليها وإرجاعها إلى حكم بني أمية وأبقى التصرف فيها إلى بني يعلى المغراويين. هكذا كان أمرها بين مد وجزر ما بين صنهاجة وزناتة حقبة من الزمن ليست بالقصيرة إلى أن استولى عليها بنو حماد عام 454 هـ (1063م).

والحق أن هذه الحقبة من تاريخ تلمسان يعتريها كثير من الغموض والظاهر أنها كانت فترة فتن داخلية وحروب خارجية لم تخلف وراءها إلا الخراب والدمار و لم تستفد منها الحضارة شيئا لا من حيث البناء والتعمير ولا من حيث الثقافة والتفكير.

---

(1) مدينة بناها زيري بن مناد الصنهاجي عام 324هـ (936م) بالجبل الأخضر من ناحية البرواقية (تطري) وجعل منها عاصمة ملكه ثم خربها يوسف بن حماد الصنهاجي عام 440 هـ (1048م).

وفي أواسط القرن الخامس الهجري (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) وصلت إلى أبواب تلمسان قبائل زغبة من بني هلال وقبائل المعقل عاثوا في نواحيها لكن المدينة سلمت من أضرارهم وفسادهم لأنها كانت مسورة وفي غاية من التحصين وقد استوطنت زغبة نواحيها[1] الواقعة شرق نهر تافنة واستوطن المعقل نواحيها الواقعة غرب النهر خصوصا السهول منها ولاسيما ناحية وجدة.

(I) حتى قيل عنهم: (مجزء المتقارب)

إذا عـربت خـربت   وحـل بها انهيـار
كـأرض إذا سبخـت   وقـد نـزلت أمطـار

الفتح الحمادي لتلمسان

454 – 472 هـ (1062 – 1080 م)

إننا نعلم أن الأمير بلقين محمد بن حماد صاحب القلعة الحمادية زحف بجيوشه عام 454هـ (1062م) على المغرب الأقصى وأنه استولى على تلمسان وألحقها بممالكه قبل أن يتوجه إلى مدينة فاس التي أخرج منها يوسف بن تاشفين منهزما إلى الصحراء لكن استيلاء الحماديين على تلمسان كان لمدة قصيرة حيث أن هذا الزحف كان الباعث الرئيسي للحملة الكبيرة التي قام بها يوسف بن تاشفين من جديد لا لاسترجاع فاس فحسب بل لفتح تلمسان وما خلفها من أقاليم المغرب الأوسط وقد حقق بغيته هذه عام 472هـ (1080م) أي بعد ثمانية عشر عاما من انهزامه أمام الأمير الحمادي بلقين بفاس ولا نعلم كذلك هل حكم بنو حماد تلمسان هذه المدة كلها أم بعضها فقط لأنها كانت بيد بني خزر المغراويين حين فتحها المرابطون فلا نعلم بالتدقيق هل كانت بنو خزر تابعين لهم أم مستقلين عنهم ونعلم من جهة أخرى أن الحماديين رجعوا إليها عام 496 هـ (1103م) بقيادة الملك المنصور واحتلوها مرة أخرى وخرج المرابطون منها منهزمين وعاث جندهم فيها وعظمت المحنة بأهلها حتى خرجت زوجة عاملها متشفعة للمنصور فرق قلبه لمنظرها فعفا عنهم ثم عقد معهم صلحا وعاد إلى بلاده تاركا تلمسان لهم لأنه لم يأتها قاصدا احتلالها وإنما أتاها بقصد الانتقام من المرابطين الذين تعدوا على ممالكه.

العهد المرابطي أو عهد الملثمين[1]

472 – 542 هـ (1079 – 1148 م)

بعث أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائده مزدلي اللمتوني في عشرين ألفا من المرابطين عام 472هـ (1079م) لغزو تلمسان وما وراءها من بلاد المغرب الأوسط وكان بها يومئذ يحي من بني خزر المغراويين فدافع عنها بجنوده حتى مات وظفر القائد اللمتوني ببعض مقصوده ثم ترك عليها عاملا من قبل أميره وقفل راجعا إلى مراكش عاصمة ملك المرابطين إذ ذاك.

وفي عام 474هـ (1081م) قدم يوسف بن تاشفين بنفسه إلى تلمسان من جديد لأن مغراوة كانوا عادوا إليها بعد انصراف قائده مزدلي عنها ففتحها وقتل عاملها العباسي المغراوي واستلحم ما بقي فيها من مغراوة وصيرها ثغرا لمملكته ثم استمر في فتح المغرب الأوسط إلى أن بلغت جيوشه مدينة الجزائر واستولت عليها لكنها لم تجاوزها بل اكتفت بالبلاد الواقعة غربها.

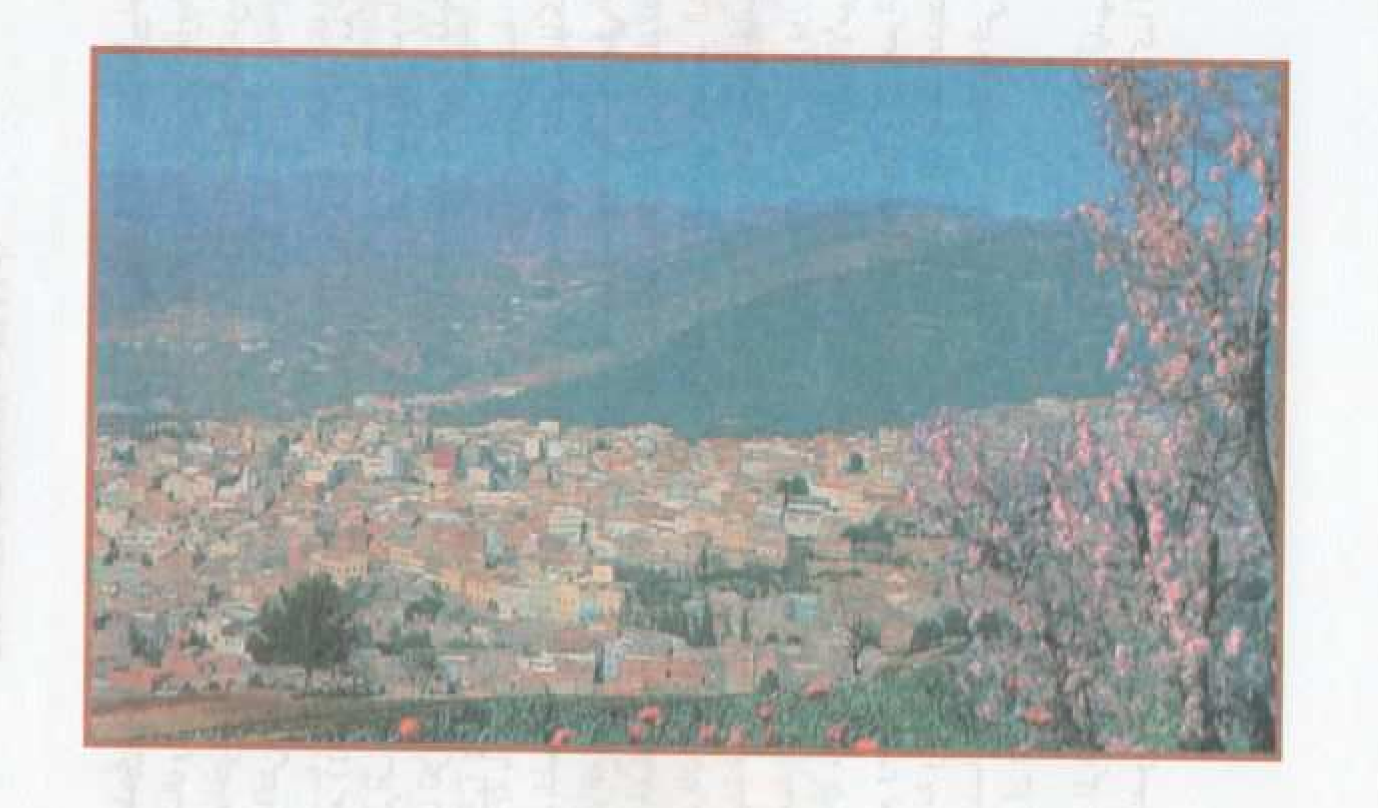
وأثناء حصاره لتلمسان القديمة أي أقادير بنى يوسف بن تاشفين مدينة جديدة بالمكان الذي نزلت به جيوشه الواقع في غرب تلمسان وسمى مدينته هذه تقرارت ومعناها المحلة في لغة القوم وحيث أن المدينة الجديدة أصبحت في المركز الرسمي للحكومة المرابطية إذ نزل بها القواد والجنود والرؤساء والأعيان فان ذلك دعا إلى تشييد دار الإمارة والمسجد الجامع بها كما هو الشأن عند إحداث المدن الجديدة فبنى حينئذ يوسف قصر تلمسان القديم الذي كان موقعه غرب الجامع الكبير وأسكن به عامله محمد المسوفي وعساكر المرابطين وكان هذا القصر يحتوي على عدة دور أشهرها دار النارنج وكانت به مقبرة صغيرة قرب ضريح سيدي ابن مرزوق خاصة بالأمراء والأميرات[2] ثم ابتنى الناس دورهم ومساكنهم حول دار الإمارة فعظم شأن المدينة الجديدة وكثر عمرانها لأنها صارت مقر الحكومة وأعوانها من جنود وموظفين وغيرهم وأما الشعب فإنه استقر بمدينته القديمة وهكذا أصبحت تلمسان مدينتين أقادير أو تلمسان القديمة وتقرارت أو تلمسان الحديثة التي صارت تلمسان الحالية بعد أن اندثرت أقادير.

و لم يكن عهد المرابطين بتلمسان كله عهد هناء وراحة واطمئنان بل عرفت في أيامهم المحنة الكبرى عند غزو المنصور الحمادي لها واحتلالها عام 496هـ (1103م) وإباحتها لجنوده كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

---

(1) سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا يغطون وجوههم باللثام كما يفعل التوارق إلى الآن.

(2) كانت تدعى هذه المقبرة "دار الراحة".



11 – منظر عام لمدينة ندرومة: ترى في وسطه مئذنة الجامع الكبير



12 - الجامع الكبير بالجزائر العاصمة
منظر خارجي



12 مكرر - الجامع الكبير بالجزائر العاصمة
قاعة الصلاة

وفي سنة 530هـ (1135م) في خلافة علي بن يوسف تم تشييد الجامع الكبير بتلمسان في شرق القصر القديم أو دار الإمارة كما يدل على ذلك الخط المنحوت على إفريز القبة التي قبل المحراب وسيأتي نص هذا الخط عندما نتعرض لوصف الجامع في القسم المعماري من هذا الكتاب وبنوا كذلك جامع ندرومة (ص:11) الكبير وجامع الجزائر الكبير (ص: 12و 12 مكرر).

وعلاوة على القصر القديم الذي، كان معروفا بتلمسان بالقصر البالي والجامع الكبير: (ص13 و 14) الذي لا يزال قائما إلى يومنا هذا فإن تلمسان لازالت تحتفظ من معالم المرابطين بثلاثة أحياء يحمل كل حي منها اسم من الأسماء التي أطلقوها عليه:

أ– حي تقرقرت الواقع في الجنوب الشرقي من المدينة قرب باب تقرقرت القديمة وهو محرف من تقرارات بإبدال الألف قافا في اللهجة الحضرية.

ب– حي درب مسوفة (ص: 15) الواقع مدخله تحت جامع الشيخ السنوسي ومسوفة اسم قبيلة كبيرة من قبائل المرابطين.

ج– حي باب إيلان الواقع جنوب الكنيسة عند مدرج نهج بابل. وكانت تلمسان في عهد المرابطين مقر الولاة على المغرب الأوسط وقد قصدها واستقربها كثير من العلماء وخصوصا الفقهاء الذين كان بيدهم الحل والعقد في أيامهم[1] واستمرت على هذه الحال إلى أن حاصرها الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي واستولوا عليها عام 542 هـ (1148م) بعد حصار طويل.

والجدير بالذكر أن عبد المؤمن هذا الذي أصله من قبيلة كومة أو كومية الواقعة بساحل ندرومة من ولاية تلمسان تلقى دروسه الأولى بهذه المدينة على أجلة علمائها آنذاك وبالخصوص على اثنين منهما: أولهما القاضي أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة، وثانيهما الشيخ عبه السلام التونسي[2] الذي دفن سيدي أبو مدين بجواره في روضته بقرية العباد الفوقي رحم الله الجميع بمنه وكرمه آمين.

(1) حتى قال الشاعر ابن البناء مخاطبا لهم: (الطويل):

تملكتم الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتم الأموال بابن القاسم

وركبتم شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

من «المعجب» للمراكش، ص 171 طبع القاهرة 1368 هـ (1949م).

(2) ترجم الأول يحي بن خلدون ترجمة وجيزة عن حياته: «بغية الرواد» (ص. 1 رقم 42 من المجلد الأول) وترجم الثاني ترجمة وجيزة أيضا صاحب «البستان» بن مريم، ص 122 .



13 - الجامع الكبير منظر خارجي



14 - ضريح شيخ الإسلام ابن مرزوق الحفيد بالزاوية الجنوبية الغربية من الجامع الكبير

العهد الموحدي

542 – 633 هـ (1147 – 1235 م)

بعد وفاة المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وبوصية منه آل أمرهم إلى عبد المؤمن بن علي الكومي فبايعه الموحدون بالخلافة وقبل أن يفتح مراكش والمغرب الأقصى توجهت أنظاره نحو المغرب الأوسط وفي أوله تلمسان فتوجه إليها بجنوده عام 534هـ (1139م) وكان قد سبقه إليها أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف وعسكر بواد الصفصيف فنزل عبد المؤمن بجنوده على الجبل المعروف بها بين الصخرتين المشرف على المدينة من الجهة الجنوبية الغربية[1] وبنى عليه حصنا لجيوشه وأقام يقاتل تاشفين مدة شهرين ثم بعث سرايا تغير على قبائل بني سنوس القاطنة في المنطقة الجبلية غرب تلمسان كما بعث سرايا أخرى للإغارة على بني ورسوس وغيرها من القبائل القاطنة شمال تلمسان فلما سمع بذلك تاشفين أرسل جند النصاري بقيادة الربرتير ليتعرض للسرايا العائدين وسلبهم غنائمهم فقتل الربرتير و لم ينج من جنده إلا ستة أنفار رجعوا بأخبار الهزيمة إلى أميرهم وقد وقع ذلك عام 539هـ (1135م) وحوصر تاشفين بتلمسان طوال عام كامل وهو يحاول صد العدو بدون جدوى، فلما انقطع أمل تاشفين من الانتصار على عبد المؤمن فإنه غادر تلمسان وتوجه بجنوده إلى مدينة وهران في محادات الشاطئ رجاء الفرار من هنالك إلى الأندلس على أسطوله الذي استدعاه من المرية. ثم دخل عبد المؤمن بعده ذلك تقرارت أو تلمسان الحديثة حيث كان يقيم الملثمون فاتحا لها عنوة فخرب ديارهم وغنم أموالهم وقتل رجالهم وكان من جملة القتلى شيخه القاضي الفقيه أبو عمرو عثمان بن صاحب الصلاة قتله عملا فيه بوصية إمامه المهدي بن تومرت الذي كان يقول له: «إذا مكنك الله من ابن صاحب الصلاة فاقتله فإن صفير الصاد من قوله: عليك بخويصة نفسك لفي أدني إلى الآن» وقد كان فتحه لها عام 542هـ (1147م) ثم أقام بها ستة أشهر جدد أثناءها بناء دورها وحصنها غاية التحصين بتجديد بناء سورها أي أقادير وأما تقوارت فان السيد أبا عمران موسى الآتي ذكره هو الذي شيد بناءها وأوسع تخطيطها وأدار سياج الأسوار عليها ومن جملة ما بقي قائما منها إلى يومنا هذا باب القرمدين الواقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة قرب حي قباصة كما أتم بناء جامعهما الكبير الذي بدأ بناءه المرابطون و لم يتموه وقبل عودته إلى المغرب الأقصى جعل عبد المؤمن من تلمسان قاعدة الولاية الغربية من المغرب الأوسط وعين كولي عليها سليمان بن محمد بن واندين الهنتاني وقيل ولي عليها عمه يوسف وكانت هذه الولاية تمتد من واد ملوية غربا إلى واد مينة شرقا.

وفي سنة 549هـ (1155م) عين كولي على تلمسان ولده السيد أبا حفص عمر كما عين له كوزير أبا محمد عبد الحق وانودين وككاتب أبا الحسين عبد الملك بن عياش وبقي أبو حفص عمر هذا وليا عليها إلى عام الأخماس أي إلى عام خمسمائة وخمسة وخمسين هجرية (555هـ 1160م) ثم استدعاه والده إلى مراكش وعين مكانه أخاه السيد أبا عمران موسى الذي وصل إليها عام 556هـ (1561م) وبقي بها عام

(1) هو موضع بين قميتن عاليتين تعرفان بصخرتي ترني.

564هـ (1168م) وهي السنة التي تحرك فيها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن للجهاد بالأندلس مستخلفا له على مراكش وبعث مكانه إلى تلمسان السيد أبا الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن وكان هذا السيد من الأمراء الأدباء.

وفي أيامه قدم عليه من إفريقية فارا من ابن غانية أخوه السيد أبو زيد فتنبه أبو الحسن لتحصين بلاده فأتم بناء سور المدينة ورمم ما انثلم منه وفي سنة 584هـ (1188م) نقل السيد أبو الحسن علي إلى ولاية بجاية فخلفه على تلمسان إبن عمه السيد أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن وبقي وليا بها إلى وفاته عام 604هـ (1207م) وكان هذا السيد من فحول الشعراء ثم ولي الخليفة محمد الناصر على تلمسان السيد أبا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن الذي وصل إليها عام 605هـ (1208م) وفي أيامه أمر الخليفة المذكور وليه ببناء ضريح (ص:16) شيخ مشائخ الإسلام في عصره أبي مدين شعيب بن الحسن الأندلسي المتوفى عام 594هـ (1197م) الذي قال عنه أبو عبد الله محمد بن خميس متشوقا إلى زيارة ذلك الضريح وهو بدار الغربة.

إليك شعيب بن الحسين قلوبنـــا نوازع لكن الجسوم نـــوازح[1]

والمدفون بقرية العباد من ضواحي تلسمان وسيأتي الكلام على هذا الضريح في القسم المعماري من هذا الكتاب.

وبعد أن قتل السيد أبو عمران موسى بن يوسف عام 606هـ (1290م) بتيهرت في حرب يحي ابن غانية الثائر على الموحدين ولّى الخليفة الناصر مكانه أبا زيد ابن زيد ابن بوجان الذي اتخذ ككاتب له أبا العباس أحمد بن أحمد البرشاني وكان هذا الأديب من صدور الكتاب في ذلك العصر.

(1) «بغية الرواد» ليحي بن خلدون مجلد 1، ص 12.



15 – حي درب «مسوفة» الواقع مدخله تحت مسجد الشيخ السنوسي ونرى أيضا في أعلى الصورة كيف كانت «القيسارية» القديمة وفي أسفلها مبدأ ساحة «السويقة».



16 – ضريح سيدي أبي مدين : الباب الخارجي

ولما انتقلت الخلافة الموحدية إلى أبي العلاء إدريس المأمون عام 624هـ (1227م) فإنه ولّى على تلمسان أخاه السيد أبا سعيد وكان هذا الأمير ضعيف الرأي سيء التدبير وكان معه عاملا على الوطن الحسن بن حيون الكومي فغلب أبا سعيد على رأيه وأغراه ببني عبد الواد الذين كان الموحدون أقطعوهم بلاد بين وامنو وبني يلومي بإقليم تلمسان مكافأة لهم في دفاع القبائل المنشقة فقبض أبو سعيد على جماعة من شيوخ بني عبد الواد وسجنهم بدار النارنج من القصر القديم فتشفع فيهم إبراهيم بن إسماعيل بن علان زعيم الجند اللمتوني سابقا فرد شفاعته فقام إبراهيم هذا بدعوة ابن غانية وأمر بإلقاء القبض على الأمير أبي سعيد بعد أن اغتال الحسن. بن حيون الكومي وأطلق سراح شيوخ بني عبدالواد المسجونين وكان وقوع هذه الأحداث عام624هـ (1227م) ثم أن ابن غانية رفض بني عبدالواد فرفضوه ودخلوا تلمسان بدعوة الخليفة المأمون الموحدي بعد أن قتلوا إبراهيم بن اسماعيل الذي أطلق سراحهم وكان أول من تولى منهم على تلمسان أبو محمد جابر ابن يوسف عام 627هـ (1230م) بعهد من خليفة بني عبد المؤمن أبي العلاء إدريس المأمون وهكذا استمرت ولاية تلمسان في مشيخة بني عبدالواد إلى أن استقل بها يغمراسن بن زيان عام 633هـ (1235م) مبقيا للموحدين تقلد العهد من يدهم والدعاء لهم في خطب الجمعة لكن الخليفة السعيد الملقب بالمعتصم ساءه ذلك فجاء في جموع كثيرة قاصدا تلمسان فخرج يغمراسن للقائه وانتصر عليه بواقعة تامزدكت[1] عام 646هـ (1248م) فقتله وغنم ما كان معه من الذخائر التي من جملتها مصحف الخليفة عثمان بن عفان رحمة الله عليه[2] واليتيم المعروف «بالثعبان».

---

(1) مكان هذه الواقعة بجبال بني سنوس في غرب تلمسان وكان به قلعة.

(2) أنظر ما قاله الإمام ابن مرزوق الخطيب عن هذا المصحف في كتابه «المسند الصحيح الحسن». ص 456 وما يليها في طبعة الجزائر عام 1401 هـ (1981م).

العهد العبد الوادي الزياني

633 - 962 هـ (1236 - 1554 م)

لما ضعف أمر الدولة الموحدية بالمغرب فإن بني عبد الواد الذين كانوا يحكمون باسمهم تلمسان وولايتها شقوا عصا الطاعة ونبذوا دعوتها معلنين استقلالهم بالمغرب الأوسط متخذين من تلمسان عاصمة لمملكتهم وقد توارث بنو عبد الواد عرشها أزيد من ثلاثة قرون إلا أن مملكتهم هذه كانت معرضة دائما للغارات والغزو من طرف جيرانهم الحفصيين ملوك إفريقية من الناحية الشرقية والمرينيين ملوك المغرب الأقصى من الناحية الغربية وكان هؤلاء أي بنو مرين أكثر قوة وأشد بأسا وكانت قاعدة ملكهم فاس أقرب إلى تلمسان من تونس قاعدة بني حفص الشيء الذي مكن المرينيين من الاستيلاء على عاصمة بني عبدالواد مرتين بل عدة مرات رغم مقاومتهم العنيفة ودفاعهم الشديد عنها وقد وقع استيلاؤهم عليها المرة الأولى عام 737 هـ (1337م) ثم أخرجهم منها بنو عبدالواد عام 349 هـ (1348م) لكن بنو مرين رجعوا إليها مرة ثانية وفتحوها عام 753 هـ (1352م) وبقوا بها إلى أن أخرجهم منها نهائيا أبو حمو موسى الثاني عام 760هـ (1259م) وهذا ما جعل العهد العبد الوادي الزياني ينقسم إلى قسمين بل إلى ثلاثة أقاسم: العهد العبد الوادي الأول ثم فترة السلطانين أبي سعيد وأبي ثابت التي دامت أربعة أعوام ثم العهد العبد الوادي الثاني أو بعبارة أصح عهد بني زيان ويتخلل ذلك فترتان مرينيتان.



17 - تلمسان: سور المشور
(صورة قديمة نرى فيها أنه كان يحوطا بسور المشور واد)



18 - تلمسان: أقادير مئذنة الجامع العتيق



19 - الجامع الكبير: الصحن والمئذنة

فإذا قرنّا الأشكال الهندسية الموجودة في واجهات كل من مئذنة الجامع الكبير ومن مئذنة الجامع العتيق بحي أقادير (أنظر الصورة 18) نجد أنها متشابهة تماما وهذا يدلنا على أن المئذنتين بنيتا في آن واحد وعلى يد واحدة

العهد العبد الوادي الأول

633 - 737 هـ (1236 - 1337م)

السلطان يغمرا سن: (معناه في اللهجة الزناتية رئيس القوم)، إن أو من نبذ دعوة الموحدين ولاة بني عبد الواد على تلمسان وأعلن استقلال المغرب الأوسط متخذا تلمسان كعاصمة لملكه هو السلطان أبو يحيى يغمراسن بن زيان الذي بايعه قومه عام 633هـ (1236م) وكان رجلا شجاعا ذا هيبة وحلم وتواضع وقد وصفه ابن الخطيب في الاحاطة كما يلي: «هو أحد أهل زمانه جرأة وشهامة ودهاء وجزالة وحزما، مواقفه في الحروب شهيرة»[1] وقد بقي على عرش تلمسان ثمانية وأربعين سنة وبضعة أشهر فهذه المدة الطويلة التي تولى فيها الحكم بالإضافة إلى خصاله المذكورة كل ذلك مكنه من توطيد الملك لأبنائه من بعده مدة ما يزيد على الثلاثة قرون بلغت تلمسان أثناءها أوج مجدها وغاية عزها فكثر عمرانها وامتدت أرجاؤها حتى بلغ عدد سكانها نحو المائة وخمسين ألف نسمة.

ومن آثار يغمراسن الجليلة التي خلفها بتلمسان تشييده للصرح العظيم المعروف باسم «المشور»[2] (ص: 17) الذي لا يزال موجودا إلى الآن بجنوب المدينة ولكن لم تبق منه إلا أسواره الشامخة أما ما كان داخله من دور وحدائق وغيرها من المنتزهات فقد انطمست معالمها قبيل الاحتلال الفرنسي وأثناءه وكان يغمراسن اتخذ هذا القصر مقرا له ولحاشيته بدلا من القصر القديم وقد اعتنى بتحسينه وتعصيره حتى صار كأنه مدينة صغيرة في وسط العاصمة وقد كان من جملة سكان هذا القصر العظيم ورؤساء القبائل والعشائر مصحوبين بأهاليهم فسكناهم به كان تشريفا لهم من جهة لكنهم كانوا بمثابة الرهائن إذا ما القبائل والعشائر شقت عصا الطاعة من جهة أخرى فكان ذلك حسب المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون: «من أغرب السجون التي لم يسمع بمثلها قط».

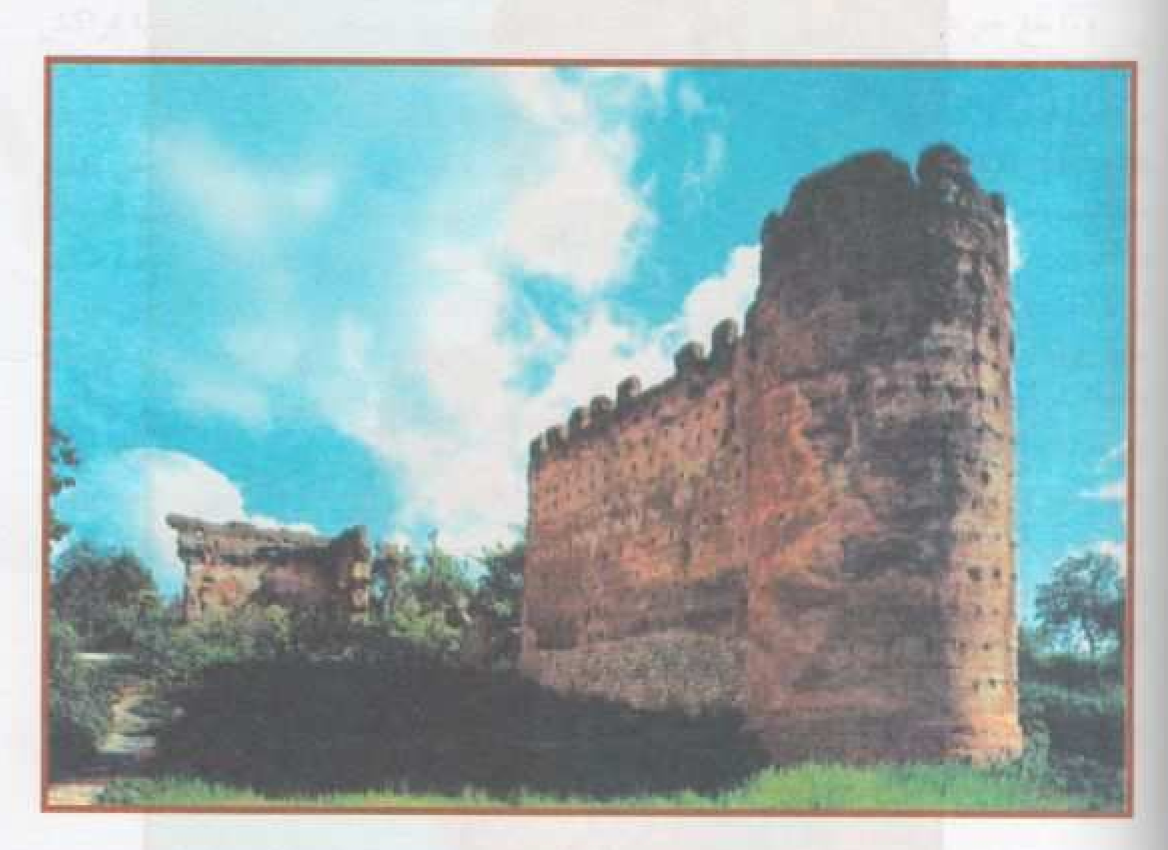
ومن آثاره أيضا التي انطمست بناء باب كشوط عام 668هـ (1270م) في الواجهة الغربية من سور المدينة وتحصينها غاية التحصين علما منه أن العدو كثيرا ما يأتي من المغرب الأقصى كما أن من آثاره كذلك بناء مئذنة الجامع العتيق أي جامع أقادير (ص:18) ومئذنة الجامع الكبير (ص: 19) أي جامع تاقرارت بعد أن جمع بين المدينتين أي أقادير وتاقرارت أو بين تلمسان القديمة وتلمسان الحديثة جاعلا منهما مدينة واحدة تمتد من باب العقبة شرقا إلى باب كشوط غربا ومن باب الجياد قبلة إلى باب القرمدين (ص: 20 و 21) شمالا وقد وقع هذا الجمع بهدم السور الغربي من المدينة القديمة والسور الشرقي من المدينة الجديدة و لم يكن بين السورين من المسافة إلا مقدار رمي حجرة وبعد الفراغ من المئذنتين استؤذن في نحت اسمه بهما فقال باللهجة الزناتية: «يسنت ربي» بمعنى علمه الله مما دل على حسن ظنه بالله وصدق نيته وسريرته وإعراضه عن المفاخرة بكل ما هو من الدنياويات

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب مجلد 1 ص 571 مصر بلا تاريخ.

(2) ان كلمة «مشور» مشتقة من الشورى فمعناه المكان الذي يتشاور فيه السلطان مع وزرائه بحيث لا يستأثر بشيء من شؤون الدولة دون مراجعتهم ليرى رأيهم فيه أخذا من قوله تعالى: «وأمرهم شورى بينهم» آية 38 من سورة الشورى.

كما أنه سئل منه القول بالشرف وإثبات نسبه إليه فقال: «إن كان المراد شرف الدنيا فهو ما نحن فيه وإن كان شرف الأخرى فهو عند الله سبحانه».

ومن جملة الأحداث الداخلية التي وقعت في عهد يغمراسن حادثة المؤامرة التي دبرها المرتزقة من النصارى لقلب نظام الحكومة يوم أن استعرض السلطان الجيوش بالمنية خارج باب القرمدين عام 662 هـ (1264م) وكاد أن يكون ضحيتها باعتداء رئيسهم عليه إلا أنه نجا منها وقتل أخوه محمد أثناءها.



20 - برج باب القرمدين



21 - أطلال باب القرمدين

ومن حسن سياسته وكياسته أنه بعد أن أعلن استقلال المغرب الأوسط عمل على تمتين العلاقة بينه وبين الخليفة الموحدي أبي الحسن السعيد صاحب مراكش لكن ذلك ساء السلطان الحفصي أبا زكرياء صاحب تونس لأنه كان يعتبر نفسه الوارث الشرعي للمملكة الموحدين التي كانت على وشك الانهيار فأخذ في الاهبة لغزو تلمسان وغزاها بالفعل عام 640هـ (1242م) فخرج يغمراسن للقائه لكنه انكسر واحتل الحفصيون تلمسان فصالحهم على أن يدفع لهم مائة ألف دينار سنويا وأن يذكر اسمهم على المنابر في خطب الجمع والأعياد.

ولما بلغ خبر هذا الصلح إلى الخليفة الموحدي أبي الحسن السعيد صاحب السلطة الشرعية بمراكش خاف من عواقبه أي من اتحاد بين عبدالواد وبني حفص وقضائهما على دولته فخرج بجيوشه من مراكش قاصدا تلمسان وكانت بينه وبين يغمراسن معركة حامية الوطيس قرب قلعة تامزدكت عام 646هـ (1248م) فانتصر فيها سلطان تلمسان على الخليفة الموحدي انتصارا باهرا واستولى على جميع ماكان معه من أموال وذخائر نفيسة ومن جملة هذه الذخائر المصحف العثماني، والعقد اليتيم المعروف «بالثعبان» وقد كان لهذا الانتصار صدى عظيم في جميع أقطار المغرب من أقصاه إلى أدناه ء فانتهز لهذا الصدى بنو مرين الذين كانوا قد استولوا على جميع ما كان للموحدين بالمغرب الأقصى فأسرع سلطانهم الأمير أبو بكر ابن عبد الحق المريني إلى تلمسان لمحاربة يغمراسن والظفر به قبل أن يعظم شأنه وتتوالى انتصاراته وفتوحاته فخرج سلطان تلمسان للقائه فكان اللقاء بنهر إيسلي قرب مدينة وجدة عام 646هـ (1248م) أي في نفس السنة التي انتصر فيها يغمراسن على الخليفة الموحدي فانكسر في هذه المرة جيش بني عبد الواد وولى الأدبار ثم أن يغمراسن كرر غاراته على بني مرين لكنه كان في كل مرة ينهزم أمام جيش المرينيين حتى أنه قبل وفاته عام 681هـ (1282م) أوصى ولده وولي عهده الأمير أبا عثمان بأن يكف عن محاربة بني مرين وبأن يوسع ملكه بانتزاع ما كان بيد الحفصيين في الأقاليم الشرقية من المغرب الأوسط.

السلطان أبو سعيد عثمان: حصار تلمسان الطويل وبناء المنصورة

بعد وفاة السلطان يغمراسن بايع بنو عبدالواد ابنه الأمير أبا سعيد عثمان وكان رجلا شهما مقداما فشرع في تنفيذ وصية والده بتوسيع مملكته من جهة الشرق فغزا قبيلة مغراوة العتيدة وانتزع مازونة ثم تنس كما غزا كذلك قبيلة توجين وانتزع منها ونشريس ثم المدية لكن غزوه لبجاية كان بغير جدوى.

وفي أيامه شيد مسجد أبي الحسن البديع الحسن قبالة باب البنود من المشور القديم بوصية من الأمير إبراهيم بن يغمراسن وكان تشييده عام 696هـ (1296م) ونسب إلى العلامة أبي الحسن بن يخلف التنسي[1] من أكابر علماء تلمسان في ذلك العهد تخليدا لاسمه وهذا المسجد هو الآن متحف المدينة وسيأتي وصفه في القسم المعماري.

وبعد ذلك بسنتين أي عام 698هـ (1200م) حوصرت تلمسان ذلك الحصار الطويل الذي دام ثمانية أعوام وبضعة أشهر وسببه أن الأمير عامر بن أبي يعقوب يوسف المريني الذي كان واليا على مراكش خرج على أبيه بمساعدة عامله ابن عطو فخرج إليه والده في جيش عظيم فلما انهزم الأمير عامر أمام جيش والده فإنه فر صحبة عامله إلى تلمسان عام 688هـ (1289م) فأواهما السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن فطلب أبو يعقوب يوسف المريني من أبي سعيد عثمان تسليمهما فأبى خفر ذمته فثار من سلطان فاس الضغائن الكامنة فعزم على غزوه تلمسان وسار إليها في جنوده حتى ناهزها فتحصن أبو سعيد عثمان بأسوارها فحاصره أبو يعقوب يوسف ونصب عليها المجانيق ثم سار يعيث في نواحيها مخربا القرى ومحطما الزروع لكن ذلك لم يفده شيئا فرفع الحصار ورجع إلى بلاده وجعل يستعد لحصارها من جديد.

فلما كانت سنة 697 هـ (1298م) عاد إليها بجنود لا تحصى وبعدة هائلة وأحاطت جيوشه بها ثم نصب عليها أقواسا عظيمة الهيكل بعيدة المرمى ومع ذلك كله لم يستطع فتحها فخلى سبيلها ورجع إلى بلاده لكنه أثناء عودته أنزل حامية بمدينة وجدة وأمرها بشن الغارات على إقليمها فنفذت الحامية أمره وتمكنت من الاستيلاء على أكثر الجهات القريبة منها.

ثم عاد إليها للمرة الثالثة في السنة الموالية أي 698 هـ (1299م) بعد أن جمع الجموع من كل حدب وصوب وأجزل أعطياتهم فنزل بساحتها الغربية وأحاطت جنوده بجميع جهاتها.

أما سلطانها أبو سعيد عثمان فإنه تحصن بالأسوار كعادته واستعد للدفاع والمقاومة العنيفة الطويلة كلفه ذلك ما كلفه.

وقد بقي أبو يعقوب يوسف مقيما على تلمسان ومحاصرا لها مدة أربعة أعوام فلما دخلت سنة 702هـ (1302م) ورأى مقاومة بني عبد الواد له وصبرها على الحصار شرع في بناء مدينة (الخريطة رقم:2) بالمكان الذي كانت محلته نازلة به مبينا بذاك لأهل تلمسان أنه مصمم على الفتح وأنه لا ينصرف بعده فاختط مكان فسطاطه قصرا لسكناه وبني مسجدا جامعا وشيد له منارا رفيعا ثم أمر الناس بالبناء

(1) هو أخ الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي وأستاذ العلامة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي.

حول ذلك فبنوا لهم دوارا وقصورا وفنادق وحمامات ومارستانات ثم أحاط كل ذلك بالأسوار فصارت مدينة ذات أسواق نافقة فاستفحل عمرانها وقصدها التجار بسلعهم من جميع الآفاق فسماها حينئذ «المحلة المنصورة»[1] أو تلمسان الجديدة وكانت تلمسان الحقيقة أثناء ذلك تذوق الأمرين الخوف والجوع كما أن جنود بني مرين احتلوا في تلك المدة ندرومة وهنين ووهران وجميع ما كان بيد بني عبد الواد بالمغرب الأوسط.

السلطان محمد أبو زيان الأول:

ثم لما كان عام 703 هـ (1303م) توفي السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن أثناء الحصار فبايع بنو عبد الواد لحينهم ابنه محمد بن عثمان المكني بأبي زيان ثم خرجوا لقتال عدوهم كعادتهم كأن عثمان لم يمت وبلغ خبر موته إلى السلطان المريني المحاصر لهم فتأسف عليه وعجب من صرامة قومه، وقد أشار أبو عبد الله محمد بن خميس وهو مقيم بالمرية إلى هذا الحصار وما قاساه أهل تلمسان من طول المحنة واشتداد البلاء في قصيدة له مطلعها:

سل الرياح إن لم تسعد السفن أنـــــــتواء   فعنـد صباها من تلمسان أنبـــــــــاء

قال المقرئ: «فإن من الاتفاق الغريب سرعة وقوع ما تمناه ابن خميس لتلمسان هذه من الخير بطول المحنة واشتداد البلاء ولم يتأخر ذلك عن تاريخ القصيدة غير أربعة أشهر»[2]

وقد استمر هذا الحصار إلى أن هلك أبو يعقوب يوسف عام 706هـ (1307م) أي أنه دام ثمانية أعوام وأربعة أشهر وبضعة أيام وقد نال أهل تلمسان من الجهد والشدة أثناءه ما لم ينل قوما غيرهم حيث أنه ماتت من الخلق في مدته ما يربو على مائة ألف نسمة أما أثناء القتال أو جوعا إذ أسعار الأقوات ارتفعت بما جاوز العادة حتى أنهم اضطروا إلى أكل القطط والفيران والجيف خربوا السقوف للوقود وضاعت أموالهم وضاقت أحوالهم حتى عزموا على الخروج للاستماتة فنفس الله من كربتهم وأذهب عنهم العناء بمهلك سلطان بني مرين واختلاف قومه على من يبايع مكانه فخرج أهل تلمسان وكأنهم نشروا من قبور عمدوا إلى المنصورة بعد ذهاب بني مرين فخربوها وجعلوا عاليها سافلها وحطموا (ص: 22و23) كل ما كان بها من دور وقصور ومن تلك الحادثة نقش بنو عبد الواد على سكنهم الجديدة: «ما أقرب فرج الله».

(1) تم حذف الموصوف من بعد وبقيت الصفة فقيل المنصورة لا غير.

(2) «أزهار الرياض في أخبار عياض» للمقري ج 2، ص 33 طبع القاهرة1359 هـ (1940م).

22 – آثار المنصورة

23 – جزء من مئذنة جامع المنصورة : حلية نادرة لعهد المرينيين

وهنا نتساءل هل كان للسلطان أبي سعيد وخلفه أبي زيان ولأهل تلمسان جميعا من الذخائر والأقوات ما يمكنهم من الصبر على الحصار والمقاومة تلك المدة كلها أي ما يزيد على مائة شهر والجواب عن ذلك حسب البحث الدقيق الذي قمنا به هو أن تلمسان كانت محاطة من جميع جهاتها بسورين وان المسافة بينهما كانت تتراوح بين ثلاثة مائة وخمسمائة مترا وأن المساحة التي بين السورين كانت تستغل وينتفع بمحصولها طيلة مدة الحصار نعم لم تكن تلك المحمولات كافية ولكنها ساعدتهم على المقاومة والصبر على الحصار طيلة تلك المدة التي ليست بالقصيرة وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل في القسم المعماري عند الكلام على أسوار المدينة.

ثم عقد السلطان أبو زيان الصلح مع بني مرين واسترد منهم كل ما كانوا استولوا عليه من بلاد ورجعوا إلى المغرب الأقصى بعد أن شرطوا عليه ألا يتعرض أهل تلمسان لمدينة المنصورة بسوء ثم خرج أبو زيان من تلمسان شرقا لمحاربة القبائل التي شقت عصا الطاعة عليه وبعد أن دوخها وخضعت لسيادته عاد إلى عاصمة ملكه فأدركه أجله المحتوم عام 707هـ (1307م) رحمة الله عليه.

السلطان أبو حمو موسى الأول: (الخريطة رقم:3)

بعد وفاة السلطان محمد أبي زيان بايع بنو عبد الواد أخاه الأمير أبا حمو موسى بن أبي سعيد عثمان وكان رجلا حازما شجاعا فقام بأعباء الملك أحسن قيام فبعد أن سا لم بني مرين واطمأن من جهتم على الناحية الغربية من بلاده فإنه طهر الناحية الشرقية من قوم الفساد وقد كثرت فتوحاته حتى امتد ملكه إلى بجاية شمالا وإلى الزاب جنوبا كما كثرت منشآته العمرانية داخل تلمسان وخارجها فمن منشآته بعاصمة ملكه مسجد المشور الذي لا يزال، قائما لكنه فقد كل ما كان به من أعمال فنية و لم يبق منه ما يستلفت النظر سوى مئذنته التي احتفظت واجهتها الجنوبية ببعض زخرفتها الرائعة ومن منشآته بتلمسان أيضا ذلك المسجد الفخم ذو المنارة الأنيقة المنسوب إلى العالمين الجليلين ابني الإمام وكذلك المدرسة التي في غرب هذا المسجد واندثرت تماما وقد كانت هذه المدرسة تدعى المدرسة القديمة أو مدرسة أولاد الإمام ومن منشآته خارج العاصمة قصره بسوق الخميس الذي سماه: حمو موسى ثم حرف من بعد إلى عمي موسى وموقعه في الجنوب الغربي من مدينة الأصنام وكذا قصره المسمى بأزفون على شاطئ البحر من بلاد القبائل الكبرى، وأخيرا مدينة أقبو التي شيدها في جنوب بجاية.

ومن منشآته التنظيمية إحداث مراسيم الملك وتشريفات القصر في الدولة العبد الوادية الزناتية.

إن أبا حمو موسى قام بهذه الأعمال في ظرف سبع سنوات فقط حيث أن بني مرين رجعوا إلى تلمسان عام 714هـ (1314م) وضايقوها وحاصروها من جديد بقصد الانتقام من أهلها الذين عمدوا إلى لمنصورة بعد ذهابهم فهدموها وطمسوا معالمها وتركوها أثرا بعد عين كما أسلفنا لكن أبا حمو تحصن بالأسوار ورجعوا إلى بلادهم خائبين قانعين من الغنيمة بالإياب.

ولكن مما يؤسف له أن الأمير أبا تاشفين ثار على والده عام 718هـ (1318م) فدبر مكيدة كان والده ضحيتها لإيثاره ابن عمه أبا سرحان مسعود بن أبي عامر عليه وتفضيله أياه ثم تقلد الحكم مكانه.

السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأول:

بعد اغتيال أبي حمو موسى الأول بايع بنو عبد الواد ولده أبا تاشفين عبد الرحمن الذي دبر مكيدة اغتيال والده فكان أول ما أنجزه من الأعمال أن أبعد قرابته إلى الأندلس وكان مولعا باللهو والتمتع بملاذ الحياة لكن من غير إفراط حيث أن ذلك لم يمنعه من القيام بشؤون الملك خير قيام وكان رجلا حاذقا وفنانا ماهرا فأحدث المصانع وأنشأ المنتزهات وبني الدور والقصور فخلف آثارا لم يخلفها غيره حتى أن ابن الخطيب سماه: «مشيد القصور ومروض الغروس ومبني الترف»[1] ومن ذلك دار الملك ولعله ضاهى بها قصرالجعفرية الذي ابتناه بسرقسطة احمد بن سليمان بن هود في أواسط القرن الخامس الهجري (11)[2] لأنه اشتهر باسم دار الملك ودار السرور ودار أبي فهر التي ضاهى بها قصر المستنصر الحفصي بتونس.

ومن منشآته العمرانية أيضا المدرسة التاشفينية التي كانت جنوب الجامع الكبير و لم تنطمس معالمها إلا بعد الاحتلال الفرنسي وكانت هذه المدرسة إحدى عجائب الدنيا وقد ذكر أبو العباس أحمد المقري في كتابه نفح الطيب أنه كان بصحن تلك المدرسة فوارة بديعة الصنع وأنه كان منقوشا على دائرة الماء الأبيات التالية الوارد ذكرها أيضا في الجزء الثاني ص 380 من تاريخ الشيخ مبارك الميلي (الكامل):

انظر بعينيـك بهجتي وسنائـي	وبديع إتقاني وحسـن بنائـــي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى	من نشأتي بل من تـدفق مــائي
لطيــف ذائـب سيلانــــــــه	صاف كذوب الفضة البيضــاء
قد حف بي أزهار وشي نمقت	فغدت كمثل الروض غب سماء

ومن آثاره كذلك الشجرة ذات الطيور المغردة التي ذكرها الحافظ التنسي في كتاب «الدر والعقيان» فإنه يقول عنها:

« وكانت هذه شجرة من فضة على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة وأعلاها صقر فإذا استعملت المنافخ في أصل الشجرة وبلغ الريح مواضع الطيور صفرت بمنطقتها المعلوم لمشابهها فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها».

(1) «الاحاطة» لابن الخطيب ج1، ص547 طبع مصر.

(2) أو ضاهى بها دار الملك التي كانت بمدينة الزهراء من ناحية قرطبة.

ومن آثاره كذلك الصهريج الكبير المعروف عند أهل تلمسان بصهريج بدة[1] والذي طوله مائتا متر وعرضه مائة متر وعمقه ثلاثة أمتار وقد كانت مياه هذا الصهريج تستعمل في سقي البساتين الواقعة تحته وربما كان يصلح أيضا لتدريب الأحداث على السباحة والتجديف حين الركوب على الفلائك فضلا عن كونه منتزها خصوصا في فصلي الصيف والخريف ولا يزال موجودا إلى يومنا هذا لكنه جاف لا ماء فيه وكثير ما كانت تستعمله السلطة العسكرية لتدريب الجنود.

وكان أبو تاشفين هذا أوسع بني الواد ملكا فتوجه جريا على عادة أجداده عام 719هـ (1319م) إلى مغراوة المنشقين غازيا لهم فحاصروهم بوانشريس وأخضعهم ثم واصل السير نحو الشرق وكان بلغه وقوع اضطرابات بقسنطينة ففتح بجاية ثم قسنطينة وانتهى به المطاف إلى تونس عاصمة الحفصيين ففتحها أيضا عام 720هـ (1320م) بعد انتصاره الباهر عليهم في السنة التي قبلها بقسنطينة ثم أن الحفصيين طلبوا من البلاط المريني التدخل في القضية والوساطة لدى أبي تاشفين من أجل استرجاع مملكتهم وكان أبو الحسن المريني صهرهم فرد أبو تاشفين وساطتهم فكان هذا الرد سببا لقدوم بني مرين إلى تلمسان وحصارها مرة أخرى ثم الاستيلاء عليها عام 737 هـ (1337م) وقتل سلطانها أبي تاشفين وبذلك انتهى به العهد الأول لدولة بني عبد الواد بتلمسان ولم يكن هذا العهد عهد تشييد وبنيان فحسب بل كان ذلك عهد حضارة وعمران وعلوم وعرفان حتى أن تلمسان صارت فيه تضاهي أهم عواصم الغرب الإسلامي كفاس وتونس وغرناطة، عواصم الدول التي كانت مجاورة ومنافسة لها في آن واحد أي بني مرين وبني حفص وبني الأحمر أو بني نصر وقد سمى المؤرخون هذا العهد العصر الذهبي لدولة بني الواد بتلمسان.

(1) يقال أنه اسم علم على أميرة من أميرات القصر العبد الوادي المشرف على الصهريج ومعناها لغة الحظ والنصيب. وقد حول الآن إلى حديقة عمومية.

النظام الحكومي لدولة بني عبد الواد

تمهيد:

كانت مملكة بني عبد الواد أو بني زيان تشمل المغرب الأوسط وكانت عاصمتها تلمسان وكان يحدها شمالا البحر الأبيض المتوسط وجنوبا الصحراء الكبرى الشاسعة الأطراف الممتدة إلى بلاد السودان وأما غربا فكان يحدها واد ملوية وشرقا واد الصمام أو الواد الكبير لكن هذين الحدين الأخيرين لم يكونا قارين بل كانا خاضعين لما تفرضه الغارات الحربية والظروف السياسية.

قد سن السلطان يغمراسن نظاما حكوميا لدولته سار عليه خلفاءه بعده طيلة القرون الثلاثة التي حكموا المغرب الأوسط أثناءها وكان نظامهم يتألف من موظفين ساميين مرتبين ترتيبا خاصا.

1 - **الوزير**: كان الوزير في البلاط العبد الوادي هو صاحب الرتبة الأولى بعد السلطان إذ هو مستشاره ونائبه في قيادة الجيوش والمتصرف في شؤون الدولة كلها و لم يتخذ ملوك بني عبد الواد طيلة حكمهم للبلاد إلا وزيرا واحدا وقد شغل هذا المنصب في عهد السلطان أبي حمو الأول بنو الملاح القرطبيون الذين اشتهروا بالاستقامة وحسن التصرف في الأموال وكانت مهنتهم سكة النقود والعناية بالزراعة[1] وقد جمع لهم بين الوزارة والحجابة.

2 - **الحاجب**: وهو الموظف الذي يتصل مباشرة بالسلطان ويأذن في الدخول عليه بعد أخذ الإذن ويسمى «المزوارد»[2] باللهجة الزناتية وأشهر من تولى الحجابة على عهد السلطان يغمراسن هو الفقيه عبدون بن محمد الحباك.

3 - **كاتب الإنشاء**: وهو الموظف الذي يتلقى الرسائل الموجهة للبلاط الملكي فيطلع عليها ثم يجيب عليها بعد عرضها على السلطان وتلقي أوامره في شأن الإجابة عليها كما له توليه العمال وغيرهم من الموظفين السامين بعد مشاورة السلطان طبعا وأشهر كتاب الإنشاء على عهد الدولة العبد الوادية أبو بكر محمد بن عبد الله الخطاب المرسي ومحمد بن عمر بن خميس التلمساني الشاعر المعروف ويحي بن خلدون صاحب كتاب «بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» وأخ المؤرخ الكبير والفيلسوف الاجتماعي العظيم عبد الرحمن بن خلدون.

4 - **كاتب العسكر**: وهو الموظف الذي يتولى توزيع المؤن والسلاح على الجنود كل واحد منهم على حسب رتبته وطاقته وقد يتولى كذلك قيادة الجند وتوجيهه في غالب الأحيان.

(1) لا يزال بتلمسان على طريق واد الصفصيف بستان يحمل اسم بنت الملاح إلى يومنا هذا.

(2) في الأصل معناه الولد البكر في الأسرة (لفظة زناتية).

5 - **صاحب الأشغال**: وهو الموظف المكلف بالشؤون المالية وحساب المداخيل والمخاريج منها والمسؤول عن حفظها وصرفها فيما ينبغي من دون تبذير ولا تقتير.

6 - **قاضي الحضرة**: وهو بمنزلة قاضي القضاة في المشرق وقاضي الجماعة بالأندلس والمغرب أي إليه ترجع الأحكام التي ينبغي إعادة النظر فيها ومن أشهر القضاة محمد بن منصور بن هدية التلمساني[1] الذي عاش في عهد السلطان أبي تاشفين الأول وهو شارح رسالة الشاعر ابن خميس التلمساني التي استفتح أولها بقوله:

عجبا لها أيذوق طعم وصالهـــا   من ليس يأمـل أن يمر ببالهـــا

وكان بمختلف مدن وقرى المملكة الزيانية قضاة يقومون برسم التوثيق وفصل الدعاوي بين الناس.[2]

7 - **العمال**: كان للسلطان في مختلف الأقاليم عمال تابعون لصاحب الأشغال يقومون بجمع الجبايات في عمالاتهم وتجنيد الجنود عندما تدعو الحاجة إلى ذلك وكان لهم أعوان يعينونهم على القيام بمهمتهم وتلك العمالات هي علاوة على عمالة تلمسان عمالة وجدة[3] وعمالة وهران وعمالة مستغانم وعمالة الراشدية أو معسكر وعمالة منداس وونشريس وعمالة شلف وعمالة المدية وعمالة تدلس أي دلس الحالية.

8 - **أصحاب الشرطة**: كان كذلك للسلطان في مختلف المدن والقرى أصحاب الشرطة الذين يقومون بالبحث عن مرتكبي الجرائم والنظر في التهم الموجهة إليهم وتنفيذ الأحكام الصادرة عليهم.

9 - **قواد فرق الجنود**: وكانت تلك الفرق أربعة أصناف ولكل صنف راية.

أ- **الفرقة الخاصة**: المؤلفة من رؤساء القبائل ويدعون الشيوخ.

ب- **فرقة القبيل**: المؤلفة من قرابة السلطان أي من بني عبد الواد.

ج- **فرقة الأنصار**: الذين يح في عهد السلطان دقون بالسلطان ويدافعون عنه في الحرب.

د- **فرقة المماليك**: وهم الأجانب من العبيد والنصارى.

هذا في السلم أما في الحرب فالجيش في ساحة الوغي يتألف من خمس فرق: القلب والميمنة والمسيرة والمقدم والمؤخر ولذلك يسمى خميسا[4] تشبيها له بالطائر ذي الصدر والجناحين والرأس والذنب.

---

(1) ستأتي ترجمته في القسم الأدبي من هذا الكتاب.

(2) كان لكل قاض أعوان وعدول يستعين بهم في مهمته.

(3) كانت عمالة وجدة غربا معرضة لغزو بني مرين بل وحتى عمالة تلمسان والعاصمة نفسها كما كانت العمالة الشرقية ولا سيما عمالة الجزائر معرضة لغزو بني حفص طيلة الحكم الزياني للمغرب الأوسط.

(4) يوجد إلى يومنا هذا باب خارج تلمسان يدعى باب الخميس وموقعه بين تلمسان والمنصورة.

ومن مشاهير قواد الجيوش في الدولة العبد الوادية موسى بن على الكردي وهلال القطلوني ويحي بن موسى السنوسي وعبد الله بن مسلم الزردالي وبنو مقن وقد خدموا السلطان أبا سعيد عثمان وبنيه.

10 - **شيوخ البلد**: وهم الموظفون الذين يتولون النظر في شؤون المدينة أوالقرية أي يقومون بإدارتها مباشرة وقد كان لكل بلدة أو قرية شيخا[1] الذي يرجع إليه في كل ما يقع بها من المشاكل هذا في الحواضر وأما في البوادي فإنها كانت كل قبيلة منها تخضع لقائدها والقبائل نفسها كانت مؤلفة من مداشر مبنية أو دواوير مؤلفة من عدة خيام وكل دشرة ودوار كان لها أوله الشيخ الذي يتولى النظر في شؤونه الخاصة به.

11 - **المحتسبون**: وهم الموظفون المكلفون بمراقبة البضائع في الأسواق وتعيين أثمانها حسب جودتها ورداءتها وضبط الموازين والمكاييل ونحو ذلك والضرب على يد من يرتكب مخالفة فيما ذكر وكان المحتسبون يشتغلون بمراقبة المواد الغذائية على الخصوص.

12 - **الأمناء**: وهم الموظفون الموكلون بالفصل بين الصناع فيما يقع بينهم من الخلاف أو بين الصناع والزبائن وذلك يكون عند الاختلاف في ثمن المبيع أو في جودته ورداءته وكان لكل سوق أمين خاص بها خبير بالبضاعة التي يطلب منه الفصل فيها.

13 - **الناظرون على الأوقاف**: وهم الذين يتولون النظر في العقار الموقوف للأغلال أو السكنى إذا كان من لا يحاط بهم كالفقراء والمساكين وطلبة العلم ومرضى المستشفيات أو يحاط بهم ولكن يحصل لكل واحد منهم مالا ينتفع به كالفلس فان الناظرين يلزمهم أن يفضلوا أهل الحاجة وأهل العيال على غيرهم وهؤلاء النظار وإن لم يتعرض لهم المؤرخون فلاشك في وجودهم لكثرة ما كان بتلمسان من العقار الموقوف على من لا يحاط بهم أو يحاط بهم لكن لا تحصل لأحد منهم منفعة ومنها تلك العقارات الموقوفة على جامع سيدي أبي مدين ومدرسته التي لا تزال أسماؤها مرسومة على رخامتين مثبتتين على ساريتين من سواري ذلك الجامع وسيأتي ذلك في القسم المعماري كما أن الرخامة المثبتة في الجدار الغربي من مسجد أبي الحسن ورد فيها ذكر الأوقاف التي حبسها الأمير أبو عامر إبراهيم من يغمراسن على ذلك المسجد الذي بني بوصية منه بعد وفاته رحمة الله عليه.

14 - **رجال السلك الديني**: كان يشمل هذا السلك المفتين والمدرسين والأئمة والمؤذنين والحزابين (أنظر ص: 62) والقيمين لكن هؤلاء الموظفين لم يكونوا في جميع المساجد وإنما كانوا في الجوامع التي تصلى فيها الجمع والأعياد وكان لكل مسجد أو جامع أوقافه الخاصة به ويصرف محصولها في صالحه من ترميم وتبييض وتأثيث إضاءة ودفع الأجرة لمن كان به من الموظفين المذكورين والنظر في ذلك كله راجع لناظر الأحباس ما عدا الجامع الكبير فلم تكن له أحباس بل كان يقوم بلوازمه السلطان ويصرف عليه من بيت المال وكان له من الموظفين:

---

(1) لا تزال بتلمسان إلى يومنا هذا أسرة تحمل اسم شيخ البلد.

أ- **المفتي**: إن صاحب هذه الخطة هو العالم بأحكام الشريعة والمخبر بها عند السؤال سواء تعلقت تلك الأحكام بالعبادات أو المعاملات أو القضاء وهذا الإخبار يكون تارة عن نظر واجتهاد إذا كان المفتي مجتهدا مطلقا ويكون طورا عن محض النقل من نصوص إمامه وهو المجتهد في المذهب وإذا كان متمكنا من ترجيح قول على آخر فهو المجتهد في الفتوى.

ب- **المدرس**: وهو من يلقي دروس الوعظ والإرشاد على عامة الناس ودروس القواعد وغيرها من الفنون على الطلبة خاصة وقد يتعدد المدرسون بتعدد الجوامع والطلبة وقد يختص كل واحد منهم بتدريس فن واحد أو فنون متعددة.

ج- **إمام الخطبة والصلاة**: كانت لهذه الخطبة أهمية عظمى لما تشتمل عليه من الدعاء للسلطان الذي يصلي في المقصورة خلف الإمام الخطيب مصحوبا بحاشيته قال عبد الرحمن بن خلدون في المقدمة: يحكي أن يغمراسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو بكر زكرياء يحيى بن أبي حفص علي تلمسان ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروطه شرطها كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله فقال يغمراسن: « تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاءوا».[1]

إمام الفريضة: كان للجامع الكبير إمام النهار لصلاة الظهر والعصر وإمام الليل لصلاة المغرب والعشاء والصبح أما المساجد الأخرى فلم يكن لها إلا إمام واحد.

المؤذنون: كان له كذلك مؤذنان أحدها للنهار وثانيهما لليل.

أما في المساجد الأخرى فكان لها مؤذن واحد فقط ما عدا المساجد الصغيرة.

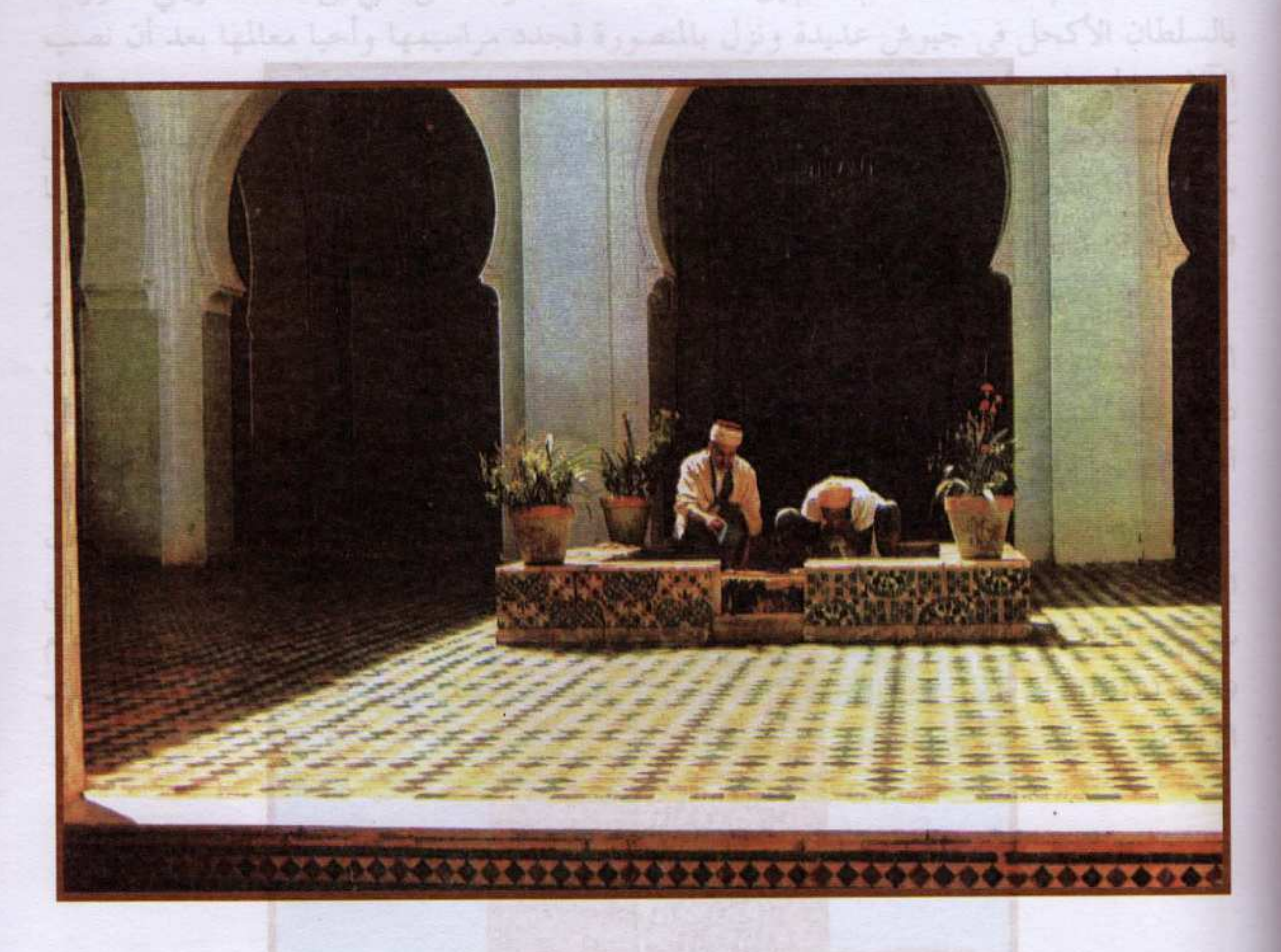
الحزابون: وهم قراء القرآن في أوقات معلومة كالظهر والعصر وتلاوة القرآن جماعة من البدع المستحسنة كما نص على ذلك الإمام الونشريسي في كتابه: «المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب».[2]

القيمون: وهم القائمون بشؤون المسجد من حراسة وتنظيف وغير ذلك.

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص 189 طبع مصر بلا تاريخ.

(2) المستحسن من البدع: فصل من المعيار المعرب للونشريسي، ص1 رقم 3.



24 – جامع سيدي أبي مدين: الصحن

25 – جامع سيدي أبي مدين: المئذنة

العهد المرينـي الفترة الأولى

737 – 749هـ (1337 – 1349م)

لما كان عام 734 هـ (1334م) قدم إلى تلمسان السلطان أبو الحسن علي بن عثمان المريني المعروف بالسلطان الأكحل في جيوش عديدة ونزل بالمنصورة فجدد مراسيمها وأحيا معالمها بعد أن نصب الآلات الحربية، من مجانيق وغيرها حول المدينة وأحكم العمل ليدكها دكا فتحصن بنو عبد الواد كعادتهم بالأسوار فاتصل حصاره لها مدة ثلاث سنين فلما كان عام 737 هـ (1337م) فتحها عنوة وقتل سلطانها أبا تاشفين بن أبي حمو واستولى على جميع ما كان بها من أموال وذخائر ثم عفا عن أهلها وطابت إقامته بها.

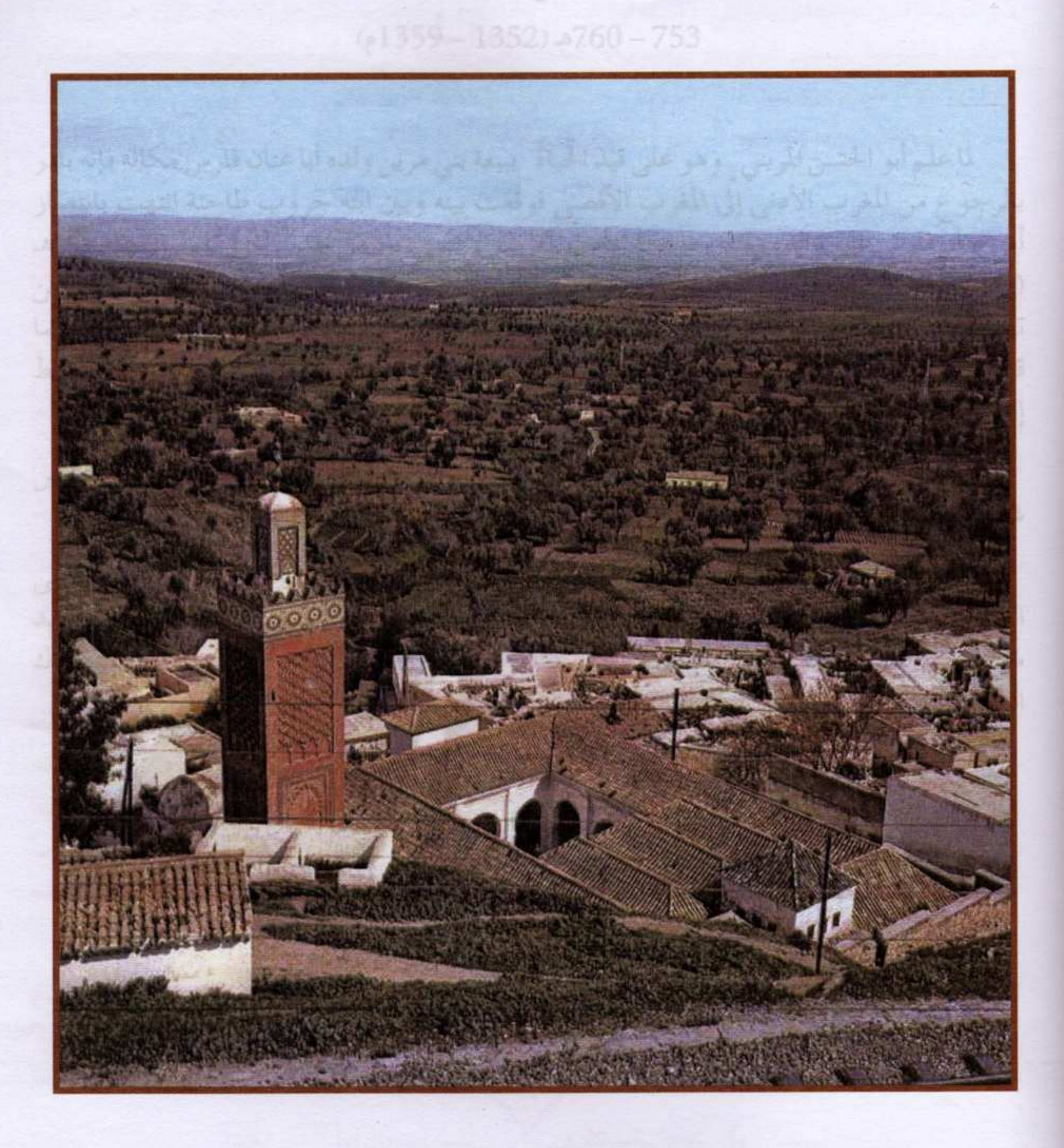
ثم أنه بنى أثناء اقامته بها في قرية العباد جامع سيدي أبي مدين (صورة رقم: 24 و25) والمدرسة الواقعة بقربه ودارا لإقامته لا زالت تدعى دار السلطان فخلف بذلك في تلمسان أحسن آثار وأطيب ذكر وهذه المنشآت العديمة النظير لا زالت قائمة إلى الآن ماعدا دار السلطان التي لحقها الخراب وسيأتي الكلام عليما بالتفصيل في القسم المعماري.

وكان أبو الحسن هذا طموحا فخرج بجنوده من تلمسان مشرقا يقصد فتح ما بقي من المغرب الأوسط والأدنى بغية إحياء مملكة الموحدين وترك ولده أبا عنان فارس خلفا له على تلمسان لكن من سوء حظه أن ذاع خبر موته في إحدى المعارك بالأقاليم الشرقية فبويع أبو عنان فارس بتلمسان عام 749هـ (1348م) ثم ارتحل عنها إلى فاس لأخذ البيعة من أهل المغرب الأقصى بعد أن سلم المدينة لبني عبد الواد على شرط مساعدته في الحصول على البيعة من بني مرين.

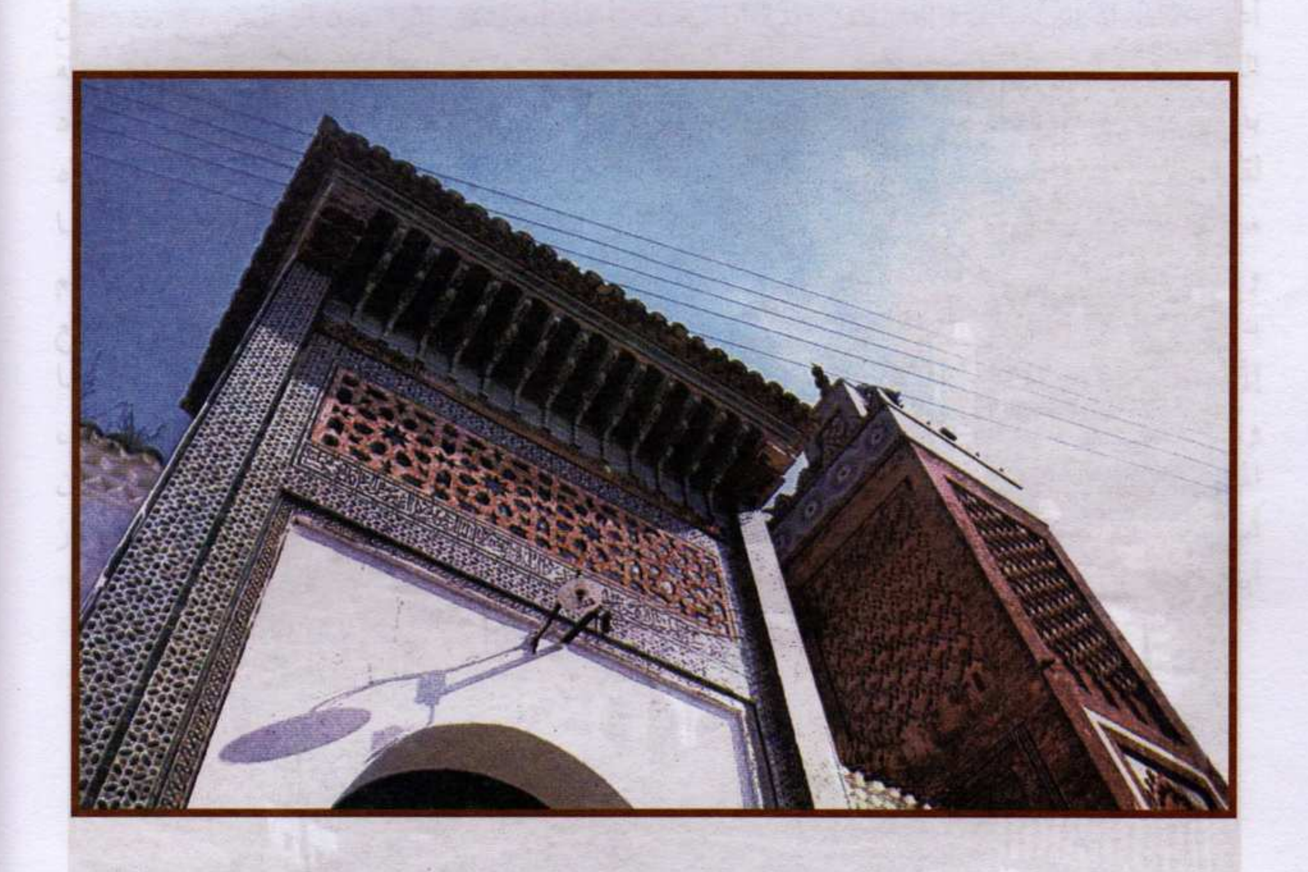
الفترة العبـد الوادية

749 - 753 هـ (1348 - 1352 م)

السلطانان أبو سعيد وأبو ثابت: بعد انصراف أبي عنان فارس عن تلمسان إلى فاس لأخذ البيعة من بني مرين فإن بني عبد الواد استردوا ملك أسلافهم لكن لمدة قصيرة حيث أنها دامت أربعة أعوام فقط إذ أنهم بايعوا أثناء تلك المدة أبا سعيد وأخاه أبا ثابت ابني عبد الرحمن بن يغمراسن اللذان اقتسما السلطة بينهما فاختص الأول لذكائه بالشؤون المدنية واختص الثاني لشدته وصرامته بالشؤون العسكرية ثم خرج هذا الأخير في جنود بني عبد الواد إلى النواحي الشرقية من البلاد لقمع الثوار من مغراوة وغيرهم وردهم إلى الطاعة لكنه ما كاد يقضي عليهم ويستخلص البلاد من العصاة حتى فوجئ برجوع بني مرين إلى تلمسان ومحاصرتها للمرة الثالثة ثم الاستيلاء عليها وقتل أخيه السلطان أبي سعيد فتفرقت عنه جموعه ولم يبق معه إلا قرابته الأقربون فتمكن منهم بنو مرين وأتوا بهم إلى أبي عنان فارس الذي كان مقيما بتلمسان فقتلهم وقيل أن أبا ثابت رجع إلى تلمسان قبل أن يفتحها أبو عنان فارس واستعد هو وأخوه أبو سعيد للمقاومة والدفاع عنها وأنهما خرجا للقائه لكنهما انكسرا أمامه وقتلا وبقتلهما انتهت المقاومة وحل محلها الاحتلال المريني إلى حين وروى الحافظ التنسي في كتابه «الذر والعقيان» أنها وقعت محاورة بين السلطانين أبي ثابت قبل قتله وبين أبي عنان فقال له هذا الأخير «كيف رأيت أبطال بني مرين؟ فقال له الأمير أبو ثابت: «والله ما أعانكم إلا السعد وأما الرجلة فقد غلبناكم فيها»».



26 – منظر جوي لجامع سيدي الحلوي وسهل «المنية» نلاحظ كذلك أن الزخرفة التي في واجهات المئذنة تشبه التي توجد في واجهات مئذنة جامع سيدي أبي مدين



27 – جامع سيدي الحلوي: باب للدخول والمئذنة

العهد المريني الفترة الثانية

753 – 760هـ (1352 – 1359م)

لما علم أبو الحسن المريني _ وهو على قيد الحياة _ ببيعة بني مرين ولده أبا عنان فارس مكانه فإنه بادر بالرجوع من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى فوقعت بينه وبين ابنه حروب طاحنة انتهت بانتصار أبي عنان فارس على والده وقتله ولما تم له الأمر بالمغرب الأقصى عاد من جديد لغزو تلمسان عام 753هـ (1352م) فلما اتصل خبر غزوه بالسلطان أبي سعيد العبد الوادي وأخيه أبي ثابت جمعا له قومهما ومن تابعهما من العرب[1] وزناتة وخرجا للقائه لكن أبا عنان انتصر عليهما ففر السلطانان إلى عاصمتهما قصد التحصن بأسوارها لكن أبا عنان تابعهما ودخل تلمسان وقتلهما ثم تمادى في فتح المغرب الأوسط إلى أن استولى على بجاية ثم قفل راجعا إلى تلمسان فأقام بها مدة.

واقتداء بوالده أبي الحسن الذي شيد جامع سيدي أبي مدين وما ألحق به بالعبادة فإن أبا عنان فارس شيد جامع سيدي الحلوى ولواقحه (ص:26و27).

وبقيت تلمسان تابعة لسلطة بني مرين مدة سبع سنوات أخرى إلى أن تمكن الأمير أبو حمو موسى الثاني من انتزاعها منهم ومحو دعوتهم منها ومن كل أمصار المغرب الأوسط عام 760هـ (1359م) وتمهيد ملك بني عبد الواد الذي بقي في ذريته ما يقارب من قرنين إلى أن انقرضت دولتهم على يد الأتراك العثمانيين كما يأتي تفصيل ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

(1) المراد بالعرب بنو هلال الذين دخلوا واستوطنوا السهول الواقعة شمال تلمسان وشرق نهر تافنة.

العهد العبد الوادي الثاني

أو العهد الزياني

760 - 962هـ (1359 - 1555م)

السلطان أبو حمو موسى الثاني: بن أبي يعقوب يوسف أخ السلطان أبي سعيد عثمان الثاني هو الذي أحيى دولة بني عبد الواد وأخرج بني مرين من تلمسان بعد استيلاء سلطانهم أبي عنان فارس عليها مرة ثانية وقد كان أبو حمو هذا فر إلى تونس واستقر بها مدة حكم بني مرين الثانية لتلمسان وكان رجلا شجاعا ذا مروءة وشهامة غيورا على أهله ووطنه فلما كان عام 659هـ (1358م) فإنه جمع جموعه والتفت عليه أنصاره من بني عبد الواد وغيرهم وهكذا استطاع أن يفك المغرب الأوسط من أيدي بني مرين وأن يتولى على تلمسان ويخلصها من يد عدوه ويمحو منها دعوته وبويع له في حياة أبيه وقام بأعباء الملك أحسن قيام وبعد أن استتب له الأمر بتلمسان فإنه اتخذ الحاج محمد بن أبي جمعة التلا لسي طبيبا خاصا له وكان هذا الطبيب أديبا وشاعرا أيضا سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في القسم الأدبي من هذا الكتاب. ودام ملكه إحدى وثلاثين سنة أي من عام 760هـ (1359م) إلى عام 791هـ (1389م) وقد عمل أثناء تلك المدة على توطيد الملك لأبنائه من بعده وسلك مع بني مرين مسلكا غير الذي سلكه أسلافه معه فإنه كان إذا حوصر بتلمسان أجفل أمامهم إلى الصحراء وتحصن بها ثم شاغبهم في عقر ديارهم إلى أن يرحلوا عنها لان بني مرين لم ينقطع لهم أمل في الاستيلاء على تلمسان وقد استولى عليها أبو سالم المريني عام 761هـ (1359م) ثم غادرها وعقد الصلح مع صاحبها عام 762هـ (1360م) كل استولى عليها عام 774 هـ (1372 م) السلطان عبد العزيز المريني وبقي بها إلى وفاته عام 776 هـ (1374م) وورد عليه أثناء إقامته بها قادما من الأندلس الوزير الخطير والأديب الكبير لسان الدين بن الخطيب السلماني وكان أبو حمو أثناء هذه المدة التي دامت عامين معتصما بالصحراء التي جال بأرجائها الشاسعة جولته الكبيرة معرضا نفسه وذويه للأتعاب والأخطار التي لا تحصى.

وقد تمكن أبو حمو بعد وفاة عبد العزيز المريني من استرداد ملكه والبقاء على عرش أسلافه لحذاقته ونبوغه في السياسة وبعد رجوعه إلى تلمسان فإنه رمم ما خربه بنو مرين من سور المدينة ومشورها وما كان يحتوي عليه من دور ومنتزهات طالما تأسف عليها حين مغادرتها وقد عبر عن ذلك في أبيات من نظمه نحتها على أحد جدارنه فقال: (الوافر).

بناها جدنا أبو المعـــــالي   وكنا نحن بعض الوارثينـــا

لقد سكناهـا أيامـــــــا   طـوالا وليـالي آمينينـــــــا

فلما أن جلانا الدهر عنهــا   تركناهـا لقوم آخرينــــــا[1]

---

(1) «روضة النسرين» لابن الأحمر طبع باريس 1917م.

ومن منشآت أبي حمو هذا بتلمسان تشييده لجامع سيدي إبراهيم المصمودي ولضريحه الذين لايزالون قائمين وللمدرسة التي كانت في شمال الجامع و لم تنطمس آثارها إلا عام 1277 هـ (1860م) وكانت المدرسة تسمى المدرسة اليعقوبية سماها بإسم والده أبي يعقوب المدفون بالضريح المذكور ودشنها هو بنفسه عام *763* هـ (*1362*م) وحضر دروسها الافتتاحية التي ألقاها الفقيه الأصولي العلامة الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني[1] وكان يأتيها الطلبة من كل أنحاء المغرب للاغتراف من العلوم والفنون الملقاة بها.

ومن منشآته أيضا مكتبة الجامع الكبير التي على يمين المحراب بالمكان الذي لاتزال به الخشبة ذات الكتابة المحفورة التي كانت فوق بابها ودونك نص ما هو مكتوب عليها: «أمر بعمل هذه الخزانة المباركة السلطان أبو حمو بن الأمراء الراشدين أيد الله أمره وأعز نصره ونفعه بما وصل ونوى وجعله من أهل التقوى وكان الفراغ من عملها يوم الخميس ثالث عشر لذي القعدة عام سبعمائة وستين 760 هـ» وكانت هذه المكتبة تزخر بالكتب المختلفة في جميع العلوم والفنون ولم تفقد تلك الكتب إلا حوالي عام *1266* هـ (*1850*م) حينما قامت مصلحة الآثار التاريخية بترميم الجامع الكبير بعد تغيير طرفيه الجنوبي والشمالي.

كما كان أبو حمو هذا سياسيا حاذقا له كتاب في التربية السياسية ألفه برسم ولده وولي عهده أبي تاشفين وعنوانه: «واسطة السلوك في تربية الملوك»[2] فضلا عن كونه أديبا كبيرا وشاعرا مفلقا سيأتي الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل في القسم الأدبي.

---

(1) هو صاحب كتاب «مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول» المطبوع بتونس عام 1336هـ.

(2) قد طبع هذا الكتاب بالمطبعة الدولية بتونس عام 1279هـ في 175 صفحة.

الاحتفال بالمولد النبوي بمشور تلمسان في عهده

وهو الذي كان يحتفل ليلة المولد النبوي غاية الاحتفال بمشوره بما هو فوق مواسم العام وكان ما من ليلة مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وأول ما يبدأ المسمع في ذلك الحفل بإنشادها ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه في تلك الليلة قصيدة نظمها ودونك وصف الاحتفال بهذه الليلة المباركة حسبما ذكره الحافظ التنسي في كتابه: «راح الأرواح فيما قاله السلطان أبو حمو وقيل فيه من الأمداح» ونقله أبو العباس أحمد المقري في كتابه: «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» قال: «إنه كان يقيم ليلة المولد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بمشوره من تلمسان المحروسة مدعاة حفلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وبسط موشاة ووسائد بالذهب مغشاة وشمع كالاسطوانات وموائد كالهالات ومباخر صفر منصوبة كالقباب يخالها البصر من تبر مذاب ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنة تشتهيها الأنفس وتستلذ بها النواظر ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال. وقد علت الجميع أبهة الوقار وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ومكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك ما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب وبالقرب من السلطان رضوان الله عليه خزانة المنجانة [1] وقد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مركبة على عدد ساعات الليل الزمانية فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية صررت في أحسن صورة في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة بإسمها مسطورة فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويداها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح نداء المنادي حي على الفلاح»[2].

وقد ورد وصف ليالي المولد النبوي الشريف بتفصيل لا مزيد عليه في الجزء الثاني من «بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» لأبي زكريا يحي بن خلدون كاتب السلطان أبي حمو موسى الثاني ومؤرخ دولته وأخ الفيلسوف الكبير والمؤرخ المشهور أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون وإليك ما قاله يحي بن خلدون وهو شاهد عيان وليس الخبر كالعيان.

«أطلت ليلة المولد النبوي على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم فأقام لها بمشور داره العلية مدعى كريما وعرسا حافلة احتشد لها الأمم وحشر بها الأشراف والسوقة فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها الأسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة والخليفة[3] أيده الله صدر مجلسها ممتطئا سرير ملكه يسر الناظرين رواؤه ويثلج الصدور عزة وتحار في كمالات خلاله النهى وحفافيه ملأ التجلة من قومه وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عينها الاختصاص ورتب

(1) آلة لرصد الوقت ذات شكل هندسي غريب بمشور تلمسان وهي من اختراع علي بن الفحام التلمساني في أوائل عام 760هـ (1359م) وهي مأخوذة من اللغتين اليونانية والطليانية معناها. مصقلة النسج (الأقمشة).

(2) «أزهار الرياض في أخبار عياض» للمقري ج 1 ص243 و 245. القاهرة 1358هـ (1939م).

(3) أي أبو موسى الثاني.

بعضها فوق بعض المناصب تخالهم قطع الرياض النضرات قد أغضى الجلال من أبصارهم وخفضت المهابة من أصواتهم فلا تبصر إلا جمالا ولا تسمع إلا همسا يطوف عليهم ولدان أشعروا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات يغيم دخان عنبر تلك المفغم للأناف الجو فتمطر هذه الحفل وابلا من ماء الورد المنسوب إلى نصيبين[1] وخزانة المنجاة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا وبصدرها أبواب موجفة عدد ساعات الليل الزمانية يعاقب طرفيها بابان موجفان أطول من الأولى وأعرض فوق جميعها ودون رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء نظيره في الفلك ويسامت أول كل ساعة بابها المربع فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما منجة صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بواسطة ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء بيمنها إذ بارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيده الله، حيل أحكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافة أعلى الله مقامه شماسها والمسمع قائم صدر عترته على بعد من الخليفة مقدر يردد نغمات الألحان ويرتب رنات الإيقاع وينشد خلال ذلك أمداح سيد الرسل وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم[2].

قال يحي بن خلدون «وأمرني أيده الله بنظام أبيات على لسان الجواري المعرفات ساعة المنجانة الغريبة الشكل المتقدمة الوصف فقلت في ذلك[3] عام 670هـ (1272م):

سا(1) (المتقارب)

أمولي الملوك واعلى الأمـــم ومن جوده العالم كله عـــم
مضت ساعة ليت تنشــني فإن الحياة بكم تغتنـــم

سا (2) (الكامل)

والليل منه ساعتان قد انقضت تثني عليك ثنا الرياض على المطر

سا (3) (المتقارب)

توالت ثلاثة من الليل أبقــت لك الفخر في عجمهـا والعـرب

سا (4) (المجتث)

مـــولاي دمت عليهـــا مـــضت لليلك أربـــع

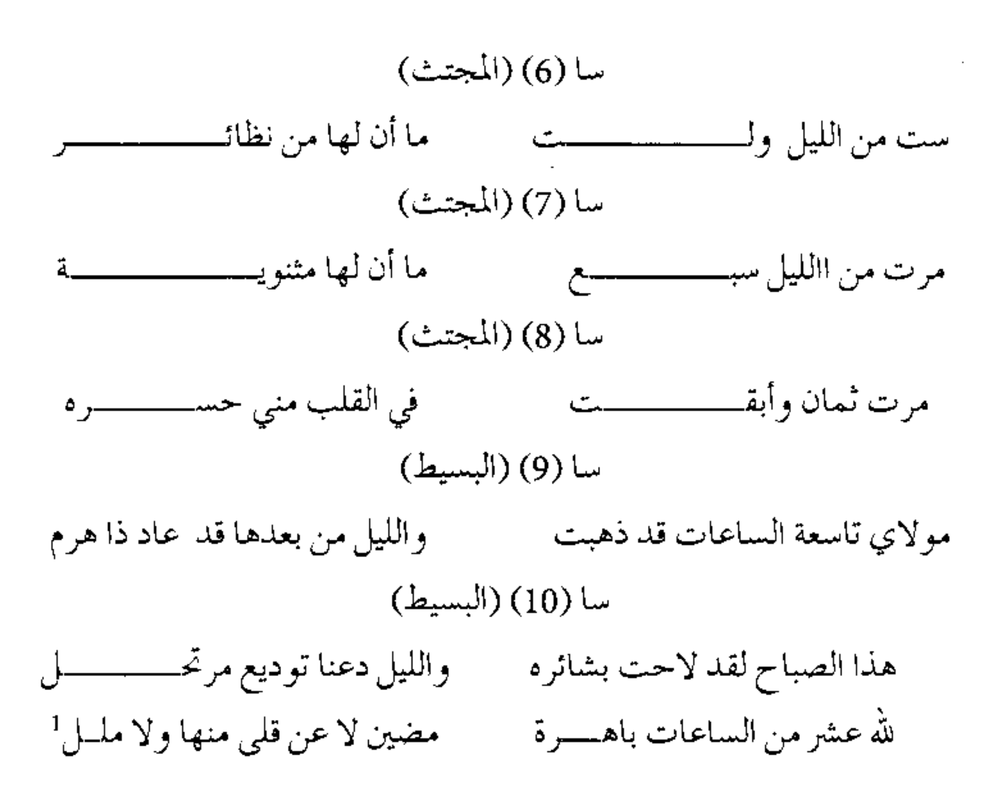
سا (5) (الرمل)

قد مضت الليل خمـــس حسنها راق العيونـــتـــا

(1) اسم مدينة الشام على الطريق المؤدية إلى الموصل يقال إنه كان يحيط بها أربعون ألف بستان.

(2) «بغية الرواد في ذكر الملوك من بين عبد الواد» مجلد 2 ص 40 و 41 ليحيى بن خلدون الجزائر 1329هـ (1911م).

(3) بدأ نظمه بقصيدة من 8 أبيات وختمها بقصيدة من 10 أبيات وأتى فيما بين ذلك بمقطوعات من ثلاثة أو خمسة أبيات واقتصرنا من ذلك على ما ورد فيه ذكر الساعة لأنه هو بيت القصيد.



سا (6) (المجتث)

ست من الليل ولـــــــــــت ما أن لها من نظائـــــــــر

سا (7) (المجتث)

مرت من االليل سبــــــــع ما أن لها مثنويـــــــــــة

سا (8) (المجتث)

مرت ثمان وأبقـــــــت في القلب مني حســــــره

سا (9) (البسيط)

مولاي تاسعة الساعات قد ذهبت والليل من بعدها قد عاد ذا هرم

سا (10) (البسيط)

هذا الصباح لقد لاحت بشائره والليل دعنا توديع مرتحـــــل

لله عشر من الساعات باهـــرة مضين لا عن قلى منها ولا ملــل[1]

لقد سقنا هذين النصين في وصف الاحتفال بليلة المولد النبوي االشريف بمشور تلمسان في عهد أبي حمو الثاني طدليل وبرهان على ما بلغه الرقي والعرفان والتمدن والعمران في عاصمة بني زيان.

ولنعد الآن إلى ما تبقى من الكلام عن حياة أبي حمو موسى إلى وفاته رحمة الله عليه وعاد بنو مرين إلى تلمسان مرة أخرى عام 786هـ (1384م) بقيادة السلطان أبي العباس المريني واستولوا عليها وعند مغادرتهم لها هدموا كل ما كان بها من قصور انتقاما من أبي حمو الذي أغار على ناحية تازة وهدم قصورها فكان بفعله هذا قد ارتكب خطأ لا يغتفر ثم أن نهاية أبي حمو العظيم كانت سيئة حيث أن ولده أبا تاشفين ثار عليه في أواخر أيامه وقامت بينهما حروب طاحنة دامت ثلاث سنوات وانتهت بموت أبي حمو عام791هـ (1389م) وقد عثر على شاهد قبره مكتوب عليه مايلي: «الحمد لله وحده هذا قبر مولانا السلطان أمير المسلمين الملك العادل الحافل الأثيل الأصيل الأمجد الأوحد الأسنى الأسهى الأفضل مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين مولانا أبو حمو بن مولانا الأمير الشهم الكبير الجليل الكامل مولانا أبي يعقوب برد الله ضريحه وغفر له بمنه وكرمه وجوده وصلى الله على سيدنا محمد وآله» (من دون تاريخ للوفاة).[2]

سلاطين آل زيان بعد وفاة أبي حمو موسى الثاني: إن ملوك آل زيان الذين تولوا على عرش تلمسان بعد وفاة أبي حمو موسى الثاني أزيد من قرن ونصف لم يحدثوا بعاصمة مملكتهم كأسلافهم منشآت ذات أهمية لأن مدة حياتهم انقضت كلها في الحروب الخارجية مع جيرانهم ومنافسيهم من بني مرين وبني حفص وفي الفتن الداخلية لتفرق كلمتهم وتطاحنهم على العرش علاوة على الأيام والشهور بل

(1) بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» ليحي بن خلدون مجلد 2 ص 218 وما يليها.

(2) الترجمة الفرنسية لكتاب «البستان» لابن مريم باعتناء برفنزلي Provenzali ص، طبع الجزائر (1910 م).

الأعوام التي كانوا يقضونها أحيانا في قمع العصاة من القبائل التي كانت تثور عليهم بإيعاز من المرينيين والحفصيين وحتى بمساعدتهم المادية والمعنوية في كثير من الأحيان بحيث أن مدة حكم ملوك بني زيان لم تكن تدوم إلا أعواما قلائل أو بضعة أشهر فقط وعيش مضطرب كهذا لا يمكن معه تشييد أو بنيان أو نشر علم أو عرفان أو غير ذلك مما يمأ إلى الحضارة بصلة أو يرفع لها شأن في عالم الأكوان لكن يتسشنى من أولائك الأمراء الأربع:

السلطان أبو زيان محمد الثاني: بن أبي حمو موسى الثاني الذي تولى الحكم عام 796 هـ (1393م) فإنه نشط العلوم والآداب وهو نفسه كان عالما شاعرا لكن مدة حكمه لم تطل حيث ثار عليه أخوه عبد الله عام 801هـ (1398م) فخرج من تلمسان والتجأ إلى بعض أحياء العرب وبقي متنقلا في البلاد إلى أن اغتيل عام 805 هـ (1402م) وستأتي له ترجمة مفصلة في القسم الأدبي.

السلطان أبو عبد الله محمد الأول الملقب بالواثق بالله: والمشهور بابن خولة اعتلى عرش تلمسان بإعانة بني مرين عام 804 هـ (1402م) كان مشغوفا بالعلوم والفنون محبا للعلماء مشجعا لهم على الإنتاج وقد عرف الناس في أيامه الراحة والهناء إلى أن توفي عام 813 هـ (1411م) وقد عثر على شاهد قبره مكتوب عليه مايلي: «الحمد لله وحده هذا قبر السلطان مولانا محمد الواثق بالله أمير المسلمين بن مولانا أبي حمو أمير المسلمين بن مولانا أبي يعقوب بن مولانا أبي زيد بن مولانا أبي زكريا من يغمراسن بن زيان رحمهم الله وبرد ضريحهم وكان مثواه في يوم الثلاثاء سابع يوم من ذي القعدة عام ثلاثة عشر وثمانمائة رحمهم الله ورحم المسلمين أجمعين».

السلطان أبو العباس أحمد المعتصم المشهور بالعاقل: هو حفيد أبي حمو موسى الثاني اعتلى عرش تلمسان عام 834 هـ (1431م) بمساعدة السلطان أبي فارس عبد العريز الحفصي وأنه قد اعتز بعد وفاة ذلك السلطان أي ابتداء من عام 837 هـ (1434م) فنشر العدل بين الرعية وسعى في نشر العلم بترميم ما تلاشى من المدرسة التاشفينية وبتشييد مسجد.

الحسن بن مخلوف الراشدي ومدرسته: المعروفة بمدرسة أبركان أيضا والتي لا نعرف موقعها بالضبط ذلك المسجد الذي لحقه الخراب و لم يبق منه قائما الآن إلا مئذنته وبعض الجدران تتدعى بالسقوط وأما المدرسة فقد عفت معالمها تماما كما أن من منشآته أيضا مسجد الشيخ السنوسي المشيد فوق مدخل درب مسوفة بسوق البرادعيين ومن المحتمل أن مسجد ابن البناء الواقع في رحبة الزرع عند فندق المجاري هو من منشآته العمرانية أيضا كما أن من منشآته كذلك أسوار المشور الحالية التي جدد بناءها حينما تغلب على الأمير أحمد بن الناصر بن أبي حمو الذي ثار عليه عام 850 هـ (1446م) بعد أن ظفر به وقتله.

السلطان المتوكّل: وقد دام حكم أبي العباس إلى عام 866 هـ (1462م) وانتهى بعزله بعد قيام ابن أخيه عليه الأمير محمد بن محمد بن أبي ثابت المعروف بالمتوكل وقد قام هذا الأخير بأعمال جليلة كقمع الثوار في الداخل وغزو الكفار في الخارج لكن بعد وفاته عام890 هـ (1485م) بدأ الضعف والانحلال يعملان عملهما الهدام وأشرفت الدولة على الانهيار.

انقراض دولة بني زيان: بعد أن تولى المتوكل الأمر بتلمسان فإن الضعف أخذ يدب في آل زيان ويعمل عمله الهدام والفوضى تنتشر شيئا فشيئا في البلاد التي عمها الجور والفساد ولعبت فيها الضغائن والأحقاد فلما كانت دولة أبي عمرو الحفصي فانه غزا عام 870 هـ (1466م) تلمسان مرتين وفي الثانية هدم أسوار المدينة وعزم على استئصال أهلها إلى أن شفع إليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم وبقية حال بني زيان مضطربة أشد الاضطراب إلى أن استولى الأسبان على غرناطة عام 897 هـ (1492م) فعظمت شوكتهم وطمحوا للتغلب على كثير من ثغور المغرب الأوسط وقد استولوا بالفعل على المرسى الكبير عام 910هـ (1505م) ثم على وهران عام 914 هـ (1509م) وفعلوا بأهلها الأفاعيل وبنو زيان غير قادرين على إعانتهم لاستفحال الضعف فيهم وعجزهم عن مقاومتهم بل تنازلوا لهم عن كثير من الحقوق والامتيازات كأداء الضريبة وتقديم الميرة لهم بل يمكنك أن تقول أنهم اعترفوا بحمايتهم وقد اشترطوا عليهم شروطا وافقوا عليها فمن جملتها أن يعاملوا الأتراك النازلين بالجزائر معاملة الأعداء وقد نفذ بالفعل مولاي عبد الله سلطان تلمسان هذه الشروط بضغط الأسبان الذين احتلوا عاصمته عدة مرات وعاثوا فيها فسادا فجمع جموعه وحارب الأتراك الذين كان يقودهم حسن آغا لكنه انهزم وقتل عام 950 هـ (1543م)، وهذا ما دعا خير الدين باشا إلى القضاء نهائيا على دولة بني زيان وحاميتهم الاسبانية عام 962 هـ (1555م) وإلحاق تلمسان بدولة الأتراك الناشئة بالجزائر.

وقبل أن نختم الكلام عن الدولة العبد الوادية الزيانية التي لعبت دورا سياسيا وحربيا مهما طيلة ثلاثة قرون على ربوع المغرب الكبير وقاومت دولتين عتيدتين كل واحدة منهما تدعى أنها هي وحدها الوارثة الحقيقية لدولة الموحدين العظيمة نقول: أن بعض المؤرخين يزعمون أن الدولة التي أسسها يغمراسن هي دولة بني عبد الواد نسبة إلى جدهم الأول عبد الواد (أصله عابد الوادي) الذي كان يتحنث بأحد أودية مواطنهم الواقعة في جنوب جبال تلمسان وأن الدولة التي أقامها أبو حمو موسى الثاني بعد جلاء بني مرين عن تلمسان وهي دولة بني زيان نسبة إلى جدهم زيان جد يغمراسن وهذا الزعم ليس له ما يبروه فيما لدينا من المراجع التاريخية اللهم إلا إذا أمكن العثور على مخطوط الشيخ الحافظ أبي رأس الناصري المعسكري الذي عنوانه «فتح الجواد في الفرق بين آل زيان وبني عبد الواد» فحينئذ يتضح الأمر ويقوم البرهان وتتجلى الحقيقة للعيان وينكشف الظلام بظهور الحجة والبيان.

سلاطين تلمسان

في عهد دولة بني عبد الواد أو بني زيان

	تاريخ هجري	تاريخ ميلادي
1 – أبو يحيى يغمراسن بن زيان	633	1236
2 – أبو سعيد عمان بن يغمراسن	681	1283
3 – أبو زياد محمد الأول بن عثمان	703	1304
4 – أبو حمو موسى الأول بن عثمان	707	1308
5 – أبو تاشفين عبد الرحمن الأول موسى	718	1318
العهد المريني الفترة الأولى: أو أبو الحسن علي	737	1337
مكرر 6 – أبو سعيد عثمان وأخوه أبو ثابت [1]	749	1349
العهد المريني: الفترة الثانية (عنان فارس)	753	1352
7 – أبو حمو موسى الثاني بن يوسف	760	1359
8 – أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني	791	1389
9 – أبو ثابت يوسف بن عبد الرحمن	795	1393
10 – أبو الحجاج يوسف بن موسى	796	1394
11 – أبو زيان محمد الثاني بن موسى	796	1394
12 – أبو محمد عبد الله الأول بن موسى	801	1398
13 – أبو عبد الله محمد الأول بن موسى (الواثق)	804	1402
14 – عبد الرحمن الثالث ابن خولة	813	1411
15 – السعيد بن أبي حمو موسى	814	1411
16 – أبو مالك عبد الواحد بن موسى	814	1411
17 – أبو عبد الله الثاني بن أبي تاشفين (ابن الحمرة)	827	1424
أبو مالك عبد الواحد (للمرة الثانية)	831	1428
18 – أبو عباس أحمد المعتصم بن موسى (العاقل)	834	1431
19 – أبو ثابت محمد بن محمد (المتوكل)	866	1462
20 – تاشفين بن أبي ثابت	890	1485
21 – أبو ثابت محمد الثالث	890	1485
22 – أبو عبد الله محمد الثالث (الثابتي)	902	1496
23 – أبو حمو موسى الثالث (أبو قلمون)	909	1503
24 – أبو زيان أحمد الثالث	923	1517
أبو حمو موسى الثالث (للمرة الثانية)	924	1518

(1) إن هذين المالكين اقتسما السلطة بينهما إذ اختص الأول بالشؤون المدنية والثاني بالشؤون العسكرية.

25 – أبو محمد عبد الله الثاني	924	518
26 – أبو سرحان المسعود	925	1519
أبو محمد عبد الله الثاني (للمرة الثانية)	؟	؟
27 – أبوعبد الله محمد الرابع	930	1524
أبوزيان أحمد الثالث (للمرة الثانية)	949	1542
أبو عبد الله محمد الثالث (للمرة الثانية)	950	1544
أبو زيان أحمد الثالث (للمرة الثالثة) عامل تركي	950	1544
الحسن بن عبد الله الثاني (عامل تركي)	957	1550
استيلاء الأتراك على تلمسان نهائيا	962	1555

(1) قد اعتلى عرش تلمسان من بني عبد الواد مدة حكمهم 27 ملكا فإذا اضفنا إلى هذا العدد من بويع مرتين صار عددهم 32 أما الأخيران فإنهما كانا محميين من طرف أتراك الجزائر.

العهد التركي

(962 - 1258هـ (1555 - 1842م)

في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) كانت الدولة التركية العثمانية في أوج عزها بما حصلت عليه من انتصارات وبما استولت عليه من أقاليم وبما فتحت من بلدان وقد ظهر من قواد جنودها البحرية قائدان عظيمان هما: عروج وأخوه خير الدين باشا وكانا قد تابعا الغزو على بلاد الكفار برا وبحرا وأوقعا بأهل أوربا وقائع مشهورة وطار لهما ذكر في كل الأقطار فكاتبهما بعض أهل المغرب الأوسط وعرفهما بما فيه الناس من مضايقة الأسبان لهم وعجز بني زيان عن المقاومة والدفاع عنهم فأقبل الترك مسرعين نحو المغرب الأوسط واستولى عروج باشا على مدينة الجزائر التي كانت محاصرة من طرف الأسبان ثم استولى على تلمسان عام 923 هـ (1517م) وغلب بني زيان على أمرهم ثم أن أهل تلمسان أنكروا سيرته وسئموا حكمه لأنه عسفهم وصادر أموالهم وأعدم أفراد الأسرة المالكة من آل زيان الذين كانوا موجودين بتلمسان. يقول صاحب «الرحلة القمرية»: «إنه قتل سبعا من سلاطينها ونحو السبعين من كابر بني عبد الواد وما ينيف على الألف من كبارها» ولعله يعني بالسلاطين الأمراء فثاروا على الترك بعد انصراف عروج عنها فلما بلغه خبر الثورة قفل راجعا إليها فكانت الكرة عليه وقتل مع جماعة من وجوه جنوده بوادي المويلح عام 924 هـ (1518م). ثم ثار أهل تلمسان بمساعدة الأسبان وبقيادة السلطان أحمد الزياني فحاول هذا الأخير القضاء على الثائرين لكن حسن آغا أسرع إلى تلمسان واحتلها عام 952 هـ (1545م) بعد أن فر صاحبها إلى المغرب الأقصى فنصب حسن آغا على عرشها مولاي الحسن كعامل له ثم عادت تلمسان بمساعدة الأسبان إلى بني زيان فجددوا ملكهم بها إلى أن أعاد الترك غزوها بقيادة حسن قرصو وافتكوها من يد صاحبها مولاي الحسن آخر ملوك بني زيان عام 962 هـ (1555م) واستمرت في أيديهم إلى أواسط المائة الثالثة عشر أي مدة ثلاثة قرون واتخذ الأتراك مدينة الجزائر عاصمة لدولتهم ومازونة ثم معسكر وأخيرا مدينة وهران كقواعد للولاية الغربية من القطر الجزائري وأنزلوا بتلمسان حامية قوية من جنودهم[1] لموجهة خطر الغزو الذي قد يطرأ من ناحية المغرب الأقصى وقد طرأ بالفعل فكم من مرة حاول الأشراف السعديون ملوك مراكش المعاصرون لأتراك الجزائر فتح تلمسان لكن بدون طائل إذ أن قواتهم كانت تنهزم دائما أمام قوات الأتراك المرابطين بتلمسان. لكن هذه المدينة فقدت أهميتها كمركز سياسي واقتصادي وثقافي أثناء حكم الأتراك لها لاتخاذ أولي الأمر والرأي مدينة الجزائر مقرا جديدا لهم.

أما من حيث المنشآت العمرانية فإن الأتراك لم يشيدوا ما يخلد ذكرهم كما فعلوا في مدينة الجزائر مثلا فغاية ما بنوه بها مسجد سيدي اليدون وضريحين بقرية عين الحوت إجلالا للرجلين الصالحين سيدي عبد الله بن منصون وسيدي محمد بن علي أضف إلى ذلك إصلاح وترميم ما تلاشى من ضريح سيدي أبي مدين وسقف مدرسة العباد ومسجد سيدي إبراهيم المصمودي ومسجد سيدي لحسن

(1) وهكذا نفسر وجود القراغلة بكثرة بتلمسان لأنهم من نسل أولئك الجنود الأتراك الذين قدموا إليها وهم عزاب وتزوجوا من نساء البلد.

بن مخلوف الراشدي الذي لحقه الخراب فيما بعد لخلو ذلك الحي من السكان آنذاك حيث أن الدور التي كانت حول المسجد لحقها الخراب أيضا ويضاف إلى ذلك كله دار الباي الآتي ذكرها في القسم المعماري لأن تلمسان كانت في أول عهد الأتراك قاعدة أيالة يحكمها باي غير تابع لباي مازونة وقد استمر ذلك إلى عام 1098هـ (1697م).[1]

وهناك شيء تجدر الإشارة إليه وهو أن قراصن الأتراك قد انقذوا من الهلاك والموت كثيرا من المهاجرين الأندلسيين الذين فروا من اضطهاد الأسبان لهم وأنزلوهم بالشواطيء الجزائرية ومنهم الآلاف نزلوا بوهران ثم قصدوا تلمسان واستوطنوا بها حوالي عام 917 هـ (1511م) واستمر هذا الإنقاذ طيلة قرن كامل حيث أنه لم ينته إلا عام 1019هـ (1610م) إذ في هذه السنة أمر ملك الأسبان فيليب الثاني بإخراج كل ما تبقى من المسلمين بالأندلس إلا أن يعتنقوا الدين المسيحي ولا تزال ذريتم بها إلى يومنا هذا. ومن جملة هؤلاء الأمير أبو عبد الله المعروف بالزغل: عم السلطان أبي عبد الله محمد آخر ملوك بني الأحمر بالأندلس وقد عثر بتلمسان على شاهد قبر ذلك الأمير مكتوب عليه مايلي: (الرجز).

«قبر سلطان قد مات في حال انجلائه ... بتلمسان غريبا مهملا بين نسائـــه

بعد أن جاهـد في الله جهـد اعتنائـــه ... حكم الدهر عليه قهرا حكم قضائه

وأتـاه الله صبرا عنـد إنزال بلاشـــه ... فسقى الله قبره دائما غيث سمـائه»[2]

ويقال: أن ذلك الشاهد كان موضوعا بمتحف تلمسان لكنه ضاع فيما بعد.

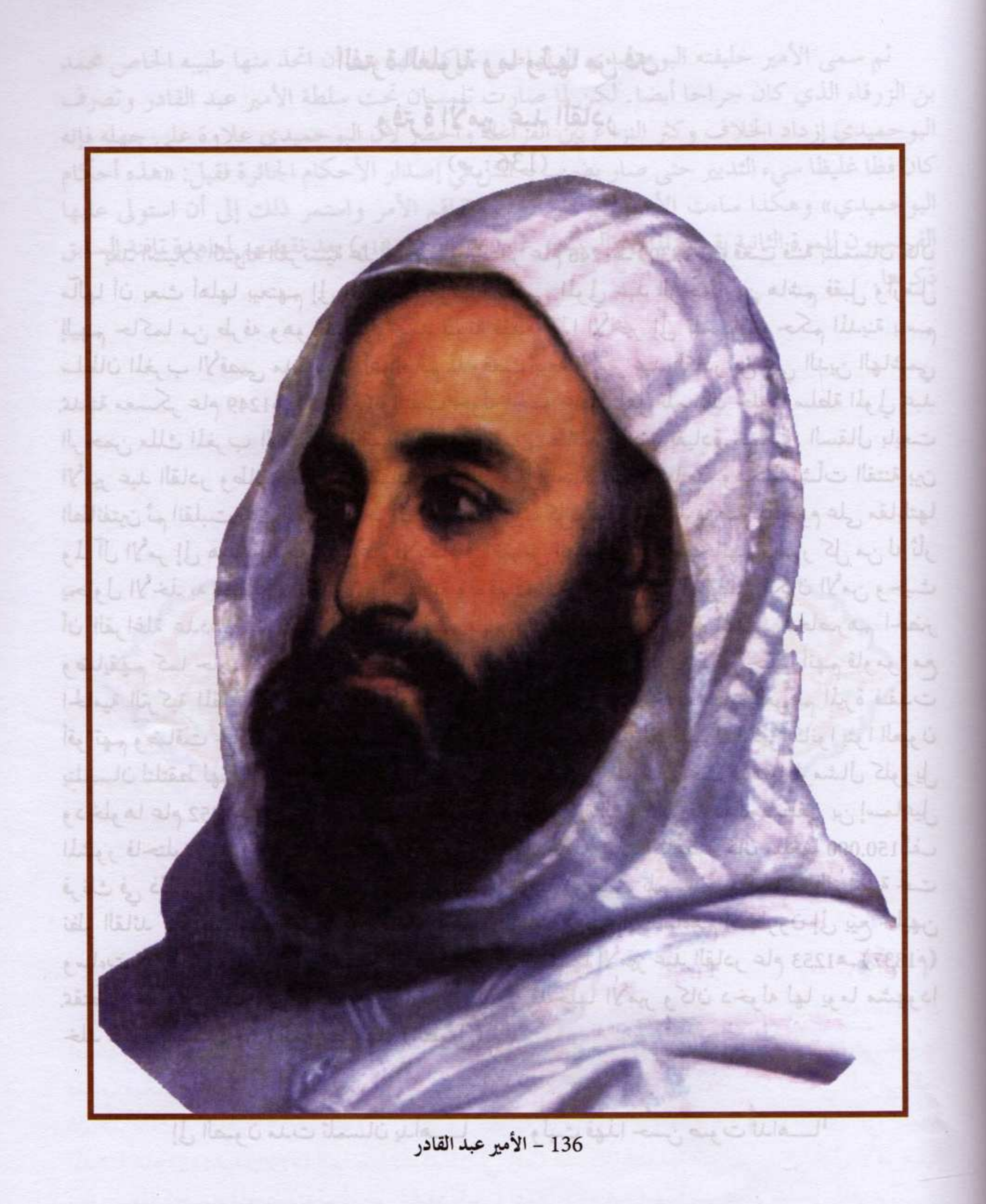
والشيء المؤلم من هذه المأساة أي مأساة الاضطهاد والهجرة هو أن أولئك المهاجرين حينما كانوا في طريقهم من وهران إلى تلمسان تسلط عليهم من لا يخشى الله تعالى من الأعراب فنهبوهم أموالهم ولم ينج منهم إلا القليل، قال أحمد المقري في الجزء الثاني من كتابه «نفح الطيب»: «فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان من وهران فتسلط عليهم الأعراب ومن لايخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم وهذا ببلد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المضرة».[3]

---

(1) أنظر التحفة المرضية في الدولة البكداشية لمحمد بن ميمون الجزائري ص253 طبع الجزائر 1981م.

(2) «الثغر الجماني» تقديم وتحقيق البو عبدلي ص 14 طبع قسنطينة 1973م.

(3) «نفح الطيب» لأحمد القمري ج 2 ص 617 طبع مصر عام 1302 هـ.



136 - الأمير عبد القادر

الفترة العلوية وما وليها من فتن
وفترة الأمير عبد القادر
(ص: 136)

بعد استيلاء الدولة الفرنسية على عاصمة الجزائر عام 1246هـ (1830م) وقعت فتنة بتلمسان كان مآلها أن بعث أهلها بيعتهم إلى سلطان المغرب الأقصى المولى عبد الرحمن بن هاشم فقبل وأرسل إليهم حاكما من طرفه وهو المسمى محمد بنونة فقدم هذا الأخير إلى تلمسان وحكم المدينة باسم سلطان المغرب الأقصى مدة ثلاثة أعوام ثم لما وقعت بيعة الأمير عبد القادر بن محي الدين الهاشمي بمدينة معسكر عام 1249هـ (1833م) والتفت حوله الجموع فإن أهل تلمسان خلعوا سلطة المولى عبد الرحمن ملك المغرب الأقصى وانقسموا إلى طائفتين: طائفة الحضر بقيادة حمادي السقال بايعت الأمير عبد القادر وطائفة القراغلة بقيادة محمد برصالي امتنعت من مبايعته وهكذا نشأت الفتنة بين الطائفتين ثم انقلبت تلك الفتنة إلى حرب أهلية فصارت كل طائفة تترصد فرصة للهجوم على مقابلتها ولما آل الأمر إلى هذا الحد سرى داعي الانتقام في نفوس الناس وازداد هيجانهم وصار كل من له ثأر يحاول الأخذ به فتعطلت الفلاحة والصناعة وتوقفت التجارة وحلت الفوضى مكان الأمن وحيث أن القراغلة عددهم كان قليلا بالنسبة لخصومهم فإنهم تحصنوا بأسوار المشور فحاصرهم الحضر وضايقهم كما حاصرتهم كذلك جيوش الأمير عبد القادر ولكن بدون طائل حيث أنهم قاوموا مع الحامية التركية المقاومة العنيفة بقيادة مصطفى بن إسماعيل لكن خصومهم منعوهم الميرة فنفذت أقواتهم وضاقت حالهم وساء عيشهم وأجهدهم الجوع فلما علم الفرنسيون الذين كانوا بثوا العيون بتلمسان لتلتقط لهم الأخبار بذلك الأمر أسرعوا بجيوشهم إلى تلمسان تحت قيادة المارمشال كلوزيل ودخلوها عام 1252هـ (1836م) وسلمت لهم الحامية التركية التي كان يقودها مصطفى بن إسماعيل المشور فاحتلوه كما احتلوا البلدة كلها وألزموا السكان بدفع ضريبة باهضة كان مبلغها 150.000ألف فرنك في ذلك الوقت تعويضا لمصاريف حملتهم الحربية (وبقيت تلمسان بيد الحامية الفرنسية تحت نظر القائد كافينياك مدة ستة أشهر) فصعب عليهم أداؤها حتى أن نساءهم اضطررن إلى بيع حليهن وساءت الأحوال وعم البؤس جميع الطبقات إلى أن تسلمها الأمير عبد القادر عام 1253هـ (1837م) بمقتضى معاهدة تافنة المبرمة بينه وبين الجنرال بيجو فدخلها الأمير وكان دخوله لها يوما مشهودا خلد ذكره بقصيدة من نظمه مطلعها: (الطويل).

إلى الصون مدت تلمسان يداهـــا ... ولبت فهذا حسن صوت نداهـــا[1]

---

(1) ستأتي هذه القصيدة مع ترجمة الأمير عبد القادر في القسم الأدبي.

ثم سمى الأمير خليفته البوحميدي الولهاصي حاكما لها بعد أن اتخذ منها طبيبه الخاص محمد بن الزرقاء الذي كان جراحا أيضا. لكن لما صارت تلمسان تحت سلطة الأمير عبد القادر وتصرف البوحميدي إزداد الخلاف وكثر النزاع بين القراغلة والحضر لأن البوحميدي علاوة على جهله فإنه كان فظا غليظا سيء التدبير حتى صار يضرب به المثل في إصدار الأحكام الجائرة فقيل: «هذه أحكام البوحميدي» وهكذا ساءت الأحوال وكثر الظلم وتفاقم الأمر واستمر ذلك إلى أن استولى عليها الفرنسيون للمرة الثانية بقيادة الماريشال بيجو عام1259 هـ (1842م) بعد نقضهم لمعاهدة تافنة السابق ذكرها.

العهد الفرنسي
1259 هـ 1382 (1842 – 1962م)
(الخريطة رقم: 4)

وقبل أن يغادر تلمسان فإن بيجو ترك بها حامية قوية من الجنود الفرنسيين من أجل إدارتها وإخضاع القبائل المجاورة لها والدفاع عنها إذا اقتضت الحاجة ذلك ثم جعل منها بلدية سنة 1270هـ (1854م) ثم مركز دائرة تابعة لعمالة وهران عام 1274هـ (1858م) ثم بدأ الفرنسيون يقصدونها ويستوطنونها بعد أن هاجر عدد كبير من سكانها إلى المغرب الأقصى وخلا الجو لأولئك الفرنسيين الذين تزايد عددهم بفضل الإقطاعات والامتيازات التي منحتهم إياها السلطة الفرنسية ويضاف إليهم عدد كبير من الأجانب كالأسبان ثم اليهود الذين منحوا الجنسية الفرنسية عام 1286هـ (1870م) فجددوا بناء المدينة على النمط الأوروبي (ص:28) بفتح الطرقات العريضة (ص: 29) والساحات الواسعة (ص: 30) وببناء أسوار (ص: 31) تحيط بها بالحجر الأزرق وأبواب متينة (ص:31) بعد أن هدموا الكثير من أبنيتها القديمة من دور وأسواق وحوانيت وحمامات ومدارس ومساجد وغيرها حتى أنها كادت أن تفقد طابعها الشرقي.ومع ما أصابها من خطوب جمة وما حل بها من نكبات متوالية ذهبت بمعظم ما كان بها من قصور شاهقة ودور أنيقة وأسواق عامرة وحمامات واسعة ومدارس بديعة قد انطمست آثارها وعفت رسومها فإنها لا تزال تحتفظ إلى يومنا هذا ا بمساجد وضرائح كثيرة ذات جمال وبهاء ورشاقة وحسن تناسب أجزاء وتناسق هندسة وبراعة في فخامة الزخرفة مما هو آية من آيات الفن العربي الذي يحق لها أن تضاهي به عواصم المغرب والأندلس القديمة وأنها لجديرة بأن تدعى «لؤلؤة المغرب» و«غرناطة إفريقية» لان ما بقي بها من الآثار فضلا عما اندثر_ لا يزال يثير إعجاب السياح ويستهوى نفوسهم ويأخذ بمجامع قلوبهم ويشهد لأهلها بالعلو والعظمة وسلامة الذوق ببلوغ درجتهم في الرقي والحضارة ورفعة الشأن:

تلك آثارنا تدل علينـــــــــا   فانظروا بعدنا إلى الآثـــــــار

(الخفيف)

والظاهر أن السلطة الفرنسية ندمت على ما صدر منها من هدم وتقويض لبعض المنشآت القديمة إذ نجدها بعد مرور فترة الاحتلال تعود إلى العناية بالآثار الإسلامية والمحافظة عليها بل نجدها هي نفسها قد استعملت في بعض أبنيتها الهندسية المعمارية العربية مقلدة في ذلك الأسلوب الأندلسي المغربي كما نشاهد ذلك في المدرسة الجديدة (ص: 32) [1] العربية الإسلامية الواقعة قرب باب سيدي أبي جمعة المدشنة عام 1323هـ (1905م) كما نشاهد كذلك في محطة السكة الحديدية التي كانت في أول الأمر مبنية بناء بسيطا كجميع المحطات ثم أدخل عليها تغيير وإصلاح روعي فيهما النمط الأندلسي المغربي.

(1) دعيت المدرسة الجديدة بالنظر إلى مدرسة العباد التي هي المدرسة القديمة الباقية قائمة إلى الآن.

ونفس الأسلوب في البناء قد روعي في المدرسة المشيدة باقتراح علامة القطر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وهى المدرسة المعروفة باسم «دار الحديث» (ص: 33) والتي دشنها عام 1356هـ (1937م) المصلح الكبير والإمام الشهير الشيخ عبد الحميد بن باديس رحم الله الجميع (ص: 34) ويضاف إلى ذلك حمام بن قلفاط المعاصر لها ودور[1] خصوصية كثيرة قلد فيها الأسلوب المعماري الأندلسي المغربي تقليدا.

وفي الأخير نقول كلمة عن مقاومة أهل تلمسان للإستعمار الفرنسي فمن ذلك هجرتهم إلى المشرق عام 29 - 1328هـ (11 - 1911م) ولاسيما الشبان منهم رفضا لأمر فرنسا التي فرضت عليهم الخدمة العسكرية وقد قلدهم غيرهم من سكان النواحي حتى أن بعض المستشرقين الفرنسيين قال عن تلك الهجرة «بأنها مقاومة لسلطة فرنسا فحسب بل هي ثورة بدون سلاح إذ القائمون بها حضر شاعرون بضعفهم ولو كان القائمون بها من البدو لا نتهت بالبارود والرصاص» وقد قام بالدور الكبير في التحريض على الهجرة مفتي تلمسان آنذاك الحاج جلول شلبي رحمه الله _ وذلك أثناء الخطب الحماسية التي كان يلقيها يوم الجمعة على منبر الجامع الاعظم.

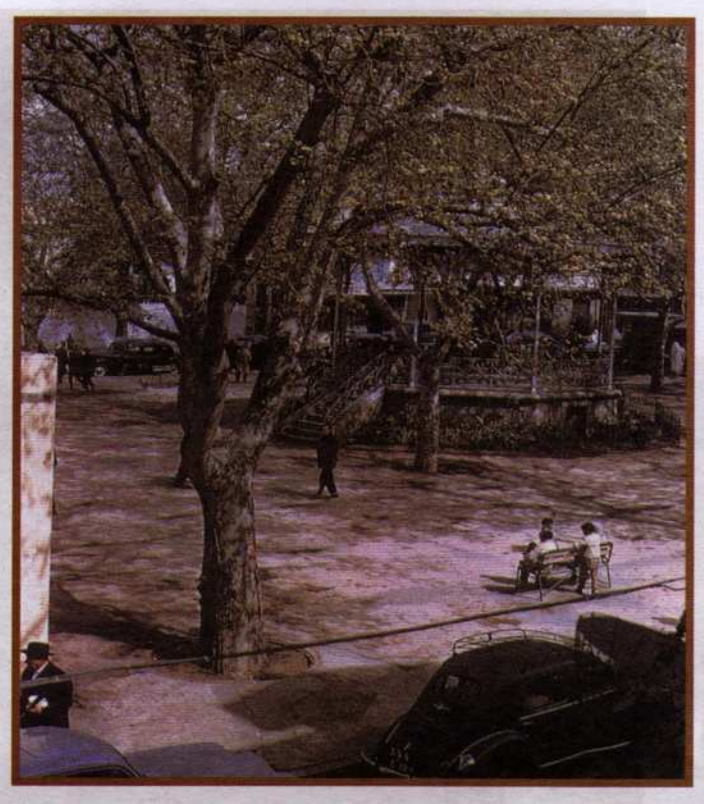
(1) منها نزل الزيانيين («الزياني»بالتحريف) (صورة: 35و 36).



28 – تلمسان الحديثة: رغم فتح الطرقات والشوارع فإنها لا تزال
تحتفظ على آثار يثير إعجاب السياح



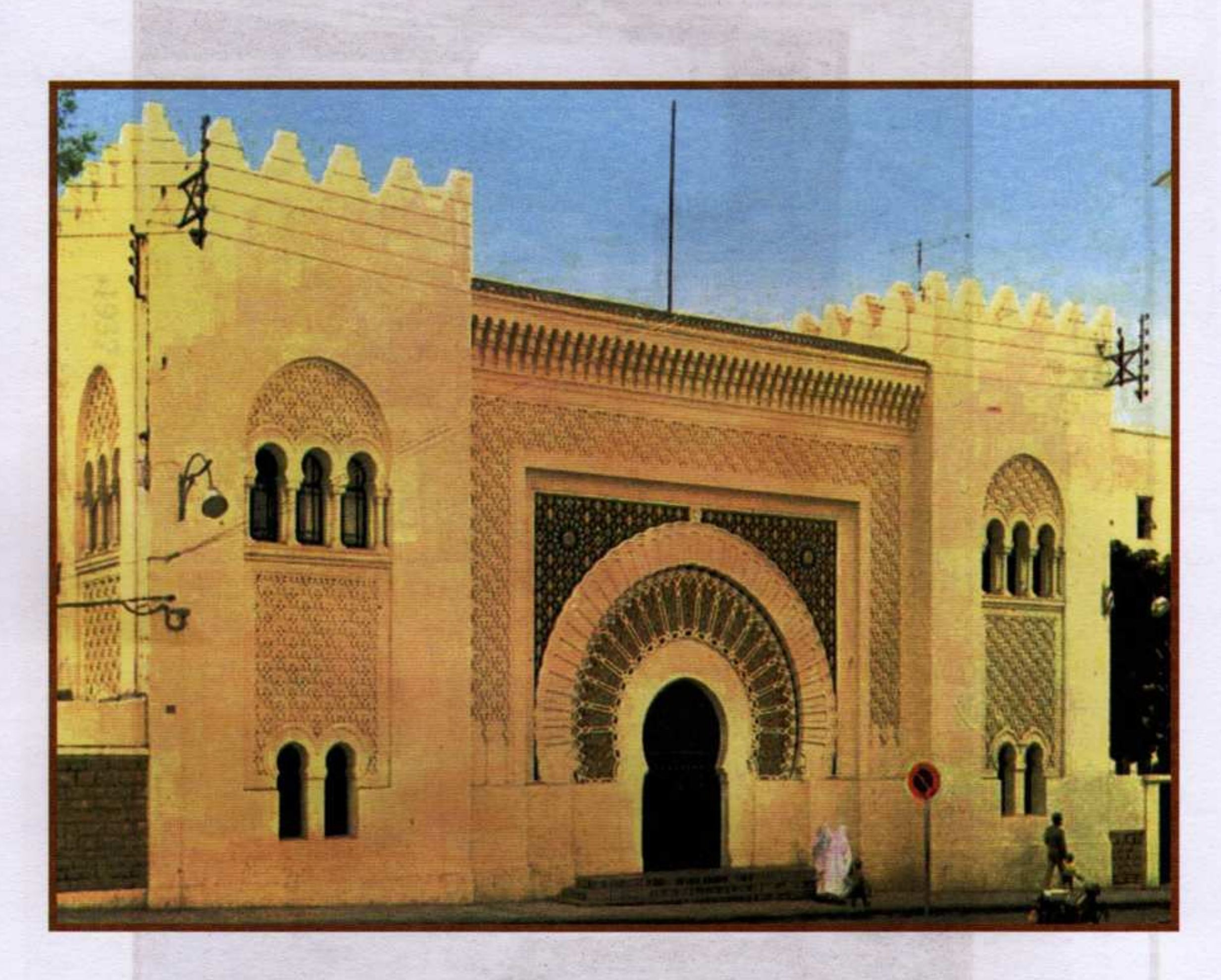
29 - "في تلمسان يعيش الحاضر جنبا إلى جنب مع الماضي" سور المشور ساحة المشور في ملتقى شارع الاستقلال مع شارع أول نوفمبر



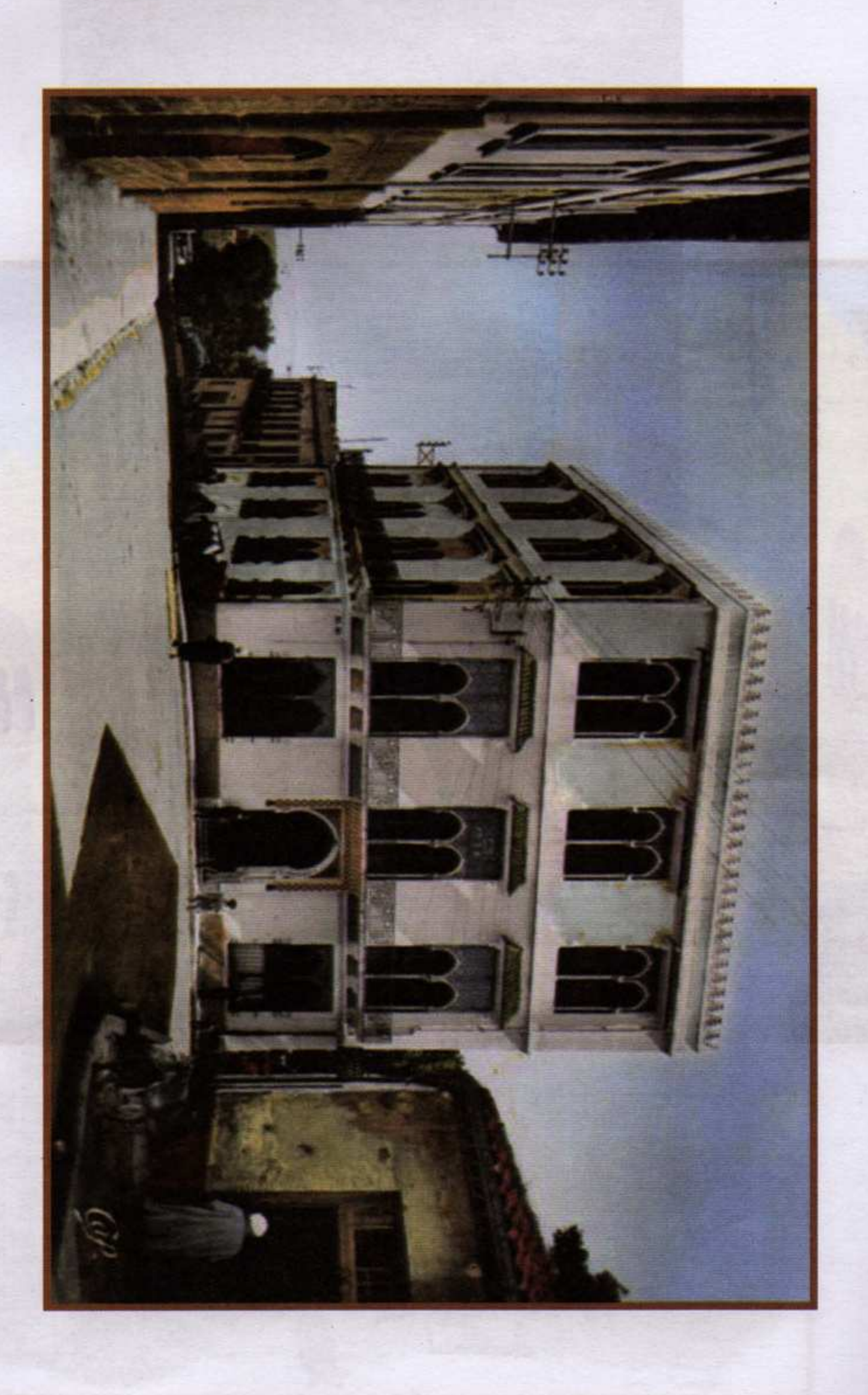
30 – ساحة الأمير عبد القادر ومقر البلدية القديمة



31 – باب سيدي أبي مدين والسور الملاسق له



32 – المدرسة الجديدة: منظر خارجي



33 – مدرسة "دار الحديث منظر خارجي"



34 – افتتاح مدرسة «دار الحديث» على يد الإمام العلامة عبد الحميد بن باديس وكان ذلك يوم
الإثنين 21 رجب سنة 1351هـ الموافق لـ 27 سبتمبر سنة 1937م

أسماء أصحاب الصورة رقم : 34

افتتاح مدرسة «دار الحديث» على يد الإمام العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية علماء الجزائريين يوم الاثنين 21 رجب سنة 1351 سبتمبر سنة 1937م. وهم من اليمين إلى اليسار:

1 - الواقفون في الصف الأول:

حسين البجاوي، الحاج عبد الكريم بربار، محمد مرزوق، محمد طالب وهو ابن الشيخ البشير الإبراهيمي، الشيخ سعيد الصلحي، الشيخ إبرا هيم الكتاني، الشيخ عبد الحميد بن باديس، الشيخ البشير الإبراهيمي الشيخ الدراجي، المحامي العالي عبد السلام طالب، محمد بن سليمان مصنوري، الشيخ خير الدين، سي جلول بن قلة.

2 - الواقفون في الصف الثاني:

(نشاهد رؤوسهم فقط بين المذكورين الواقفين في الصف الأول) عبد الحميد ممشاوي، هبري شافعي، جلول صاري، الشيخ العربي تبسي، مصطفى حميدو، محمد قاراجي.

3 - الواقفون في الصف الثالث:

الحاج علي دالي يوسف، جيلالي دحاوي، الحاج عبد القادر قاراجي، ابن عودة بوعياد، سي عبد الله خلوي بن شايب الذراع، أمحمد بن داودي، مولاي الشريف بن موسى، ابن لحسن بن احمدان، سعيد قاراجي، مولاي محمد الشريف بن موسى، دالي يوسف (فلاح)، محمد بن منصور، محمد بن ثابت، محمد بن صاري، والشاب حمدان (بارز فوق الجماعة).

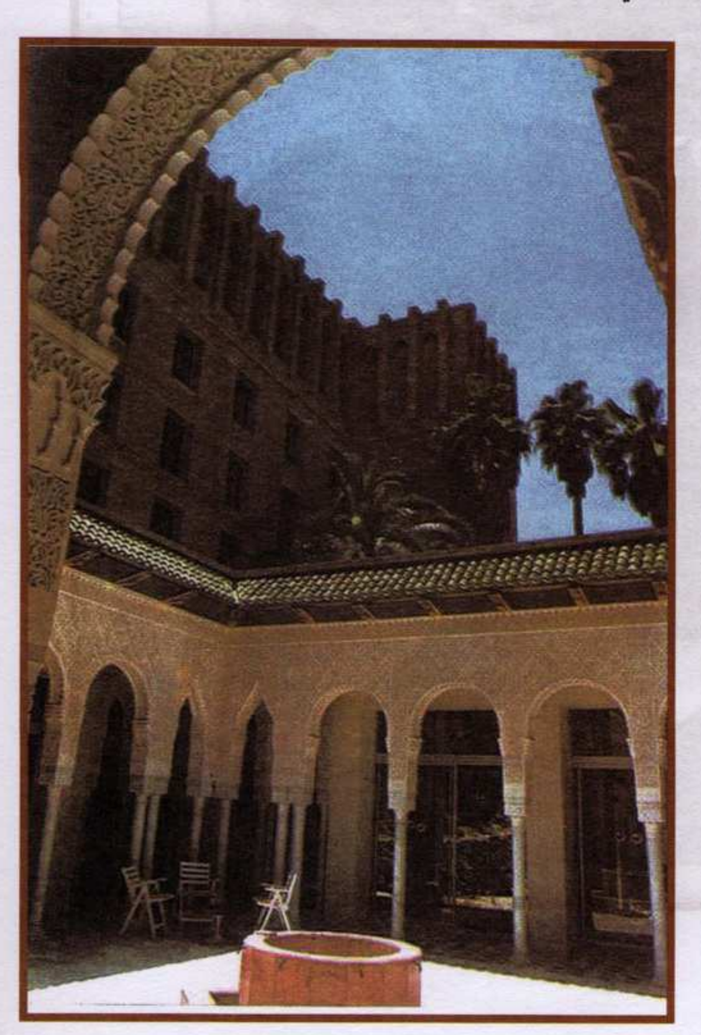
4 - الواقفون في الصف الرابع:

الهادي، السنوسي، عبد الله الشاوي، الحاج عبد القادر قاوار (يده اليمنى مرفوعة على باب المدرسة) ابن عودة شقرون، مصطفى بوعياد، عبد الله مامشي، محمد بابا أحمد، الحاج مختار صبان.

5 - ثلاثة أشخاص صغار بارزون فوق الجماعة المذكورة:



35 – نزل الزيانيين أو "الزيانيد" بالتحريف منظر خارجي



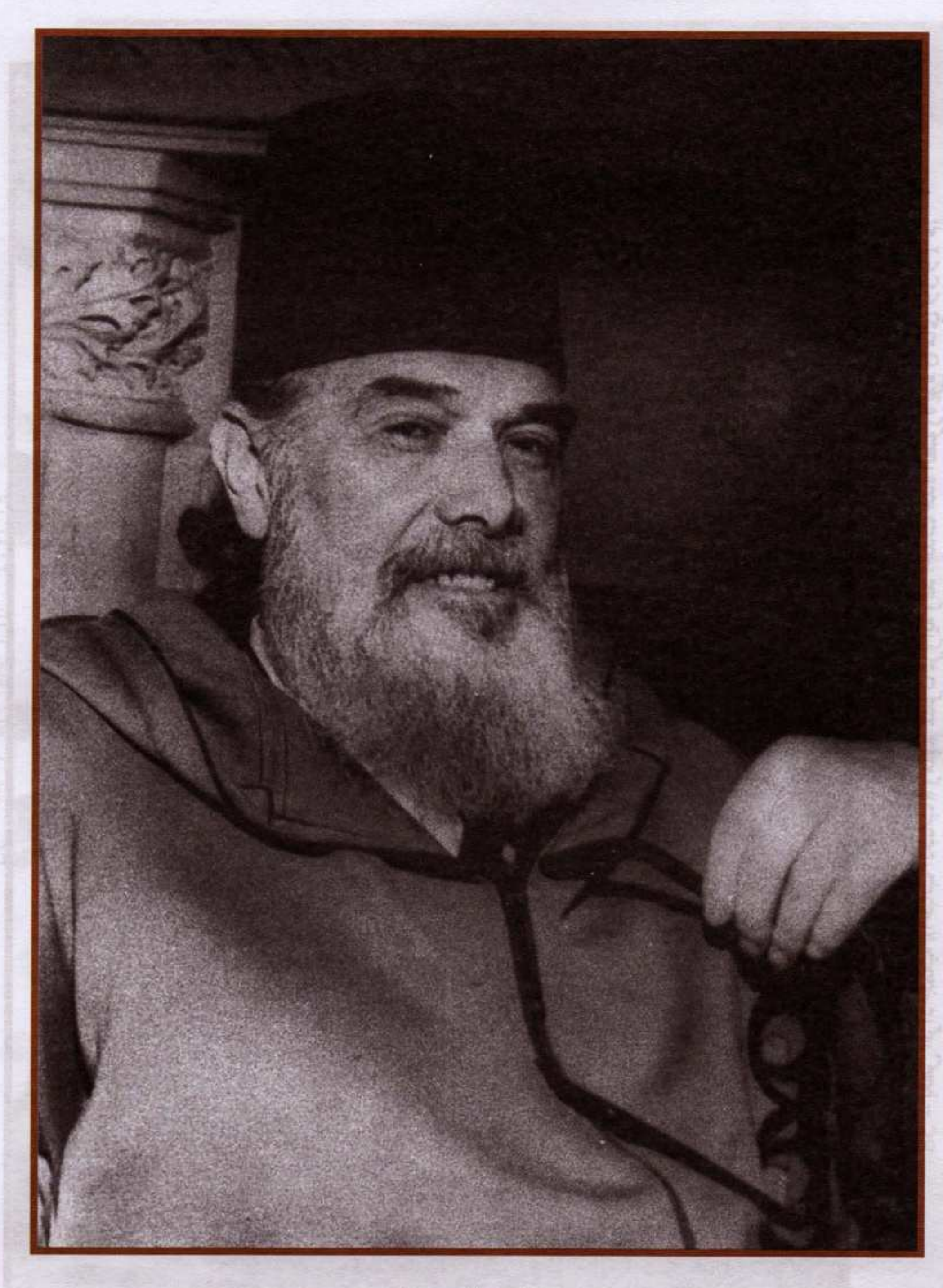
36 – نزل "الزيانيد" ك الصحن



37 - بعض أساتذة وتلاميذ المدرسة الجديدة



38 – بعض أفراد جمعية «أحباب الكتاب» ومنهم ممثلون لمرواية وقد أخذت هذه الصورة يوم 6 ماي 1939 م.



137 - الحاج مصالي

مقاومة أهل تلمسان للاستعمار الفرنسي

1337 – 1382 هـ 1919 – 1962 م

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بدأ أهل تلمسان يفكرون في الوسائل التي يمكن بها مقاومة الاستعمار الفرنسي غير وسيلة الهجرة التي تقدم الكلام عليها فأدركوا أن أفضل وسيلة لذلك هي قبل كل شيء التزود بالعلوم والمعارف فبذلوا جميع ما في وسعهم وطاقتهم من أجل تعليم أبنائهم وإرسالهم إلى المدارس الفرنسية (ص: 37) وحيث أن هذه المدارس لم تكن كافية لايوائهم أسسوا أول مدرسة حرة لتعليم العربية والفرنسية للبنين والبنات نهارا وتعليم الشبان ليلا، وسموها مدرسة الشبيبة لكن الإدارة الاستعمارية أدركت خطرها فبادرت بإغلاقها بعد أن مضت عليها مدة قصيرة وأسسوا كذلك النوادي التي صار يجتمع فيها الكهول والشبان وقت الفراغ من العمل يتلقون بها الأنباء ويتبادلون الآراء وتمثل بها الروايات وتلقي بها المحاضرات التي تتلوها المناقشات وكان أول ناد أسس بتلمسان هو «نادي الشبيبة الجزائرية» ثم تلاه تأسيس نواد أخرى. وأسسوا كذلك عدة جمعيات ذات صبغة اجتماعية كالخيرية والسنوسية أو ثقافية كأحباب الكتاب (ص: 38) وأحباب الطالب أو تربوية كالكشافة الإسلامية الجزائرية ثم بعد حلول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتلمسان فإنهم شيدوا مدرسة «دار الحديث» السابق ذكرها. كما كان أيضا لبعضهم اتصال بجمعية «نجم الشمال الإفريقي» وجريدتهم «الأمة» التي كانت تصدر بباريس فكانوا يطالعونها وينشرون ما يقرؤونه بها فأدى ذلك كله إلى تكوين فكرة وطنية عامة انتشرت بين جميع الطبقات وخصوصا بعد تكوين الأحزاب السياسية كحزب الشعب الجزائري الذي كان يرأسه الحاج مصالي (ص:137) وحزب البيان الذي كان يرأسه فرحات عباس فشارك فيهما أبناء تلمسان ونواحيها بحيث أنه لما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها كان أهل تلمسان على استعداد لا لمقاومة الاستعمار فحسب بل للثورة أيضا وقد برهنوا على ذلك بتصويتهم على جميع المترشحين من حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية (الذي حل محل حزب الشعب الجزائري) أثناء الانتخابات البرلمانية الواقعة عام 1948م ولما اندلعت ثورة فاتح نوفمبر 1954 العارمة فإن الكثير من شبان تلمسان التحقوا بالجبال وفي طليعتهم الشهيد دغين بن علي الذي عرف فيما بعد بالعقيد لطفي (ص:39)[1] وقد كان الفوج الأول متبوعا بأفواج أخرى ويكفي تلمسان فخرا أن يكون من جملة أبنائها الشهداء الحكم ابن الزرجب (ص:40) والحكيم دمرجي والصيدلي ابن الصغير لخضر (ص:41) والأستاذ إينال والإمام ابن عصمان[2] ومن بناتها الشهيدات مليحة حميدو (ص: 42) وسليمة طالب وعويشة حاج سليمان.

---

(1) إننا نعتز بهذا الشهيد الذي كان أحد تلاميذنا الذين التحقوا بالجبال أثناء الثورة، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال حيا والبعض منهم لا يزال متأثرا بجراحه، كما أن البعض منهم سجن أعواما وذاق من المستعمر أنواع التعذيب والتنكيل.

(2) انظر صورته في صورة أئمة تلمسان (صورة رقم: 65) أو في صورة رقم: 121 احتفال عودة الشيخ بن يلس من ديار الشام.

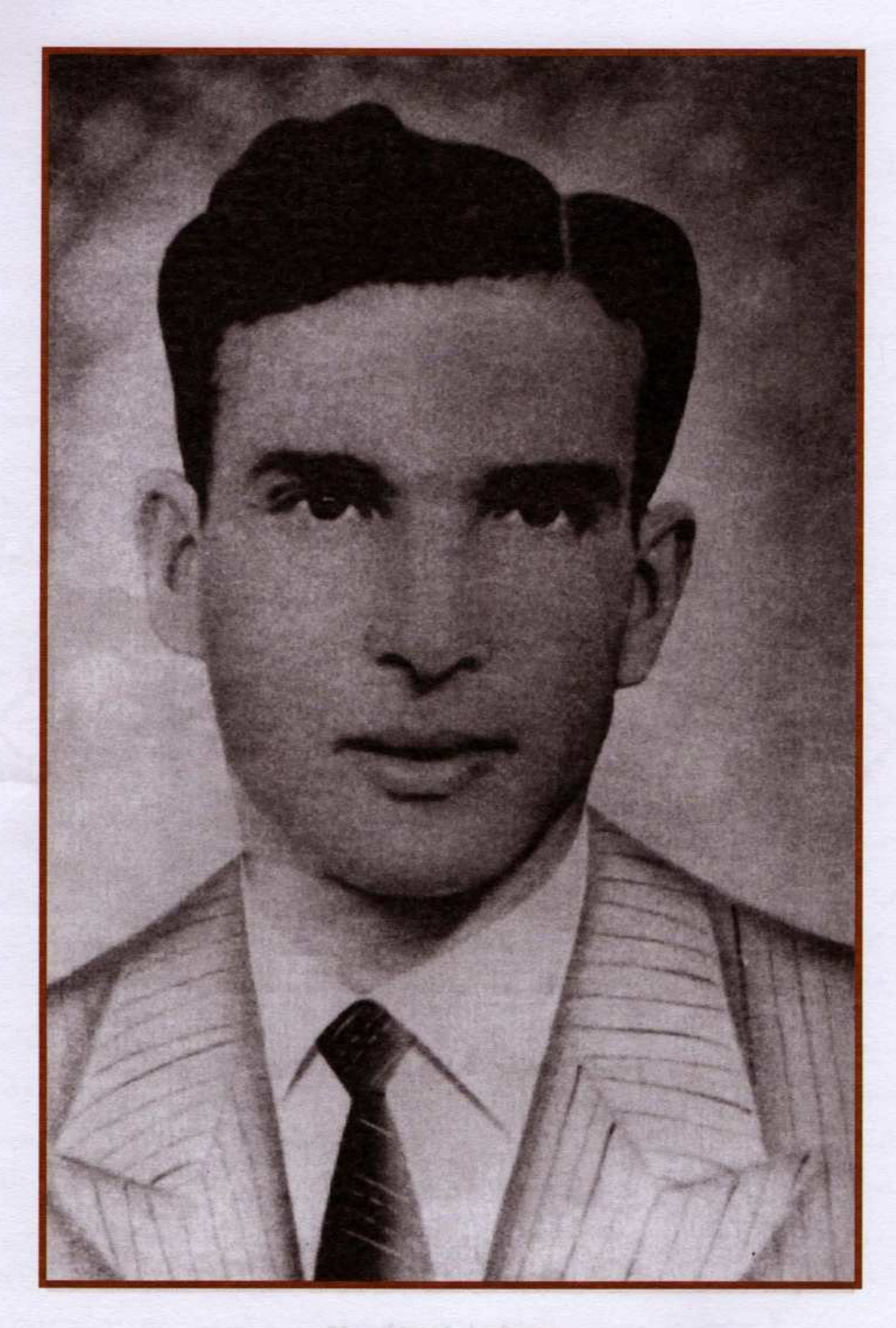
ودونك فقرة من خطاب ألقاه الدكتور أحمد طالب وزير التربية الوطنية السابق بمناسبة حفل توزيع الجوائز على الطلبة المتفوقين بتلمسان تحدث فيه عن مقاومة أهل تلمسان للاستعمار الفرنسي قال: «وكانت تلمسان من عواصم المقاومة المسلحة وكم من أبناء تلمسان الذين عذبوا وشردوا وسجنوا وقتلوا في سبيل إعلاء كلمة الله في سبيل تحرير الوطن في سبيل تعلم لغة الوطن».



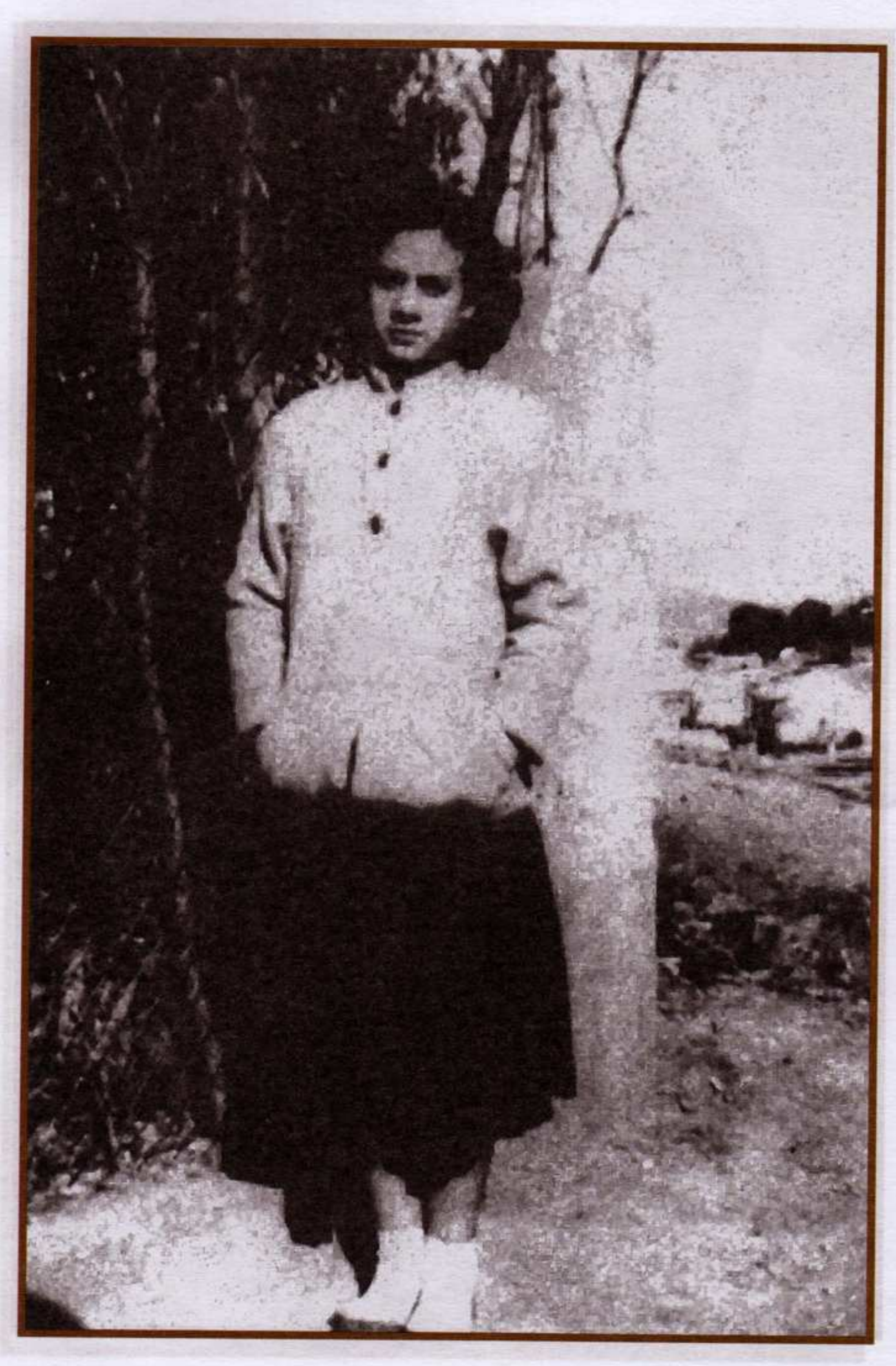
39 – العقيد لطفي



40 - الحكيم ابن زرجب بن عودة



41 – الصيدلي ابن الصغير لخضر



42 – الشهيدة مليحة حميدو

القسم الفني

قال أحمد شوقي:

محاسن وجه الدار الخميلـــــــــــــــة ومحاسن وجه البلد الفنون الجميلـــــــــــــة

وقال راسكين:

الفن الجميل هو العمل الذي يجتمع فيه الرأس والقلب واليد معا.

القسـم الفني

تمهيد:

عرف بعضهم الفن فقال: «الفن محاولة تقليد الطبيعة بقصد استشارة العواطف وإبراز ما انطوت عليه من معاني الجمال التي قد تكون مستورة عن نطر الرجل العامي».

ومما لا شك فيه أن الإنسان منذ أقدم العصور يتذوق الفن فحبه الفن طبع فيه فإذا هو اطمأن على نفسه واستوفى حاجاته بدت فيه مظاهره والتفت إلى الكمال بمجرد فراغه مما هو ضروري من أموره العادية صار يطلب الفن والجمال وهكذا تبدو بعض الفنون بدائية بين الجماعات المبتدية ثم تتنوع وترتقي بينها شيئا فشيئا بقدر ما تسمح به بيئتها من الرقي المادي والفكري، والفنون جميعها تصور جمال الطبيعة فمن أجل ذلك سميت الفنون الجميلة وهي أربعة أنواع: الشعر والغناء والرسم والنحت فالأول أي الشعر يصور جمال الطبيعة بالخيال ويعبر عنها بالألفاظ والثاني أي الغناء يصور ذلك بالأنغام والألحان ويسمى الموسيقى أيضا والثالث أي الرسم يصور ذلك مصطلحا بالخطوط والألوان ويسمى التصوير أيضا والرابع أي النحت يصور ذلك بالأشكال ويسمى كذلك الحفر.

فالفنون كلها إذا شيء واحد لكن الشعر والغناء أقدم من الرسم والنحت لقلة ما يحتاجان إليه من المواد الأولية أما الرسم والنحت وكذا العمارة فأكثر تأخرا منهما لما هي في حاجة إليه من الاستقرار أولا ثم تقدم الصناعة ومعرفة الكتابة وما إليهما.

وحيث أن الفن هو المقياس الذي تقاس به درجة الحضارة إذ كلما ارتقى فن فذلك دليل على ارتقاء الأمة التي برز فيها ذلك الفن وكلما ضؤل شأن فن من الفنون ضؤل شأن الأمة التي ينسب إليها ذلك الفن فلا مشاحة إذا أن الفن هو مظهر من مظاهر الحضارة والعمران ودليل من دلائل الرقي والازدهار في كل زمان ومكان.

وسنتعرض في هذا القسم بعد بيان حكم الشرع في الفن إلى النوع الرابع منه أي النحت أو الحفر وكذا العمارة لأنهما يدلان قبل غيرهما دلالة واقعية مرئية ملموسة على رقي الحضارة وازدهارها في البلاد الإسلامية عامة وفي الأندلس والمغرب خاصة ثم في مدينة تلمسان بصفة أخص وسنتعرض أيضا لفن الغناء أو الموسيقى باختصار في آخر هذا القسم ثم في القسم الاجتماعي وللشعر في القسم الادبي بهذه الديار أما الرسم أو التصوير فلم تمارسه الشعوب الإسلامية إلا نادرا ولذلك لا نتعرض له إذ لا نجد من نبغ فيه من المصورين بتلمسان إلا عدد قليل جدا يمكنك أن تعدهم على الأصابع وفي العصر الحاضر لا غير ومن أشهر الرسامين التلمسانيين المعاصرين السيد عبد الحليم الهمش فإن له ألواحا زيتية في غاية من البراعة والجمال خصوصا لوحة قرية سيدي الحلوى وجامعها ذي الصومعة ذات الحسن الرائع والجمال الساحر.

الفن والشرع

قد نهى الشرع الإسلامي الحنيف عن تمثيل صورة الإنسان بل تمثيل كل ما يكون مشبها بخلق الله من ذوات الروح والصورة فمما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون[1] « والأنصاب جمع نصب بضمتين وهو حجر نصب وعبد من دون الله وقيل هي الأصنام لأنها مصورة منقوشة وسماها الله رجسا أي قذرا تعاف عنه العقول وأمر باجتنابها لأنها من عمل الشيطان. وفلاح الإنسان موقوف على تركها والابتعاد عنها والأحاديث في هذا الباب مستفيضة، روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة[2] لي بقرام[3] فيه تماثيل لما رآه هتكه وتلون وجهه وقال: «يا عائشة أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهوه لخلق الله» قالت: قطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين وروى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطبا عائشة: «أميطي عنا قرامك هذا فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي»[4] الظاهر أن هذه الصور ليست من ذوات الأرواح فان قصارى الأمر بالإماطة أي الإزالة للمعنى المشار إليه و لم يتعرض لخصوص الصور وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ» وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صور صورا فان الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا» وسببه كما جاء عن رواية أنه أتاه رجل فقال «إني إنسان معيشتي من صنعة يدي وإني أصنع هذه التصاوير فقال: لا أحدثك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول: «من صور صورا... الخبر» فربا الرجل ربوة شديدة وأصفر وجهه فقال: ويحك إذ أبيت إلا أن تصنع فعليك بهذا الشجر وكل شيء ليس فيه روح» وأما علة التعذيب فلكونه أراد مضاهاة أثر القدرة فكان جزاؤه تعذيبه وتكليفه بإتمام ما خلق بنفخ الروح فيه وليس بقادر وروى مسلم أيضا عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة». وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون».

فهذه نصوص الكتاب والسنة صريحة في المنع لا تقبل تأويلا والعلة في ذلك واضحة وهي منع الناس من العودة إلى عبادة الأصنام والأوثان وتعظيمها كما كانوا يفعلون في الجاهلية لكن هذا المنع يستحيل معه نشر صناعة التماثيل والتصاوير ولهذا تجد الفن العربي منحصرا في الهندسة المعمارية وما يتبعها من نحت أو حفر ونقش وتخريم وترصيخ، ومما تجدر ملاحظته أن بعض أهل الأندلس خرجوا

(1) آية 90 من سورة المائدة.

(2) النافذة بين الداريين.

(3) الستر الرقيق من الصفوف ذو نقوش وألوان.

(4) هداية الباري إلى أحاديث البخاري ص 142 طبع مصر 1353هـ رواه أنس: كتاب الصلاة.

على العادة المألوفة عند المسلمين، في عدم تصوير التماثيل الإنسانية « فضغط البيئة كان أقوى عليهم من تعاليم الدين» كما يقول الأستاذ أحمد أمين إذ هو يروي عن المقري أنه كان في حمام بإشبيلية تمثال بديع الصنع قال فيه الشاعر: (الكامل):

ودمية مرمر تزهو بجيد ... تناهى في التورد والبياض

لها ولد و لم تعرف خليلا ... ولا ألمت بأوجاع المخاض

ونعلم أنها حجر ولكن ... تتيمنا بألحاظ مراض [1]

وجاء في كتاب «المعيار» للونشريسي فتوى تتعلق بتزويق المساجد بالأصباغ والنقوش والصنائع المستطرفة وقد استنبط الفقهاء من حيث الخميصة[2] كراهية كل ما يشغل عن الصلاة وأورد ما ذكره ابن مرزوق في شرح العمدة[3] وإليك النص:

«وقعت هذه المسألة بمجلس أمير المسلمين يعني أبا الحسن في مسجد الجامع الذي ابتناه بالعباد بمحل ضريح أبي مدين شعيب بن الحسين بظاهر تلمسان إذ كان لوثت قبلته وذهبت واحتفل فيها الاحتفال المناسب لتلك البنية فأفتى الفقيهان الإمامان أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام ومن حضر من أئمة المغرب بزواله وأبيت لهم من ذلك وكان إنشاء تلك البنية بما اشتملت عليه على يد العالم الصالح ابن عبد الله وعلى يدي علي واستدل علي بذلك المجلس بقول ابن عباس رضي الله عنه: يحمرونها ويصفرونها ثم لايعمرونها إلا قليلا فقلت: ليس فيه دليل لأن الذم إنما هو متوجه إما للمجموع من حيث أنه مجموع أو لعدم عمرانها بذكر الله وأياما كان فلا دلالة فيه على المقصود. ثم استدللت بما جاء أن عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيام الوليد وجعل فيه الفسيفساء وهي فصوص ملونة ولما افضت الخلافة إليه أشير عليه بنزعها فقال: «لا أفعل لأنها انفقت فيها الأموال» ولما بلغه أن النصارى استعظموا مسجد دمشق لما فيه ذلك شكر فعل من فعله ومع ذلك فانحى منعه ابتداءا[4] وأما بعد علمه فلا أرى أن يزال لما أجمع عليه عمر من ذلك فأمر أمير المسلمين بإزالة ما قرب من المصلى من ذلك وترك ما بعد منه وهذا ما عمت به البلوى في كل بلد ولاسيما في بلاد الشرق»[5].

انتهى النص بتصرف واختصار. ثم زاد ابن مرزوق قائلا: ورحم الله شيخنا محمد المجاصي[6] لما وقع الكلام في المسألة قال قائل ممن حضر هذا مثل المسجد الجديد[7] الذي يؤم فيه الفقيه. قال: سبحان الله والله ما علمت قط أنه على هذه الصورة والرقوم مقابلة في محرابه نفع الله به.

(1) ظهر الإسلام لأحمد أمين ج3 ص 300 (القاهرة).

(2) كساء أسود معلم الطرفين ويكون من خز أو صوف فإن لم يكن معلما فليس بخميصة

(3) كتاب العمدة في الحديث لابن مرزوق الخطيب.

(4) عبارة غير واضحة المعنى.

(5) المستحسن من البدع فصل من المعيار للونشريسي ص 1 و2 الجزائر 1946.

(6) هو أبو محمد عبد الله المجاصي الشهير بالبكاء (أنظر ترجمته في البستان لابن مريم ص 121 الجزائر 1908م).

(7) هذا المسجد هو إما مسجد منشر الجلد وإما جامع رحبة القصر وقد اندثرا معا.

وإتماما للفائدة ارتأينا أن نذكر هنا ما قاله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في شأن التماثيل والصور قال: «إن الراسم قد رسم (والفائدة محققة لانزاع فيها) ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتي فهو يجيبك مشافهة فإذا أوردت عليه حديث: «إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون» أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك إن الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في العهد لسببين الأول اللهو والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين والأول مما يبغضه الدين والثاني مما جاء الإسلام لمحوه والمصور في الحالين شاغل عن الله أو معهد للإشراك به فإن زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات..... إلى أن يقول:

وبالجملة أنه يغلب على ظني أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل» انتهى كلام الأستاذ الإمام بتصرف واختصار. (الرحلة إلى صقلية)[1].

ونختم هذا الفصل بما قاله الشيخ عبد الرحمن الجزيري في هذا الشأن بعد أن بسط الكلام عن أحكام التصوير قال: «وبالجملة فإن أغراض الشريعة الإسلامية إنما هو القضاء على الوثنية ومحو آثارها من جميع الجهات فكل ما يدني منها أو يثير ذكراها فهو محرم وما عدا ذلك فهو جائز يرشدك إلى ذلك ما ذكرناه في أسفل الصفحة من تفاصيل المذاهب.[2]

(1) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لرشيد رضا من 499 إلى 501 مطبعة المنار.

(2) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري ج2 ، ص 40 و 41 طبع مصر.

الفن العربي بالشرق الاسلامي[1]

لما فتح العرب الشام ومصر كان أغلبهم من سكان الصحراء يعيشون في ارتحال وانتقال لا يقرون في مكان يمكنهم فيه أن يباشروا فلاحة أو يتعلموا صناعة ما عدا بعض أهل الأمصار والمدن من الحجازيين واليمنيين فإن هؤلاء كانوا يعيشون عيشة قرار ويتخذون الدور والقصور لذلك فان المساجد الأولى التي بنيت بالبلاد الشرقية المفتوحة لم يكن بناتها من العرب بل كانوا أجانب من روم وفرس قد مارسوا الهندسة المعمارية في الأقطار المفتوحة حديثا أو البلاد المجاورة لها فهذا الوليد بن عبد الملك سادس خلفاء بني أمية لما عزم على بناء جامع دمشق فانه استدعى نحو الألف ومائتي عامل جيء إليه بهم من القسطنطينية وهذا عمرو بن العاص لما عزم على بناء الجامع العتيق بالفسطاط فانه كلف مهندسا معماريا من القبط كي يشرف على بنائه وكثيرا ما استخدم العرب الفرس في أبنيتهم قال عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته: «فلما بعد العهد بالدين وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدم العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع»[2] وقد أبقى خلفاء بني أمية عندهم الصناع الذين جيء بهم من القسطنطينية مدة طويلة فتخرج عليهم كثير من العرب وهكذا نشأ الفن العربي شيئا فشيئا حتى صارت له أصول ثابتة وعمال ماهرون واستقل عن الفن البزنطي والفارسي استقلالا تاما وصار فنا عربيا بحتا لا أثر فيه للفن الأجنبي أصلا.

وهكذا بعد أن قلد العرب البزنطيين والفرس في الهندسة المعمارية والحفر، وهذا شيء لاسبيل إلى إنكاره، أصبحوا بعد فترة من الزمن سادة العالم في هذه الصناعة لما فطروا عليه من الحذاقة وحب الفنون الجميلة.

(1) هذا الفصل والفصلان بعده مقتبسة من كتاب: «الآثار العربية بتلمسان» لوليام وجورج مارسي.

(2) مقدمة ابن خلدون ص 252 طبع مصر بلا تاريخ (فصل في المباني والمصانع.... الخ).

الفن العربي بالغرب الإسلامي

لما فتح العرب المغرب وما تلا ذلك من فتح الأندلس وصقلية فإنهم نقلوا إلى هذه البلدان ما تعلموه بالمشرق من الهندسة المعمارية فهذا عقبة بن نافع الفهري لما بنى مدينة القيروان وبني بها الجامع المعروف باسمه فإنه لما جدد بناءه زيادة الله الأغلبي عام 222 هـ (836م) يقول ابن الأبار «هو الذي بنى جامع القيروان بالصخر والأجر والرخام بعد أن هدمه وبني المحراب كله بالرخام من أسفله إلى أعلاه وهو منقوش بكتاب وبغير كتاب ويستدير به سوار حسان بعضها مجزعة بأسود ناصعة البياض شديدة السواد ويقابل المحراب عمودان أحمران فيهما توشية بحمرة صافية دون حمرة سائرها يقول كل من رآها من أهل المشرق والمغرب أنه لم ير مثلهما»[1]. وقد استعمل كثيرا من الأعمدة القديمة بتيجانها جيء بها إليه من كل مكان والبناءة أنفسهم جيء ببعضهم من المشرق. وهذا عبد الرحمن الناصر الأموي لما بني مدينة الزهراء بسفح جبل العروس المشرف على قرطبة فإنه استدعى بناة جيء بهم من بغداد والقسطنطينية وغيرهما وقد وجد الباحثون في أطلال مدينة الزهراء أعمدة جيء بها من إفريقية وإيطاليا وحتى من آسيا الصغرى كما وجدوا أكعابا من رخام جيء بها من بيت المقدس وليس بخاف أن العلاقات بين خلفاء بني أمية بالأندلس وقياصرة الروم ببيزنطة كانت معينة لمعاداة الفريقين لخلفاء الدولة العباسية.

وباختصار أن من يمعن النظر في الآثار العربية المشيدة بالمغرب والأندلس وصقلية أثناء القرون الثلاثة الأولى التي كانت تلت الفتح العربي لهذه البلاد يتجلى له فيها الطابع الشرقي بكل وضوح فالقباب والعقود بأشكالها المختلفة عليها مسحة بزنطية والأعمدة عليها مسحة فارسية.

(1) «الحلة السيراء» لابن الأبار ج 1 ص 163 و 164 (القاهرة).

أطوار الفن العربي

كل من يحقق النظر في الفن العربي يجده ينقسم إلى ثلاثة أطوار: الطور التقليدي وطور التخلص والطور العربي الخالص.

أ- **الطور التقليدي**: لهذا الطور علامات خاصة تميزه عن الأطوار الأخرى فعلاوة على المواد المستعملة في البناء أن هيئة الأبنية لا تزال مقلدة للطراز البينزنطي إذ القناطر منقوشة الشكل ولا وجود لشكل البيكارين المستعمل في الأبنية المصرية المعاصرة لها وأما القباب فهي على شكل نصف الكرة وأما النقش فهو على شكل الأزهار وأما الأحجار المستعملة في العقود فهي ملساء ومنها ما هو ملون ومنها ما ليس بملون وأما الزخرفة التي وشيت بها بسائط الجدران فهي ذات أشكال هندسية مشتبكة أو على شكل الأزهار وأخيرا الأعمدة وتيجانها تمتاز بالرشاقة واللطافة وكل ذلك يشبه ما يراه الزائر في آثار القسطنطينية أو البندقية وإنما تمتاز الأبنية العربية عن تلك بما أحدثوه من نقوش جبسية محفورة وبارزة. وأحسن مثال للأبنية العربية المشيدة في الطور الأول هو جامع عقبة ابن نافع بالقيروان وجامع قرطبة الأعظم: ذلك الجامع العجيب الذي لا نظير له في العام الإسلامي كله ويضاف إلى هذين الجامعين أيضا الجامع الأعظم بطليطلة المحول إلى كنيسة بعد استيلاء الأسبان على هذه المدينة.[1]

ب- **طور التخلص**: في هذا الطور بدأ الفن العربي يتخلص شيئا فشيئا عن الطور التقليدي وقد دام هذا الطور نحو القرنين أي الرابع والخامس للهجرة (العاشرة والحادي عشر للميلاد) إذ الأبنية التي شيدها العرب بالمغرب والأندلس في هذه الفترة من الزمن وإن احتوت على البعض من الزخرفة القديمة المعهودة فإن ظواهر التجديد بها شاخصة جيدا مما يدل على أن الفن العربي قد دخل في طور جديد حيث أنه صار أدق من سابقه وأكثر استقلالا، وأحسن مثال للأبنية المشيدة في هذا الطور هو جامع القرويين بفاس والجامع الأعظم أو الكبير بتلمسان ثم ما شيده الموحدون بالأندلس والمغرب الأقصى كقصر إشبيلية ومئذنة جامع الكتبية بمراكش ومئذنة رباط الفتح المعروفة بصومعة حسان ويضاف إلى ذلك بعض القصور المشيدة بجزيرة صقلية كقصر القبة وقصر العزيز بالرمة.

وباختصار إن هذا الطور الذي شيدت به الأبنية المذكورة هو طور متوسط بين الطور الذي شيد فيه جامع القيروان وجامع قرطبة وجامع طليطلة والطور الذي سوف تشيد فيه أبنية غرناطة وفاس وتلمسان بحيث يستقل الفن العربي استقلالا عن الفن التقليدي ويصير فنا عربيا بحتا لا أثر فيه للفن التقليدي أصلا.

(1) كان هذا الجامع كنيسة قبل استيلاء العرب على هذه المدينة التي كانت عاصمة القوط فلما استولى الأسبان على طلطيلة هدموا الجامع وبنوا من انقاضه الكنيسة الجامعة بحيث لم يبق اليوم أثر ما للجامع الذي كان قبلها.

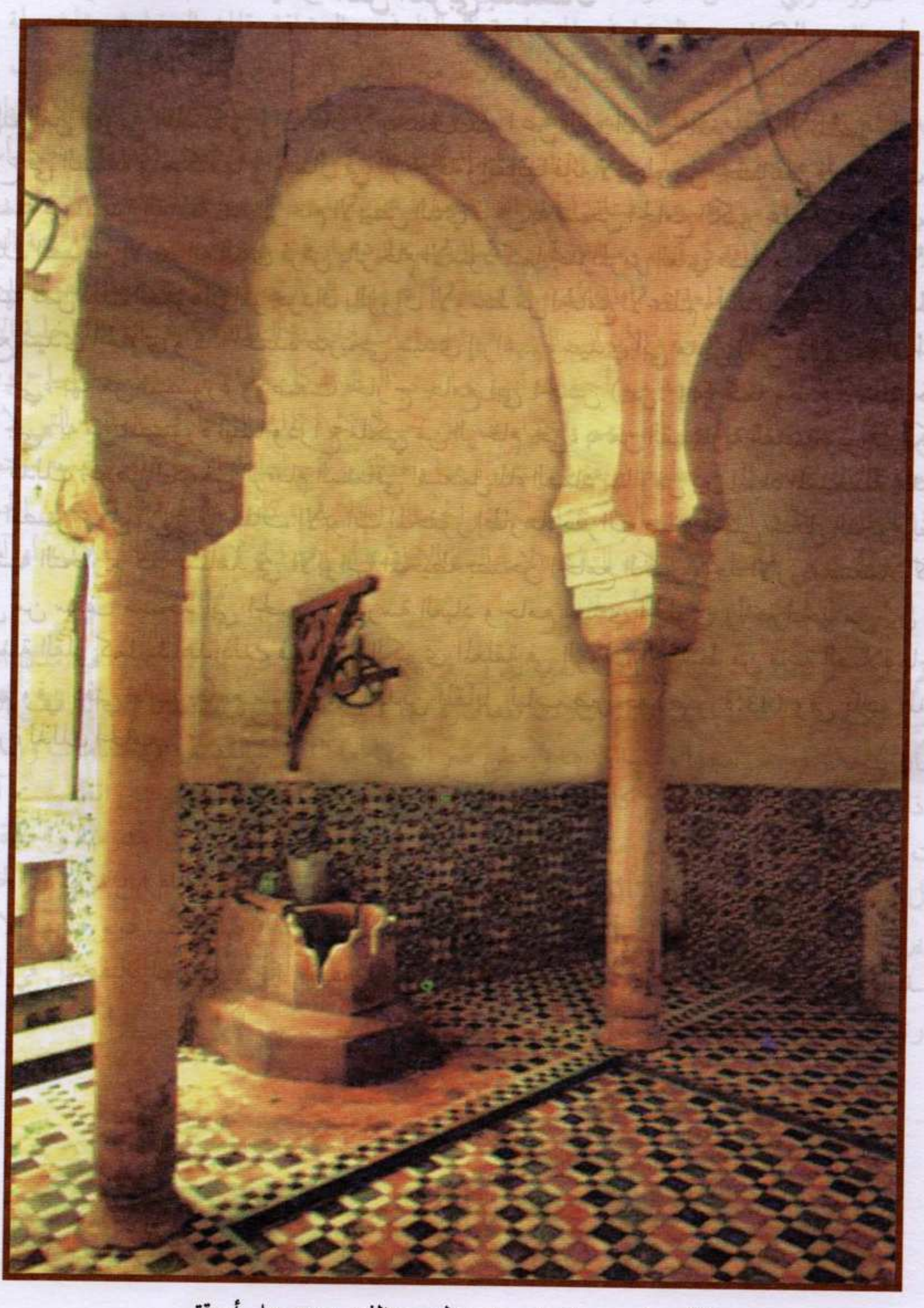
ج- **الطور العربي الخالص**: يمتاز هذا الطور على سابقيه بالإبداع في تصميم البناء وفي تصميم كل جزء من أجزائه وبالإكثار من الزخارف المتشابهة في الظرف والرشاقة، تلك الزخارف المشتملة على أحجار الفسيفساء ذات الألوان الزاهية وعلى الملاط من الملس والرخام وعلى الجبس المنحوت بدقة حتى أنه يلمع لمعانا والمقطع تقطيعا يشمل ألف صورة هندسية تشتبك اشتباكا غريبا وعلى الأكاليل من الزهور التي تخيلوها فنقشوها على جدران أبنيتهم بأتم صناعة. كما يمتاز هذا الطور كذلك بنحت أسماء المشيدين وأشعارهم ورموزهم على ستائر الجدران بخطوط عربية بديعة الحسن تزيد هذه الزخارف رونقا وجمالا مما يدل على لطافة ذوقهم ومبلغ رقي حضارتهم وازدهار فنونهم وأحسن مثال للأبنية العربية المشيدة في هذا الأخير هو قلعة غرناطة المعروفة «بالحمراء» فهي إلا النموذج الأمثل لهذا الفن البديع لما احتوت عليه من الحجر الواسعة والأبواب اللطيفة والحمامات الحسنة النظيفة والحدائق الداخلية الأنيقة وقد أضيف إلى ذلك كله مسجد من أجمل وأبهى ما يرى الزائر فكل هذا يثير إعجاب السياح ويأخذ بمجامع قلوبهم بل يملك عليهم أنفسهم وحواسهم من حيث كثرة تلك الزخارف الرائعة التي لا عدد لها المحتوية على تعاريش وخطوط ونقوش منثورة هنا وهناك يرتاح لها الزائر بل يلقى نفسه مسحورا مأخوذا بمحاسن ذلك العجيب والتناسق المسكر والجمال الخلاب وكثيرا ما يقرا الزائر على الجدران منحوتا بخط كوفي جميل العبارات التالية «لا غالب إلا الله» أو «عزا لمولانا السلطان فلان» أو آية من القرآن الكريم بل آيات في بعض الأحيان.

لم تنفرد غرناطة وحدها بما أنتجه الفن العربي في هذا الطور الأخير بل شاركتها فيه مدن أخرى بالمغرب الكبير وبالأخص العواصم الثلاث المعاصرة بها فاس وتونس وتلمسان إلا أن الفن العربي بتلمسان ينحصر في جوامعها ومساجدها وبعض ضرائحها أما الدور والقصور والحمامات والمدارس وغير ذلك من الأبنية القديمة التي كانت تفتخر بها عاصمة بني زيان فإنها اندثرت وانطمست آثارها وعفت رسومها منذ أمد بعيد بما فعلته يد الإنسان وتقلب الحال والزمان ما عدا مدرسة واحدة فإنها لا تزال كما كانت عليه منذ عهد المؤرخ العطر عبد الرحمن بن خلدون والإمام ابن مرزوق الخطيب والوزير الخطير والأديب الكبير لسان الدين بن الخطيب السلماني الذين طالما ألقوا دروسا بها ألا وهي المدرسة الكائنة بقرية العباد بجوار جامع سيدي أبي مدين وسيأتي الكلام عليها بالتفصيل في القسم المعماري إن شاء الله تعالى.

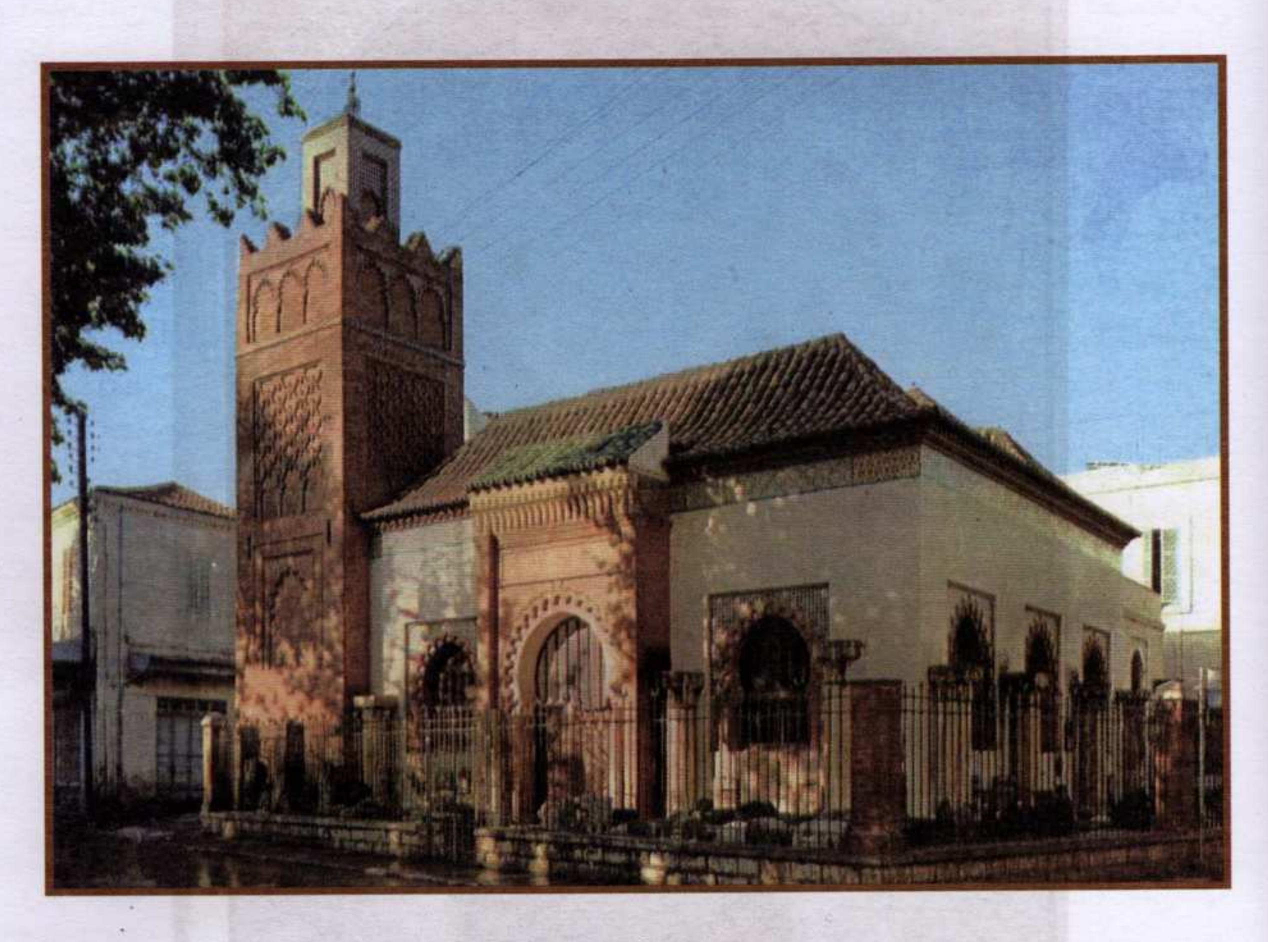
الفن العربي بتلمسان

إن الفن العربي التلمساني وإن كان لا يختلف كثيرا عن الفن العربي المغربي والأندلسي من حيث الإبداع في الصنعة وأحكامها والجمال في الزخرفة وإتقانها فإنه لايخلو من خصائص فمن حيث المواد المستعملة في الأبنية القديمة نجد الرخام الأبيض الذي فرش به صحن الجامع الكبير على سعته ولا يستثنى من ذلك الصحن إلا محرابه الذي فرش بالرخام الأسود كما نجد المرمر الذي صنع منه كثير من الأعمدة بتيجانها فمن ذلك العمودان الموجودان بالرواق الأوسط من الجامع الأعظم وأعمدة مسجد أبي الحسن[1] وجامع سيدي الحلوي وكذا أعمدة ضريحي سيدي إبراهيم وسيدي أبي مدين (ص:43) كما أن أعمدة كثيرة جيء بها من المنصورة ووضعت خارج جامع أبي الحسن (ص: 44) كما وضع داخله حوض المرمر جيء به من المصنورة أيضا وذراع ملكي من الرخام جيء به من القيسارية القديمة ويوجد بكنيسة المدينة كذلك حوض آخر من الرخام السماقي استعمل لماء العماد بها ومن بين المواد المستعملة نجد أيضا اللوح المصنوع من الأرز في دفات الأبواب المحفور إطارها حفرات صغيرة على شكل النجوم بحيث أنها تشبه التخاريم كما يشاهد في الأبواب المحيطة بصحن الجامع الكبير ونجد الأرز مستعملا كذلك في كل من سقف مسجد أبي الحسن ومدرسة العباد وجامع سيدي الحلوي وأخيرا نجد من بين المواد المستعملة القلز كما يشاهد ذلك في الثريا الكبرى المعلقة في الرواق الأوسط من قاعة الصلاة بالجامع الأعظم وفي دفتي باب جامع سيدي أبي مدين المقابل لباب ضريحه (صورة:43) وفي باب المدرسة المجاورة لذلك الجامع.

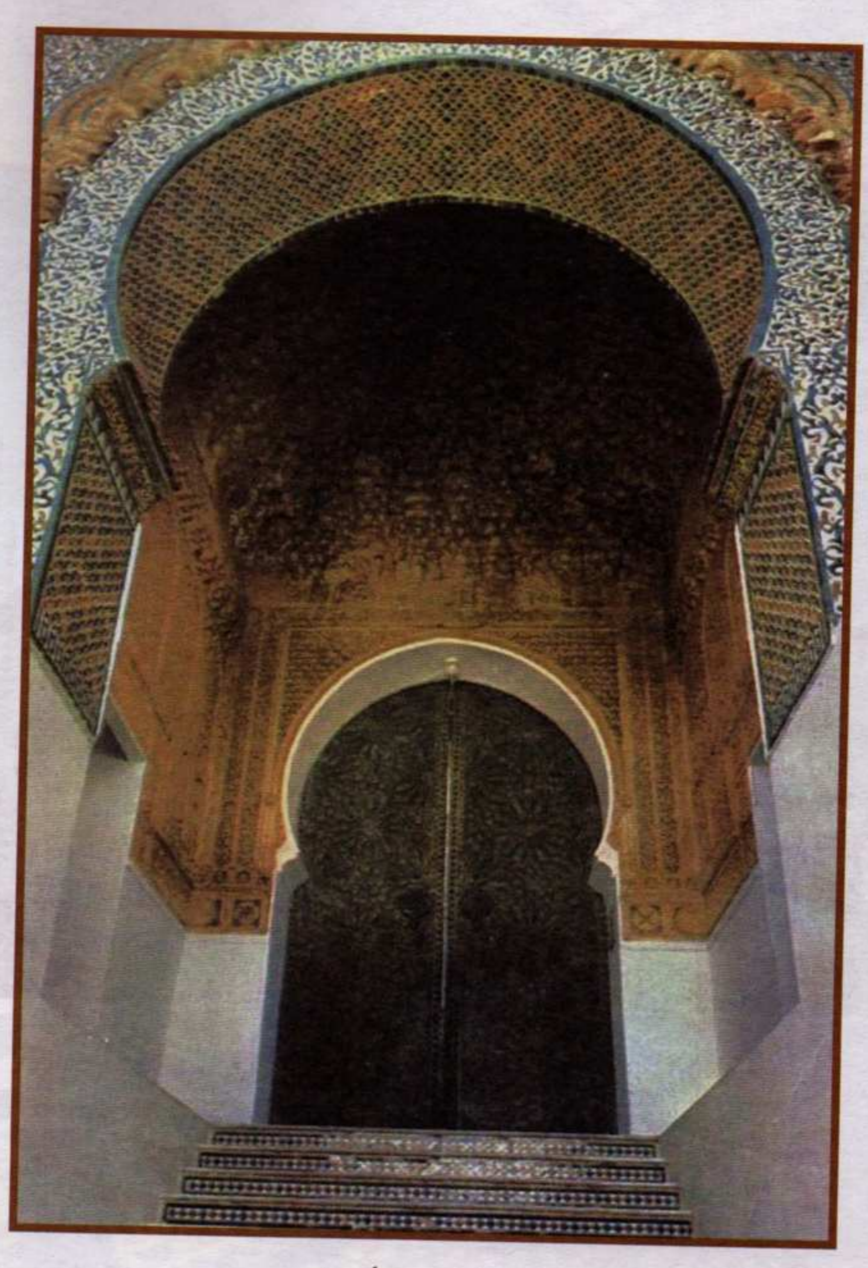
(1) قد حول هذا المسجد إلى متحف ولا يزال متحفا إلى الآن.



43 - ضريح سيدي ابي مدين: الصحن الذي يحتوي على أروقة
وقبة وأعمدة من المرمر وشواهد لقبور بعض العلماء ثم البئر



44- مسجد سيدي أبي الحسن (المتحف):
منظر خارجي نرى أن أعمدة من المرمر جيئ بها
من جامع المنصورة وضعت خارج هذا المسجد



45 – جامع سيدي أبي مدين:
الباب الجوفي الضخم المقابل لباب ضريحه

46 – جامع سيدي أب مدين:
نرى الزخرفة الجبسية على كل الجدران وعلى السقف أيضا

وأما من حيث الزخرفة فإن أسفل الجدران كان في المدارس مغشي كله بقطع من الفسيفساء ذات الأشكال المختلفة والألوان المتنوعة ولازال يستعمل في الأبنية الخاصة كالدور والحمامات أما في المساجد فلا ترى الفسيفساء على الجدران إلا في محراب مسجد سيدي البناء وإطاره أي على جانبيه الأيمن والأيسر أما أعلى الجدران مما يلي ذلك فإنه مغشي بطبقة من الجبس المنحوت ذي الأشكال الهندسية أو الزهرية أو الخطية الشبيهة بالتخاريم وهذه الطبقة تمتد إلى السقف المحمول على سوار من الحجارة أو أعمدة من المرمر تعلوها قناطر مقوسة تغشيها نفس الزخرفة الجبسية وقد يكون السقف مصنوعا من الأرز ومزخرفا بحفريات ذات أشكال متنوعة وأحسن مثال للصنف الأول أي الزخرفة الجبسية على الجدران والسقف جامع سيدي أبي مدين (ص:46) وأحسن مثال لزخرفة السقوف المصنوع من الأرز مسجد أبي الحسن وجامع سيدي الحلوي ومدرسة العباد.

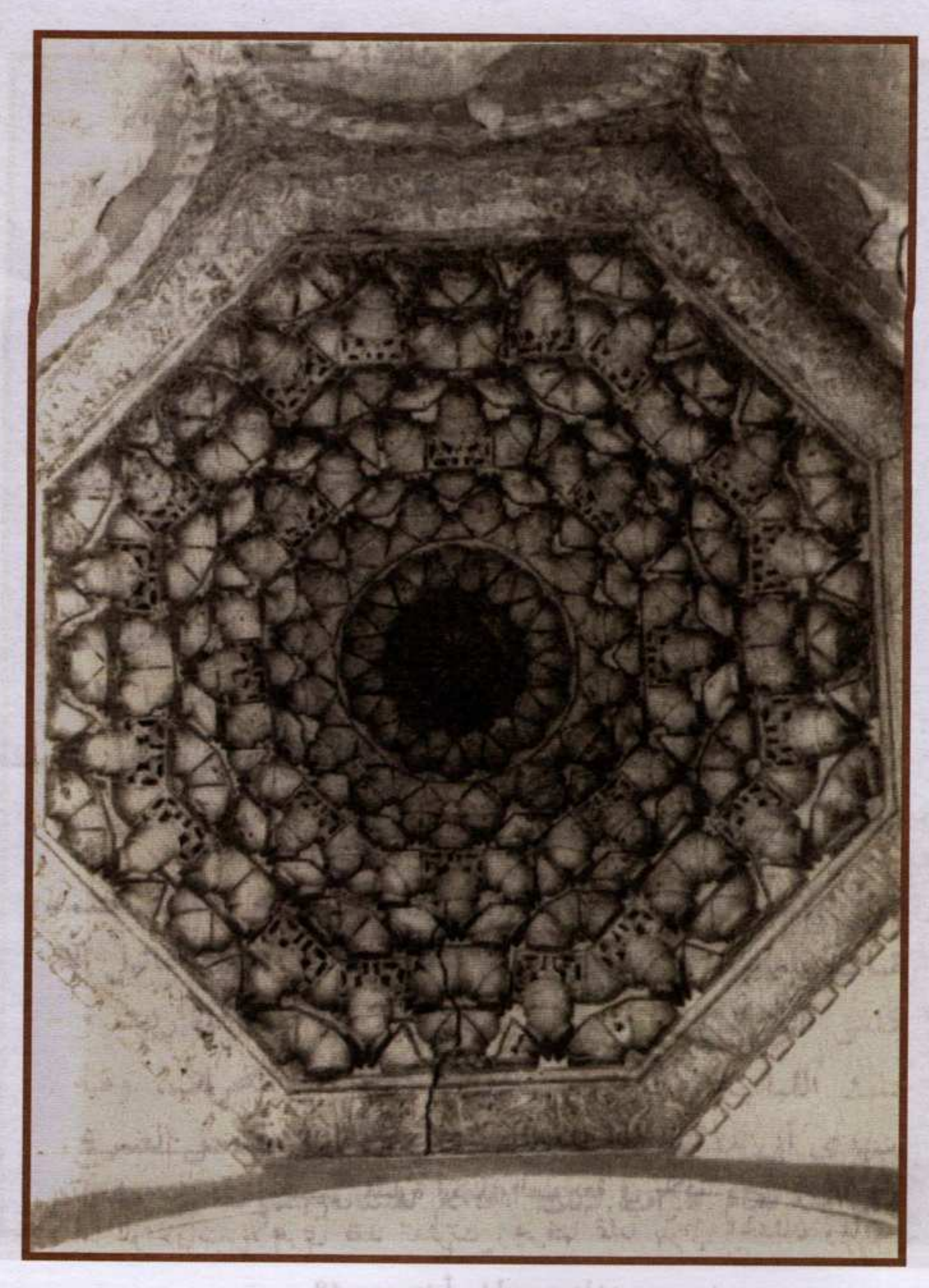
ومما ينبغي التنويه عليه أن عدة قطع من الفسيفساء التقطت حين هدمت المدرسة التاشفينية ووضعت في متحف المدينة وكذا التقطت قطع أخرى من دار الفتح وجامع المنصورة إلا أنها ضاعت جميعها كما أن دار السلطان المخربة الكائنة قرب ضريح سيدي أبي مدين لا يزال بأسفل جدرانها بعض القطع من الفسيفساء إلى الآن.

وفي الأخير نقول كلمة عن القباب وأخرى عن المآذن التلمسانية فأما القباب فإنها مزخرفة بتماثيل من الجبس شبيهة بتلك التماثيل الطبيعية من الكلس التي تشاهد قائمة أو مدلاة بالكهوف والمغارات وأحسن مثال لتلك القباب قبة الجامع الكبير الكائنة أمام المحراب، وقبة رتاج جامع سيدي أبي مدين الواقعة فوق المدرج المقابل لمدخل الضريح، وقبة الرواق الواقعة أمام محراب ذلك الجامع نفسه ويضاف إلى ما ذكر قبة محراب جامع سيدي الحلوي وقبة محراب مسجد أولاد الإمام ومسجد أبي الحسن (ص:47).

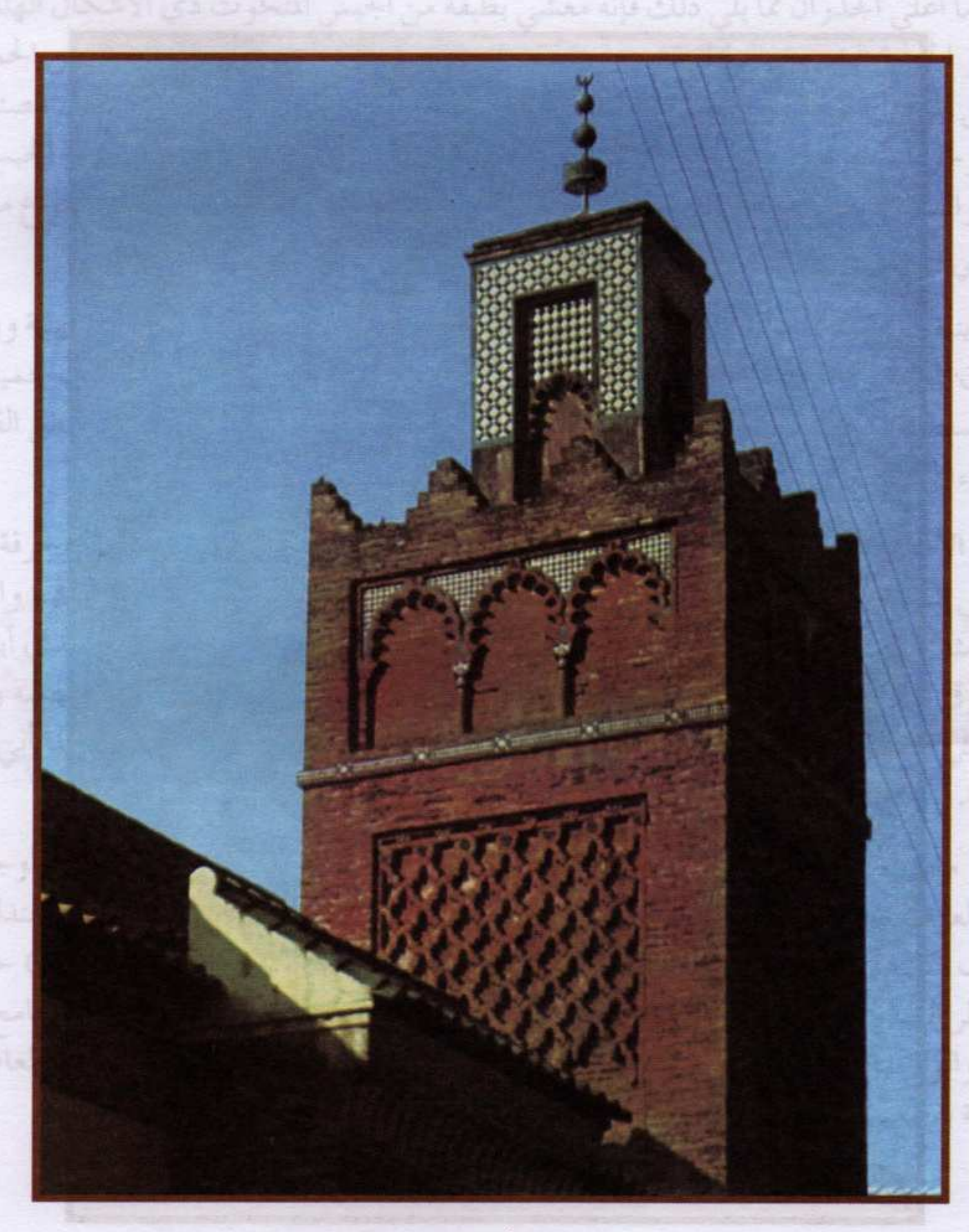
وأما مآذن[1] الجوامع والمساجد المبنية من الآجر فإنها كلها مربعة الشكل أي ذات أوجه أربعة كما هو العرف الجاري به العمل في الجوامع والمساجد المالكية بالمغرب والأندلس وإنها معتدلة القامة ومزخرف أكثرها بقطع من الفسيفساء ذات الألوان المختلفة والأشكال المتنوعة (ص:48) حتى أنها تبهر الناظر إليها وتملك عليه جميع حواسه ولاسيما منارة جامع سيدي أبي مدين ومنارة جامع سيدي الحلوي والواجهة الجنوبية من منارة مسجد المشور[2] وكذا منارة مسجد أولاد الإمام المعاصرة لها والمزخرفة بقطع من الفسيفساء من ألوان ثلاثة، الأخضر، والأسمر، والأبيض.

(1) المآذن جمع مئذنة وتسمى المنارة أيضا والصومعة في بلادنا وهي محل الآذان للصلاة.

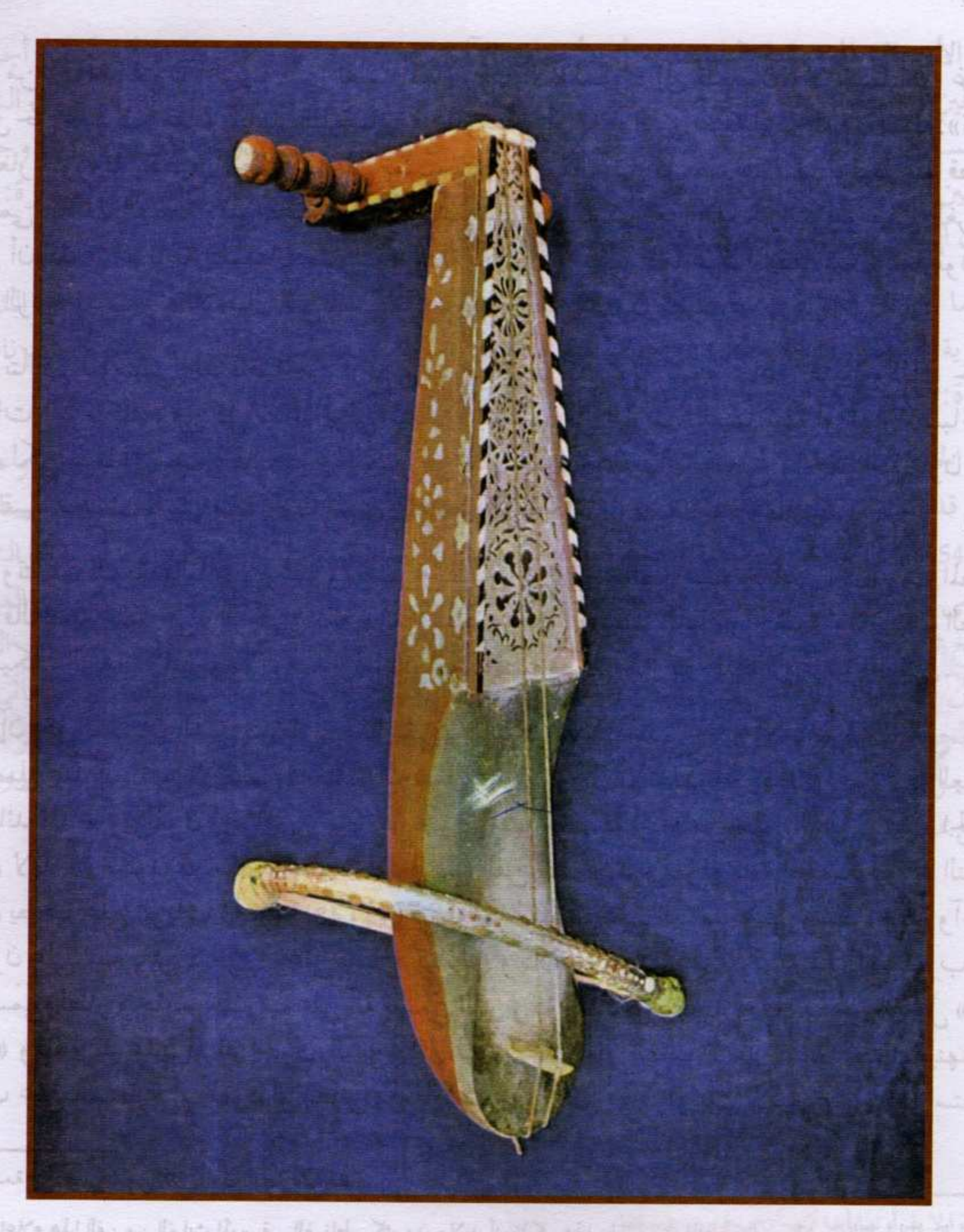
(2) أما الواجهات الأخرى فقد اندثرت زخرفتها تماما بتوالي الحدثان وبما فعلته بها يد الإنسان.



47 – مسجد أبي الحسن : سقف قبة المحراب



48 – مسجد أبي الحسن : مئذنته



49 -آلة الرباب : تدين الجزائر بجزء من الفضل لتلمسان على معجزة الاحتفاظ بالموسيقى الأندلسية عبر القرون

الموسيقى أو الغناء

من جملة الفنون الجميلة التي نقلها المهاجرون الأندلسيون إلى تلمسان ولا سيما أهل غرناطة الذين حل عدد كبير منهم بالديار التلمسانية فن الموسيقى أو الغناء الذي عرفه ابن خلدون بقوله: «تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعة»[1] وتسمى كذلك الصنعة وقد حافظ أهل تلمسان على جانب كبير من هذا التراث الموسيقي الغرناطي حتى أن كلمة: غرناطة بتلمسان صارت مرادفة لكلمة موسيقى كما عرفوا أيضا كيف يتوارثون هذا الفن الرفيع ويسلمونه للأجيال التي أتت بعدهم طيلة خمسة قرون مضت[2].

تتألف الموسيقى الغرناطية من أربع وعشرين نوبة كل نوبة تدوم ساعة تقريبا وذلك حسب ساعات اليوم كله وفي كل ساعة يؤتى فيها بما يناسبها من النوب لتلقيها ليلا أو نهارا صباحا أو مساء لكن – يا للأسف– قد ضاع الكثير من تلك النوب لتلقيها بالسماع والحفظ من دون كتابة ولا تقييد بحيث لم يبق منها الآن سوى اثنا عشر نوبة كاملة وبضعة نوب ناقصة.

وتتألف النوبة غالبا من توشية ومصدر وبطايحي ودرج وانصراف وخلاص أما النوب المعروفة الآن فالكاملة منها هي: الرمل والماية ورمل الماية والذيل ورصد الذيل والحسين والمجنبة والغريب والصيكة والزيدان والمزموم والرصد وأما النوب الناقصة فهي: الجاركة والموال وغريبة الحسين.

إن أهل تلمسان الذين يتعاطون هذا الفن يحسنون العزف على جميع آلات الطرب التي كانت مستعملة عند العرب بالأندلس ويغنون الموشحات والأزجال الأندلسية وكذلك الحوزي والعروبي وقصائد المدح ويؤلفون أجواقا يتركب كل جوق منها من ستة أشخاص على الأقل: رئيس الجوق، الذي لابد أن تكون له مهارة عظيمة لأداء هذا الفن أداء جيد ومعرفة تامة بجميع أنواع النوب[3] الذي يعزف على الرباب (صورة:48 و49) في أول الحفلة ثم على الكامنجة في وسط الحفلة وآخرها ويكون على يمينه باش كياتري وعلى يساره كياتري وكلاهما يعزف على الكويترة ورابع يضرب على آلة تسمى الطار وخامس يضرب على آلة تسمى الدربوكة وسادس ينفخ في بوق يسمى الفحل «بفتح الحاء» وقد يزيد عدد أفراد الجوق الذين يقال لهم الآليون أو الهاليون على ستة فيكون بينهم من يعزف على السنطرة أو العود أو القانون أوالمعزف وباختصار فان أولئك الآليين يحسنون استعمال

(1) مقدمة ابن خلدون ص297 بدون تاريخ طبع مصر.

(2) إن إعلام هذا الفن من التراث الموسيقي الغرناطي كثيرون ولابد أن نذكر هذا على سبيل المثال معلمي الشيخ الفذ الحاج العربي بن صاري الذي أصبح نجما في هذا الفن وهم الشيخ محمد ابن شعبان المعروف باسم بوظلفة والشيخ الغوثي الذيب وأخوه الشيخ محمد الذيب الذين كانوا بدورهم قد تكونوا عند الشيخ المنور بن عتو والشيخ الحاج حمادي بغدادي.

(3) يحكي كمثال في حب حسن البراعة والكمال في معرفة هذا الفن أن معلم الشيخ العربي بن صاري وهو الشيخ المعروف باسم «بوظلفة» قد ترك رآسة جوقه الذي كان يرأسه طيلة ست سنوات وذلك ليتم تكوينه وأصبح يحترف عند الشيخ ميمش اليهودي عندما أحس بالتفوق الكبير الذي يمكله هذا الشيخ اليهودي في فن الموسيقى الأندلسية وقد مكث يتتلمذ عنده عشر سنوات كاملة أخرى.

جميع الآلات المعهودة عند أصحاب هذا الفن (صورة:50) ويحفظون حفظا جيدا كثيرا من القصائد الشعرية[1].

والأجواق الموسيقية التلمسانية أي أجواق الآليين صنفان: محترفون وهواة أما أشهر أجواق المحترفين في عهدنا[2] هو جوق الحاج العربي بن صاري (صورة:53 و 54 مكرر و 138) وجوق الشيخ عبد السلام بن صاري وجوق الشيخ محمد دالي يحي جوق الشيخ عمر بخشي (صورة: 54) وجوق الشيخين ابن ثابث وابن العطار وجوق الشيخة طيطمة وجوق الشيخ رضوان بن صاري (صورة: 54) وجوق الشيخ بن زرقة وجوق الحاج محمد غفور.

أما أجواق الهواة فأشهرها جوق «الزاهية» و «الجوق الموسيقي الذي هو فرع من نادي الشبيبة الجزائرية»[3] (صورة: 55 و 56) «وجوق الهواء الجميل» وجوق «نسيم الأندلس»[4] وجوق «غرناطة» (صورة:57) وجوق «القرطبية» (صورة:50 لرئيسها) الخ....

والجدير بالذكر أن الموسيقى الأندلسية التلمسانية مع ما أضيف إليها من حوزي وعروبي وغربي ومدح قد انتشرت في مدن أخرى، جزائرية ومغربية بفضل الأشياخ الآتي ذكرهم: الشيخ ابن إسماعيل (ص: 54) الذي نشرها في مدينة وجدة حيث أنه أسس بها جمعية موسيقية دعاها «الأندلسية» والشيخ مصطفى بن عبورة الذي نشرها في ندرومة والشيخان مامي وابن الخوجة في مدينة سيدي أبي العباس والشيخ دالي عبد الكريم في الجزائر العاصمة وكان قبله بها المرحوم محمد المنمش التلمساني الذي كان من جملة تلاميذة الشيخ سفينجة المشهور في فن الموسيقى الجزائرية والشيخ الصادق البجائي في مدينة بجاية[5] والشيخ رضوان ابن صاري في مدينة الدار البيضاء بالمغرب وأخيرا الشيخان عبد الرحمن السقال ومحمود بن صاري في مدينة وهران ويضاف إلى هؤلاء ولد الحاج الذي كان مطرب القلاوي الخاص بمراكش.

(1) فكانوا لا يقرأونها أبدا أثناء أدائها في وسط الحفل.

(2) أي من نهاية الحرب العالمية الأولى إلى يومنا هذا.

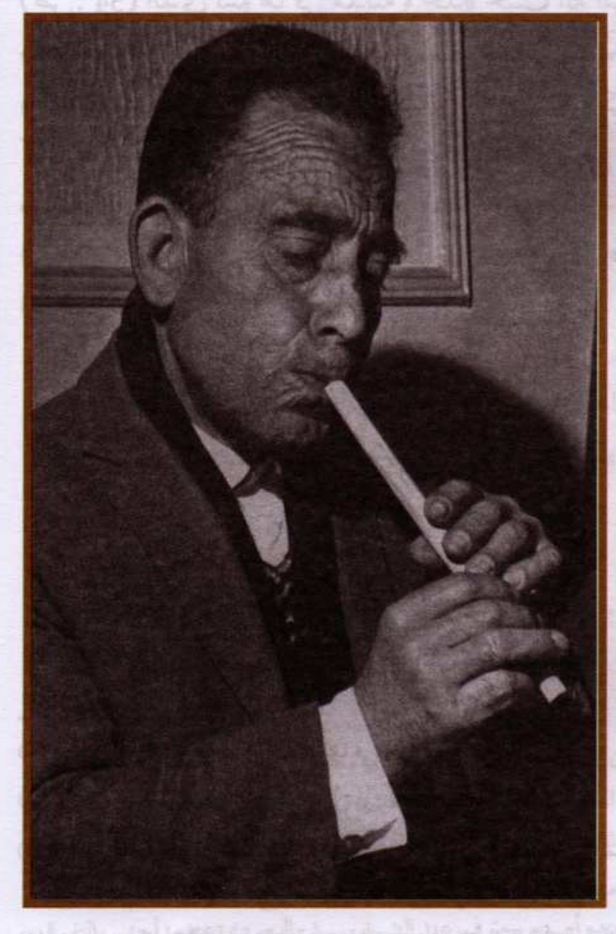
(3) حصل هذا الجوق تحت قيادة الشيخين مصطفى بلخوجة ومحمد أبو علي على الجائزة الأولى من المهرجان الموسيقي الوطني الأول للموسيقى الكلاسيكية وذلك سنة 1967م.

(4) حصل هذا الجوق تحت قيادة يحي الغول على الجائزة الأولى كذلك من نفس المهرجان سنة 1969م.

(5) أقام الشيخ الصادق البجائي سنتين بتلمسان وشارك أثنائهما في جوق الشيخ عمر بخشي المذكور.



50 – رئيس الجوق يعزف على الرباب



51 – أحد أفراد الجوق ينفخ في بوق يسمى الفحل

52 – أفراد الجوق يقومون بتدريب موسيقى داخل قاعة ناديهم



53 – الموسيقار الكبير : الحاج العربي بن صاري وهو يعزف على آلة الرباب عاش اثنين وتسعين سنة (1872 – 1964 م) وقد قضى عمره منذ صغره في فن الموسيقى الأندلسية

أسماء أصحاب الصورة رقم : 54

جوق موسيقي كبير يشمل محترفين وهواة ومدعوين للحفل بلباسهم القديم وقد أقيم هذا الحفل في أحد بساتين تلمسان وذلك سنة 1934م بمناسبة نجاح بعض المنتخبين في المجلس البلدي. وهم من اليمين إلى اليسار:

1 - **الجالسون على البساط في الصف الأول:**

(وهم أفراد الجوق الموسيقي الكبير) محمد الصغير تركي حساين (السنطير) عبد الله بن منصور (الدربوكة) الشيخ رضوان بن صاري (الكامن) سي محمد بن اسماعيل (العود) الشيخ الحاج العربي بن صاري (القانون) الشيخ عمر بحشي (الرباب) ؟ ؟ ؟ (الفحل) عبد القادر القرموني سراج (الكثيرة) ، عبد الله ستوتي (السنطير)، زين العابدين بن منصور (الطر).

2 - **الجالسون على البساط في الصف الثاني، وراء الآليين:**

الحاج بومدين بوكلي حسن، الباشا قارى مصطفى (الشيخ رضوان في الوسط) وموسى قارى مسطفى، شعيب منصوري (الشيخ عمر بخشي في الوسط) وأحمد تركي حسين.

3 - **الجالسون على الكراسي:**

(بعض أعيان تلمسان) ابن علي منصوري، مصطفى قارى مصطفى، عبد الله صاري حاج الدين، القابطان قارى مصطفى، نسيم بنزاكين، محمد بن سليمان منصوري، الحاج الغوثي بن اسماعيل، الحاج عبد الكريم تركي حساين، الحاج عبد القادر بلخروبي، بن عودة بوعياد، يوب بندي مراد.

4 - **الواقفون وراء الجالسين على الكراسي:**

عبدالكريم بربار، الحاج محمد قارى تركي، الهبري الشافعي، بوعياده، محمدي، الشوار، حميدة بن داودي، بن عودة بوعياد، بن زرقة، علال كهي ثاني، بلقايد، عبد القادر بن عصمان، سي الغوثي حاج حساين، بندي ويس، سي بكار مراح، بندي خليل، سيدي محمد مامي، يوب بن يادي، بشير بن قلفاط، ابن لحسن بن احمدان، بخشي، الشيخ بن أباجي، عبد الله ممشاوي، محمد بيرم، سيدي محمد مرزوق.

54 – حفل موسيقي أقيم في أحد بساتين تلمسان سنة 1934 بمناسبة نجاح بعض المنتخبين في المجلس البلدي نشهد جوقا موسيقيا كبيرا يشمل عشرة أعضاء يرأسهم الشيخ الحاج العربي بن صاري وهو هنا يعزف على القانون



138 – جوق الشيخ الحاج العربي بن صاري أثناء شهرته الأولى سنة 1927 يتألف : (من اليمين إلى اليسار) مولاي جيلالي المدعو موحا (الطر) بن قبيل (الكوثرة) العزوني حميدي (الفحل) الشيخ رضوان بن صاري وهو صغير (السنتير) الحاج العربي بن صاري (الرباب) بن منصور عبد الله (الدربوكة) والشيخ عمر بخشي (العود)



55 – حصل هذا الجوق الموسيقي الذي هو فرع من نادي الشبيبة الجزائرية والمعروف ب (لاسلام) والذي كان يرأسه الشيخان مصطفى بلخوجة (في الوسط يعزف بالرباب) والحاج محمد أبو علي (في الوسط على يمين الأول يضرب على آلة العود) حصل على الميدالية الذهبية أثناء المهرجان المويسقي الأول للموسيقى الأندلسية وذلك سنة 1967 في الجزائر العاصمة.

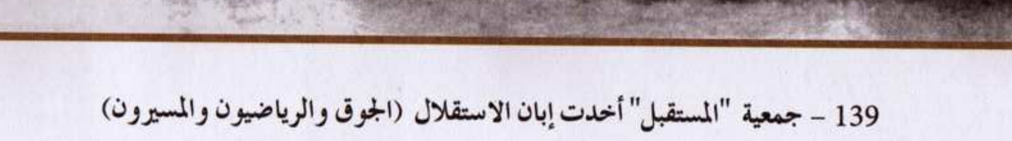


56 – الجوق المشهور (لاسلام) الحديث (سنة 1992) بقيادة الأستاذ أحمد يغدادلي على اليسار نلاحظ هنا
بالمقارنة مع الصورة السابقة رقم 55 أن تعلم الموسيقى الأندلسية لا زال متواصلا من الآباء إلى الأبناء



57 – الجوق التلمساني للموسيقى الأندلسية: (غرناطة) تلمسان كانت وما تزال الحافظ الأكثر حرصا والأعظم رعاية والأشد ولعا بالموسيقى الأنداسية.

58 – الجوق الطبالين : سنة 1967 يرأسه الشيخ الحاج أحمد ملوك بالغايطة (البوق) ومعه ولد كل منهما بالطبل وبجانبه مولاي الهاشمي بالغائطة أيضا.



139 – جمعية "المستقبل" أخذت إبان الاستقلال (الجوق والرياضيون والمسيرون)

وبالجملة ففي عهدنا هذا قد برع كثير من الموسيقيين حبا في هذا الفن الرفيع وحفاظا عليه وقد ذاع صوت كثير منهم.[1]

وهناك نوع آخر من الموسيقى يقال له الطبل. يتركب جوق الطبالين (صورة رقم: 57) من خمسة أشخاص: اثنان يضربان على الطبل واثنان ينفخان في بوق يسمى الغايطة وخامس يضرب على آلة تسمى الطبيلة. أما أجواق الطبالين فهي صنفان أيضا محترفون وهواة أما أشهر أجواق المحترفين فجوق المعلم بودغن وجوق المعلم بريكسي.

وأما أجواق الهواة فأشهرها جوق «المستقبل» ص: 139 [2] الذي كان يرأسه ابن حجي المدعو ناي ناي وجوق «الخلدونية» الذي كان يرأسه بوراس.

لابد أن نشير هنا إلى أن أهل تلمسان صغارا وكبارا رجالا ونساءا، في عهد متجرد من آلات الراديو والتلفزة والشريط والأسطوانات، كانوا يحببون الموسيقى الأندلسية ويجدون في الاستماع إليها راحة وتسلية فكانوا يتغنون بكثير من نغماتها ويحفظون كثيرا من شعرها. وقد كان لكل شخص ميل في الاستماع كل مرة لقصيدته المختارة فكان أثناء الحفل يطلب من رئيس الجوق أن يعزفها له[3].

فكان الحاضرون كلهم ينصتون بأذن واعية، وقلوب منشرحة صاغية، وباحترام متبادل تام فلا أحد يتكلم، ولا أحد يرقص، ولا أحد يصفق، فالكل يتذوق معاني القصيدة، والكل يتصور بدائع الشاعر والكل يفرح برنين العود أو الناي، والكل يضطرب بنغامة الرباب، وبالجملة يتذوق الفن بعقله وإحساسه وجميع جوارحه. فهذا الصمت التام المفقود اليوم تماما كان يغني عن آلات مكبرات الصوت التي تقلق أذن الحاضرين أكثر مما تطربهم.

ولهذا كان الجوق دائما في اجتهاد أثناء تأدية القصيدة مخافة أن يصبح مذموما من طرف بعض المدعوين الذين ربما لهم خبرة واسعة «بصناعة» هذا الفن الجميل.

وبالاختصار فهذا الجو الملائم المنبث من جانب الحاضرين والمكون من الصمت[4] والهدوء والاحترام ومن الفهم[5] والشعور قد جعل محبة هذا الفن تتقوى عند الناس وجعل هذا الفن يزداد تحسنا عند محترفيه.

(1) نذكر بعض المعاصرين منهم الذين لم يذكر اسمهم في هذه الصفحة منهم: سي محمد عبورة وسي حميدة العزوني وعبد القادر القرموني سراج وأبومدين بن قبيل وجيلالي محمد الملقب بموحا والغوثي بن قازي ومحمد بن صاري ولد الحاج العربي والحاج محمد بن صاري والحاج مصطفى سنوسي بريكسي ومحمد بن قرفي وعبد الغاني مالطي ومحمود بن صاري وعبد الرحمن السقال وجيلالي زروقي وبلقاسم الغول وصالح بوكلي حسن ومحمد شريف وحسن الذيب وأحمد بغدادي وفؤاد بوكلي حسين...إلخ.

(2) كان هذا الجرق يستعمل من آلات النفخ الفحل (بفتح الحاء) بدلا من الغايطة وهذه الآلة تدعى الزرنا بالجزائر وقسنطينة: الشيء الذي يدل على أنها من مخلفات العهد التركي في هذه البلاد.

(3) كان يطلب تأديتها بواسطة رجل له صوت قوي يقال له «براح» وبدفع بعض الدراهم لرئيس الجوق.

(4) يحكى أن أثناء حفل بكت مرضعة بكاءا قويا أزعج الحاضرين فضمتها أمها لصدرها وذلك لإسكاتها بواسطة الرضاعة من ثديها فقطعت أنفاسها دون أن تشعر وماتت الرضيعة.

(5) رفض الشيخ «بوظلفة» أن يقوم بحفل في بعض بوادي تلمسان وذلك علما منه أن أهل تلك الناحية ليس لهم ذوق بهذا الفن مع أن هذا الحفل كان يجلب له ولأفراد جوقه مالا كثيرا، قائلا لهم كلمته المشهورة «الحمار لا يشم القرفة».

القسم المعماري

قال الشاعر: (مجزوء الخفيف):

في بلادنـا عاديــــــــــــــــــات

يجب علينـا أن نراهـــــــــــــــا

وقال الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس: (الكامل):

همم الملوك إذا أرادو ذكرهـــــــــــا

من بعدهم فبألسن البنيـــــــــــــــان

إن البنيان إذا تعاظم شأنـــــــــــــه

أضحى يدل على عظيم الشـــــــــأن [1]

(1) المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف ج 1 ص 174 طبع دار المعارف بمصر.

القسم المعماري

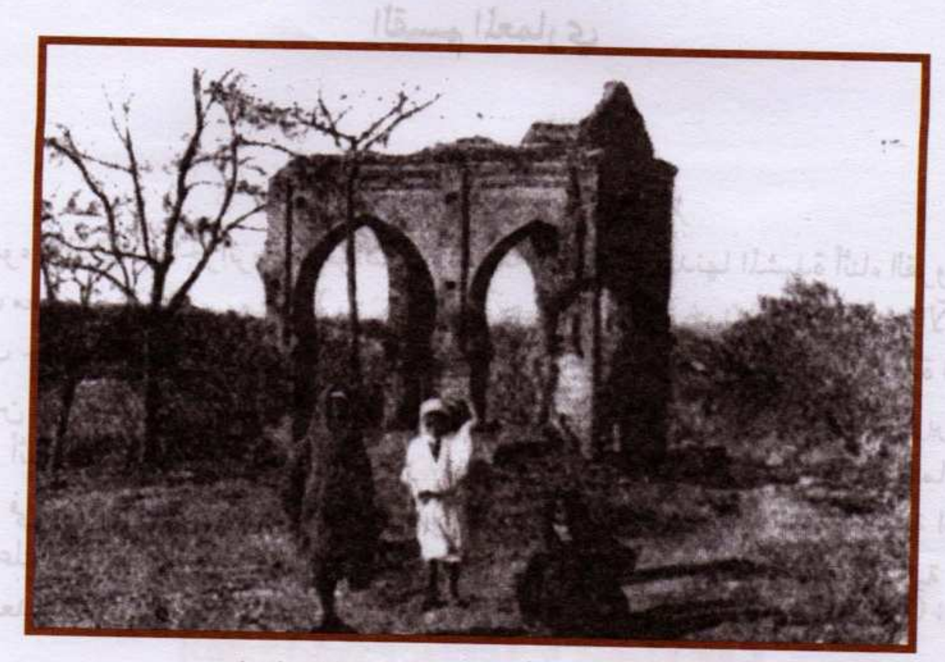
تمهيد:

من سوء حظ البلاد الجزائرية أن عواصمها القديمة وكثيرا من مدنها المشيدة أثناء القرون الوسطى قد اندثرت معالمها وعفت رسومها و لم يبق منها شيء يعول عليه المؤرخون والباحثون في الآثار بل منها ما لا تعرف حتى مواقعها الآن فمن العواصم نذكر بالخصوص تاهرت أو تيهرت الجديدة التي أسسها عبد الرحمن بن رستم أثناء القرن الثالث الهجري (التاسع للميلاد) وأشير التي أسسها زيري بن مناد الصنهاجي أثناء القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) وقلعة بني حماد التي أسسها حماد بن بلقين الصنهاجي في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والناصرية أو بجاية التي أسسها الناصر بن علناس (أعلى الناس) الحمادي في أواخر القرن نفسه وسدراتة العاصمة الثانية لبني رستم بالصحراء بعد انقراض دولتهم بتيهرت.

وهناك مدن عديدة قد أصابها ما أصاب هذه العواصم من الهدم والتخريب بحيث أنها خلت من السكان واندثر كل ما كان بها من عمران ومن تلك المدن فلنذكر على الخصوص طبنة الواقعة قرب بريكة الحالية وحمزة (البويرة الآن) ومتيجة أو قزرونة (البليدة الآن) والخضراء (عين الدفلة الآن) وشلف (الأصنام الآن) وتاجنة التي كانت بالقرب من تنس وتاهرت القديمة[1] والعباسية التي كانت بالقرب منها والبطحاء التي كانت قرب غليزان الحالية وتاسالة الواقعة في سفح الجبل الذي سميت باسمه من ناحية سيدي أبي العباس وهناك مدن اندثرت لا نعرف حتى مواقعها بالضبط كقصر عجيسة ومرسى الدجاج والجباة وغيرها مما يطول سرده.

---

(1) تاهرت مدينتان: قديمة وجديدة (أنظر كتابنا «الدار الوقاد» ص 19 وما يليها).



59- أطلال مسجد أبي إسحاق الطيّار بالعبّاد السفلي



60- الطريق القديم المؤدي إلى قرية العبّاد وهنالك أطلال سور قديم.
نلاحظ زي اللباس القديم لا سيما منه زي حجاب نساء تلمسان

61 – المنصورة : مشهد جوي لما بقي من المدينة

وفي ناحية تلمسان اندثرت عدة مدن منها أرشغول التي كانت على الضفة اليسرى من نهر تافنة وتبعد عن البحر بنحو ميلين وهنين: مرسى تلمسان في العهد الزياني وتبحريت التي كانت كما يدل عليه اسمها على شاطئ البحر بقرب الغزوات وتاونت التي كانت قرب مرسى الغزوات والقصبة التي كانت بالقرب من قرية أولاد الميمون الحالية وكذا عين تالوث القريبة منها وغيرها من المدن والقرى المندثرة.

وتلمسان نفسها قد اندثرت بها ثلاثة مدن أولاها أقادير أو تلمسان القديمة وثانيتهما العباد الذي كان يشمل العباد السفلي (ص: 59و 60) والعباد الفوقي وثالثتها المنصورة أو تلمسان الجديدة (ص: 61).

ويرجع اندثار هذه العواصم والمدن والمراسي إلى عدة أسباب رئيسية منها:

أ- تخريب وتدمير ما بناه الأعداء كما فعل بنو رستم بمدينة العباسية التي بناها بنو الأغلب بالقرب من عاصمتهم.

ب- نزوح بني هلال وبني سليم وأخلافهم إلى المغرب أثناء، القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وما نتج عن ذلك النزوح من تخريب الأمصار والعبث فيها حتى أنهم تركوها كما قال عبد الرحمن بن خلدون:» قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن وأوحش من جوف العير».

ج- الحروب والفتن التي أثارها بنو غانية من المرابطين بعد استيلائهم على بجاية عام 580 هـ (1185م) وانتزاعها من يد الموحدين وما نتج عن ذلك من الهدم والتدمير أثناء الغارات التي كانوا يشنونها على أعدائهم ومن جملة ما خربوه وهدموه تيهرت القديمة التي امتد عمرانها إلى أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وقد دامت تلك الغارات طيلة حكم الموحدين للمغرب الأوسط أي نحو المائة سنة حتى أن يغمراسن بن زيان لما أعلن استقلاله بالمغرب الأوسط لم يجد به مدينة قائمة يجعل منها عاصمة لملكه ما عدا تلمسان التي كانت هي المدينة الوحيدة التي سلمت من الخراب والدمار لبعدها عن مواطن الحروب والغارات ولحصانتها ومتانة أسوارها.

د- هجوم الأسبان على المدن الساحلية ابتداء من أوائل القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلاد) وتخريبها على أيديهم كما فعلوا في بجاية ووهران وهنين وغيرها من المدن الساحلية.

ويضاف إلى هذه الأسباب الأربعة الرئيسية سبب خامس وهو ما قام به الاستعمار الفرنسي من الهدم والتخريب لتلك البقية أثناء الاحتلال ومقاومة الجزائريين له وكذا ما فعله بعد الاحتلال لما شرع في فتح الطرق العريضة والساحات العمومية وتعويض الأبنية القديمة بأبنية جديدة ذات طابع أوربي محض ولذلك فإن تلمسان هي المدينة الوحيدة من بين المدن الجزائرية القديمة التي على ما أصابها من حروب وفتن احتفظت ببعض آثارها العتيقة من جوامع ومساجد وضرائح ذات قيمة تاريخية وفنية قصوى.[1]

(1) نعم توجد منشآت ذات قيمة تاريخية وفنية في الجزائر العاصمة وقسنطينة وغيرهما ولكن جلها راجع للعهد التركي لا قبل.

أسوار تلمسان (العتيقة والحديثة)

(الخريطة رقم: 5)

تقدم لنا في القسم التاريخي أن تلمسان مدينتان: أقادير وتقرارت وأن السلطان يغمراسن بن زيان لما استقل بالحكم في المغرب الأوسط جعل منها عاصمة له بعد أن جميع بين المدينتين (الخريطة) وصيرهما مدينة واحدة يحيط بها سور واحد وقال بعض المؤرخين: إن تلمسان كان يحيط بها سوران أي سور داخلي وسور خارجي وأن المسافة بين السورين لم تقل عن ثلاثة مائة مترا وأن المساحة التي بين السورين لم يكن بها من البنيان إلا الأبراج المعدة لمقاومة العدو والدفاع عن المدينة حين حصاره لها وبعد هذا الاستنتاج عرض لنا مشكلان:

أ– ما هو عدد أبواب السور الداخلي وما هي أسماؤها؟

ب– ما هو عدد أبواب السور الخارجي وما هي أسماؤها؟

وبعد البحث والتنقيب في النصوص التا ريخية وفي الأثار الباقية خرجنا بالنتائج التالية: قال يحي بن خلدون في كتابه: «أبغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد» ما نصه: «ولها خمسة أبواب قبلة باب الجياد[1] وشرقا باب العقبة وشمالا باب الحلوى وباب القرمدين[2] وغربا باب كشوط. وهي مؤلفة من مدينتين ضمهما الآن سور واحد». وقال الملك أبو الفداء في كتابه «تقويم البلدان»: «لتلمسان ثلاثة عشر باب» فالأول منهما مغربي تلمساني الدار والوفاة والثاني مشرقي لم يزر المغرب و لم يعرف تلمسان وإنما كان يستقي الأخبار عن غيره لكنه كان يبذل الجهد في تصحيحها وتحقيقها وهما متعاصران ولذا فإن كلا منهما غير مخطئ فيما قاله عن تلمسان فالأول اكتفى بذكر الأبواب الكبيرة والثاني ذكر الأبواب جميعها الكبيرة منها والصغيرة من دون تفصيل ولا بيان لأسمائها وقبلهما قال أبو عبيد البكري في كتابه «المسالك والممالك» عن أقادير أو تلمسان القديمة: »ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة باب الحمام وباب وهب وباب الخوجة وفي الشرق باب العقبة وفي الغرب باب أبي قرة مع علمنا أنه لم يذكر بابا سادسا وهو باب الأرواح الذي –يالها من مهلة للقدر– لا يزال قائما إلى يومنا هذا وموقعه بالجدار الشمالي من السور القريب من حي القصارين وأما تقرارت أو تلمسان الحديثة فإن سورها القديم بقي قائما إلى ما بعد عهد الاحتلال الفرنسي وأبوابه معروفة: ثلاثة في الشمال، باب القرمدين وباب سور الحمام[3] وباب الحلوي وثلاثة في الشرق، باب زير السويقة أو باب السجان[4]

---

(1) الجياد جمع جواد وهو الفرس السريع وسمي بهذا الاسم لقرب اصطبل السلطان منه وكان هذا الباب قرب واد مشكانة وجدار بيت الريش من جدارن أحد أبراجه.

(2) لا يزال هذا الباب بأبراجه إلى يومنا هذا قرب حي قباصة.

(3) كان هذا الباب على يسار باب سيدي البراذعي الحالي

(4) باب سيدي أبي مدين الحالي

وباب الربط[1] (الربض في الأصل) وثلاثة في القبلة: باب الجياد وباب تقرقرت[2] وباب الحديد (وبين باب تقرقرت وباب الحديد يوجد باب رابع كان معروفا بباب التويتة لا يعد من أبواب المدينة لأنه كان خاصا بالدخول للمشور فقط) وبابان في الغرب: باب كشوط أو باب الجغليلة[3] وباب سقا[4] ومجموع هذه الأبواب إحدى عشر بابا فإذا ضممناهـا إلى أبواب أقادير الستة صار مجموعها سبعة عشر بابا فإذا طرحنا من هذا العدد الأربعة التي هدمها يغمراسن حينما جمع بين المدينتين بهدم سور أقادير وسور تقرارت الشرقي إذ انهدم مع السورين باب أبي قرة من جهة وباب زير وباب السويقة وباب الربط من الجهة الأخرى فبقيت ثلاثة عشر بابا وهو العدد الذي قال به الملك أبو الفداء ومما يؤكد هذا القول هو أن يحي بن خلدون نفسه علاوة على الأبواب الخمسة المذكورة بأسمائها في كتابه قد ذكر في مواضع أخرى من نفس الكتاب أسماء أبواب أخرى كباب زير وباب الحديد وغيرهما من الأبواب المعدودة في إحصاء أبي الفداء ومما هو جدير بالملاحظة أن السورين المهدومين كانا متقاربين جدا فقد ورد في «معجم البلدان» لياقوت الحموي ما يلي: « إن تلمسان مدينتان مسورتان لا يبعد أحد السورين عن الآخر إلا بقدر مرمي حجرة».

وفيما يتعلق بالسور الثاني أي السور الخارجي فان ابن واضح العقوبي صريح في كتاب «البلدان» بأن تلمسان أي أقادير كان يحيط بها سوران وأما تقرارت فإن بعض جدران سورها الخارجي –وإن لحقها التخريب– فإنه لا يزال قائما إلى يومنا هذا: البعض منها بالقلعة السفلى والواقعة جنوب المدينة[5] والبعض الآخر بحي الكيس الواقع غرب المدينة.

وهنا عرض لنا المشكل الثاني أي ما هي أبواب السور الخارجي وما هي أسماؤها وبعد البحث والتنقيب خرجنا بالنتائج التالية: وهي أن السور الخارجي كان له خمسة أبواب مقابلة للخمسة أبواب الكبيرة من السور الداخلي ومن تلك الأبواب: بابان ذكرهما أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي في إحدى قصائده التي أنشدها في وصف تلمسان: الباب الأول منها كان يسمى باب الرجاء كان يقابل باب الجياد وهو واقع على الطريق المؤدية إلى قرية العباد وهذا الباب قد أشار إليه الشاعر المذكور بقوله: عن ذلك (الكامل):

عرج بمنعرجات باب جيادهـــــــــا وافتح به باب الرجاء المقبـــــــــــل[6]

والباب الثاني كان يسمى باب الملعب وكان وسطا بين باب كشوط وباب الحديد وهو واقع على الطريق المؤدية إلى المنصورة وقد أشار الشاعر نفسه إلى هذا الباب بقوله في القصيدة عينها: (الكامل):

---

(1) عند منتهي نهج الأخوين ابن الشقراء

(2) البويبة الآن

(3) باب سيدي أبي جمعة الآن

(4) قرب باب وهران الحالي

(5) ومنها ما يحيط بمقبرة النصارى ويتجه نحو واد مشكانة.

(6) «بغية الرواد» ليحي بن خلدون ص 16.

فإذا دنت شمس الأصيل لغربهـــــا   فإلى تلمسان الأصيلة فأدخـــــــل

من باب ملعبها لباب حديدهـــــا   متنزها في كـل حفل أحفـــــــل[1]

ومن المعلوم أن الملعب كان على يسار الطريق الذاهبة إلى المنصورة وأن الآتي مع هذا الطريق له الخيار بين الدخول إلى تلمسان من باب كشوط أو باب الحديد إذا كان محل سكناه قريبا منه.

والباب الثالث كان يسمى باب أصيلان[2] وكان يقابل باب القرمدين وهو واقع على الطريق المؤدية إلى الحنايا وقد نص على هذا الباب يحي بن خلدون في حديثه عن المعركة التي وقعت بين السلطانين العبد الواديين أبي سعيد وأبي ثابت وبين ابن جرار من قواد بني مرين قال: «والتقى الجمعان بسكاك إزاء جمعة العز عند ملتقى نهري الصفصيف ويسر... إلى أن قال: واستمر السلطانان بإثر المنهزمين إلى البلد فدخلوا عليهم باب أصيلان..» ولا شك أن القادم من موطن المعركة المذكورة لابد له من المرور على طريق الحنايا والدخول إلى تلمسان من ذلك الباب[3].

والباب الرابع هو باب الزاوية وموقعه معروف ويقابل باب الحلوي من السور الداخلي ولا يزال مكانه وما حوله يدعى بهذا الاسم إلى يومنا هذا وإن اندثر الباب و لم يبق له أثر ما ومنه يتوجه إلى بساتين المنية.

والباب الخامس هو باب العزافين وكان يقابل باب العقبة وهو واقع على الطريق المؤدية إلى نهر الصفصيف وقد نص ابن مريم صاحب « البستان» على هذا الباب في حديثه عن أشياخ سيدي علي بن يحيى السلكسيني الجادري قال: »واسم ذلك الرجل سيدي عيسى وصار يقرأ عليه سيدي علي وهو من أشياخ سيدي علي ودفن في باب العزافين[4] رضي الله عنه[5] مع علمنا بأن مقبرة أقادير الأولى كانت حول ضريح سيدي الدوادي القريب من باب العقبة.

فوجود السور الثاني أي السور الخارجي يحل لنا مشكلة ثالثة ألا وهي مقاومة أهل تلمسان لبني مرين تلك المقامة العنيفة الطويلة التي دامت ثمانية أعوام وبضعة أشهر وذلك أن أهل تلمسان كانوا يستغلون المساحة الواقعة بين السورين بالزراعة وتربية المواشي وهي مساحة ليست بالقليلة إذا اعتبرنا مسافة دائرة السورين حيث أن السور الداخلي كان يمتد من باب العقبة شرقا[6] إلى باب كشوط غربا وأن السور الخارجي كان يمتد من باب العزافين شرقا إلى باب المعلب غربا وأن المسافة بين السورين كانت تتراوح بين الثلاثة مائة والخمسمائة مترا حسب انحفاض الأرض وارتفاعها في مختلف الجهات المحيطة بالمدينة ولانه لا يمكن ادخار المؤن والأقوات لهذه المدة كلها من غير أن تصاب بالتعفن والفساد ولأننا لا

---

(1) نفى المصدر، ص 16.

(2) الإدريسي يسميه آسلان ويقول عنه «ومن مصب الوادي (تافنة) إلى حصن آسلان أربعة أميال» (وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ص112 طبع الجزائر 1376هـ (1957م) وهو جزء من «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الادريسي).

(3) «بغية الرواد»: المجلد الأول، ص 148 طبع الجزائر 1321هـ (1903م).

(4) في بعض النسخ بالباء والصواب ما قلناه.

(5) «البستان» لابن مريم، ص 146 طبع الجزائر 1327هـ (1908م).

(6) باب العقبة كان العزايين يسمي أيضا ياب أقادير وباب سيدي الدوادي لقربه من ضريحه.

نعرف – حسب ما في علمنا تاريخيا– أن مدينة أخرى محاصرة غير تلمسان قاومت العدو مدة مثل هذه المدة فمن أجل ذلك كله نستنتج أن بني زيان خصوصا وأهل تلمسان عموما ما استطاعوا أن يقاوموا بني مرين المحاصرين لهم تلك المدة كلها إلا بفضل استغلالهم لتلك المساحة التي بين السورن والتي – وإن كانت جديرة بالاعتبار– لم تكن كافية لتموينهم لمثل تلك المدة التي ليست بالقصيرة ولذلك نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم كما يقول عنهم عبد الرحمن بن خلدون الذي يضيف قائلا: «وغلت الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه».[1]

(1) «كتاب العبر» لعبد الرحمن بن خلدون ج 7 ص 95 طبع بولاق 1284هـ .

أقادير أو تلمسان القديمة ومعالمها

قد اندثرت هذه المدينة تماما و لم يبق منها إلا جزء من الأسوار وباب الأرواح في جهتها الشمالية وصومعة الجامع العتيق (ص:18) التي بناها السلطان يغمراسن هي وصومعة الجامع الكبير: (ص:19) في آن واحد وهي شبيهة بها لا من حيث الوضع فحسب بل من حيث الزخرفة كذلك أما الجامع المشيد قبلها بنحو الخمسة قرون أي في عهد الأدارسة فلم يبق منه شيء قائم إلا ما ذكرناه في القسم التاريخي من الحفريات المجراة مكانه وما نتج عنها. وأول جامع شيد باقادير هو الجامع الذي بناه موسى بن نصر لما قدم إلى تلمسان في طريقه إلى المغرب الأقصى عام 89هـ (708م) وهذا المسجد لا نعرف موقعه الآن ومن معالم أقادير كذلك ضريح الإمام أبي جعفر أحمد بن نصر الداودي المتوفي عام 402هـ (1011م) الواقع تحت باب العقبة وكذا ضرائح الاميرات (ص:62) وسيدي وهاب (ص:63) وسيدي يعقوب (صورة:59 و 60 و 61) وبالقرب من ضريح هذا الأخير من جهة القبلة لا تزال رسوم محراب بارزة ولعلها رسوم محراب لمسجد كان بهذا المكان واندثر فيما بعد.

ملاحظة: إن النصوص التاريخية تذكر أبوابا أخرى لتلمسان غير الأبواب التي تحدثنا عليها كباب البنود وباب القيسارية وباب إيلان[1] وباب تازة[2] وباب الصرف وباب علي[3] وباب امزتجمي[4] لكنها فيما يظهر من فحوى تلك النصوص وسياق الكلام أنها أبواب أحياء ما عدا الأول منها فهو باب القصر البالي وكان مقابلا لمسجد أبي الحسن والثاني منها هو باب السرق بإسم ((القيسارية)) التي كانت تشمل مكان سور الخضر والفواكه الحالية مع ما حولها جنوبا وغربا.

(1) كان هذا الباب جنوب الكنيسة بنهج بابل الحالي.

(2) كان هذا الباب بنهج الاستقلال الحالي ومنه كان الدخول إلى حي اليهود والتوجه إلى المشور.

(3) كل من باب الصرف وباب علي مجهول الموقع لكن حي باب علي لا يزال معروفا إلى يومنا هذا.

(4) وهذا الباب مجهول الموقع أيضا لكن الظاهر أنه كان قريبا من باب زير.

62- ضريح الأميرات بحي سيدي يعقوب

63- ضريح سيدي وهاب: صحابي من الفاتحين رضي الله عنه



64- ضريح الشيخ السنوسي بمقبرة تلمسان

جوامع ومساجد تلمسان التي لا تزال قائمة [1]

(الخريطة رقم:6)

كان بتلمسان فيما سلف من الزمان عدة جوامع ومساجد البعض منها لا يزال قائما والبعض الأخر – وهو الأكثر – قد اندثر.

فالجوامع التي لا تزال قائمة أربعة: الجامع الأعظم أو االكبير، وجامع سيدي إبراهيم المصمودي وجامع سيدي أبي مدين بقرية العباد وجامع سيدي الحلوي وهذه الجوامع الأربعة تقام بها صلاة الجمعة وصلاة العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى وهاتان الصلاتان كانتا تؤديان بالمصلى الواقع بين الحرطون والعباد الفوقي وكان ذلك قبل الاحتلال الفرنسي لتلمسان.

ثم لابد أن نضيف هنا أي إلى هذه الجوامع القديمة الأربعة ثمانية عشر جامعا حديثة العهد بنيت في جميع أحياء تلمسان منذ عهد الاحتلال إلى يومنا هذا عندما توسعت المدينة وكثرت البناءات والعمارات بها في كل حي من ضواحيها فلما تعدد سكان الحي وبعدوا عن وسط المدينة توجب عليهم بناء جامع لحيهم الجديد فقاموا بأنفسهم[2] في الحين ببناءه وبذلوا كل ما في وسعهم لتشييده، وتبرعوا بأموال باهضة في ترفيهه وقد تنافسوا في إعطائهم لجامعهم بهجة وجمالا ورونقا خاصا حتى يصبح أحسن من غيره في الأحياء الأخرى وتفننوا في نقش واجهة وقبة محرابه متمسكين في هذا البناء بالهندسة القديمة العربية الأندلسية لا سيما في بناء المئذنة وإعطائها تشبها بمئذنة سالفتها مئذنة سيدي أبي مدين ونستطيع أن نقول – قبل ذكر أسماءها – أن هذه الجوامع الحديثة خلفت ما اندثرت وأعادت لتلمسان مكانتها الدينية المرتفعة التي يشهد لها التاريخ نفسه (ص:65) جعل الله عزوجل تلك الجوامع عامرة بتقوى الله في كل أوقات الصلوات الخمس مثلما هي عامرة في وقت صلاة الجمعة حتى تصبح مدينة تلمسان يعطي لها إسم «المدينة ذات عشرات المآذن»[3] مثلما أطلق عليها اسم «المدينة ذات آلاف الينابيع».

وهذه الجوامع الحديثة العهد هي: (5) «دار الحديث» و(6) «جامع السنة» بحي المحطة و(7) جامع حي أقادير و(8) «جامع ابن يلس» بحي رياض الحمار و(9) «جامع الشيخ السنوسي» بحي عين وازوتة و(10) «جامع أبي عبيدة بن الجراح» بحي القلعة، و (11) «جامع ابن مرزوق الجد» بحي بئر وانة و(12) «جامع أبي ذر الغفاري» بحي بوذغن و(13) «جامع الشريف أبي عبد الله» بحي الكرز و(14) جامع

---

(1) إن وصف زخرفتها جله معرب من كتاب «الآثار العربية بتلمسان» لوليام وجورج مارسي باختصار.

(2) ما عدا ثلاثة منها التي بنيت من طرف شخص واحد وهي:
أ – جامع ابن يلس بحي رياض الحمار وذلك من طرف الحاج أحمد العشعاشي (رقم:8).
ب– جامع حي فدان السبع وذلك من طرف الحاج مصطفى العشعاشي (رقم: 20).
ج – جامع عمر بن عبد العزيز بحي عين الكلب وذلك من طرف الحاج عبد المجيد العشعاشي (رقم: 19) وهو في الانجاز.

(3) عددها الآن 33 مئذنة منها: 21 للجوامع (باستثناء «دار الحديث») وتسعة لمساجدها وثلاثة (3) واقفة بدون جامع ولا مسجد وهي مئذنة جامع منصورة ومئذنة الجامع العتيق بحي أقادير ومئذنة جامع سيدي انجاصي بطريق العباد أمام ثانوية «يغمراسن».

حي الهواء الطلق و(15) جامع «المصلى» بحي ماخوخ و(16) جامع حي إمامة و(17) جامع حي الكيفان القديم و(18) جامع «ابن الجزار القيرواني» بحي الكيفان الجديد و(19) جامع «عمر بن عبد العزيز» بحي عين الكلب و(20) جامع «الفتح» بحي فدان السبع و(21) جامع «عثمان بن مذعر» بحي سيدي الحلوي الجديد و(22) جامع «عمر بن الخطاب» بحي رياض الصفار تحت قرية العباد.

وأما المساجد التي لا تزال قائمة فعددها أربعة وعشرون مسجدا وهي: (1) مسجد سيدي البناء بالقيسارية، (2) ومسجد سيدي السنوسي بدرب مسوفة (ص:15) و (3) مسجد لالة الغربية بحي القرآن الكبيرة و (4) مسجد الشرفاء بنهج ابن خلدون و (5) مسجد سيد اليدون بحي المدرس و (6) مسجد سيدي الجبار بحي باب علي و (7) مسجد باب زير و (8) مسجد سيدي الحسن بن مخلوف (لكنه مخرب الآن ما عدا مئذنته و (9) مسجد سيدي يعقوب و (10) مسجد سيدي القلعي و (11) مسجد لالاة الرؤيا و (12) مسجد ابن مرزوق (أو الكرمة) و (13) مسجد سيدي حامد و (14) مسجد درب القاضي و (15) مسجد سيدي الوزان و (16) مسجد المشور الذي حول إلى كنيسة في عهد الاحتلال و (17) مسجد أبي الحسن المحول إلى متحف وهو أبدع مساجد تلمسان و (18) مسجد سيدي زايد بدرب الحجامين و (19) مسجد لالأة الغريبة تحت درب السن و (20) مسجد أولاد الإمام و (21) مسجد سيدي أبي عبد الله[1] و (22) مسجد سيدي إبراهيم الغريب[1] و (23) مسجد سيدي زكري[1] و (24) مسجد سيدي شاكر بنفس الحي[2].

وهذه المساجد تقام بها الصلوات الخمس ويعلم بها القرآن الكريم للصبيان وفيما يلي وصف الجوامع القديمة الأربعة ووصف بعض المساجد[3].

(1) توجد المساجد الثلاثة (21) و (22) و (23) في الناحية العالية من نهج الحكيم دمرجي.

(2) يوجد كذلك مسجدان بحي بودغن.

(3) أورد الأستاذ لكوك في كتابه: «تلمسان» ص 226 قائمة الجوامع والمساجد التي كان لها أوقاف في عهد الاحتلال منها تسعة لا تزال قائمة وعشرة قد اندثرت تماما.

أسماء أصحاب الصورة[1] رقم: 65
أعضاء السلك الديني (سنة 1937)
(من اليمين إلى اليسار)

1 - الجالسون في الصف الأمامي:

الغوثي بن طالب سي عبد القادر قاراجا، سي محمد دقموس، عبد القادر بوعنان، الحاج عبد القادر بن دالي يوسف، سي الغوثي حجاج، سي صالح بوكلي حسن.

2 - الجالسون في الصف الثاني (أمام المكتب):

المدرومي، الشهيد سي جلول بن عصمان، الحاج حميدى حجاج (أصبح مفتي فيما بعد)، الكفيف ابن اعمر بن عصمان، سي مصطفى بوبكر، الكفيف سي محمد بوشناق بوكلي حسن.

3 - الواقف على يمين المكتب: ؟ ؟

4 - الجالسون على يسار المكتب:

سي عبد الله بن شايب الدراع، والمذكور آنفا سي مصطفى بوبكر، وسي الهامشي معطى الله.

5 - الجالسان وراء المكتب: (على الكوسي)

المفتي: سي الغوثي مزيان، وسي مولاي أحمد مزيان.

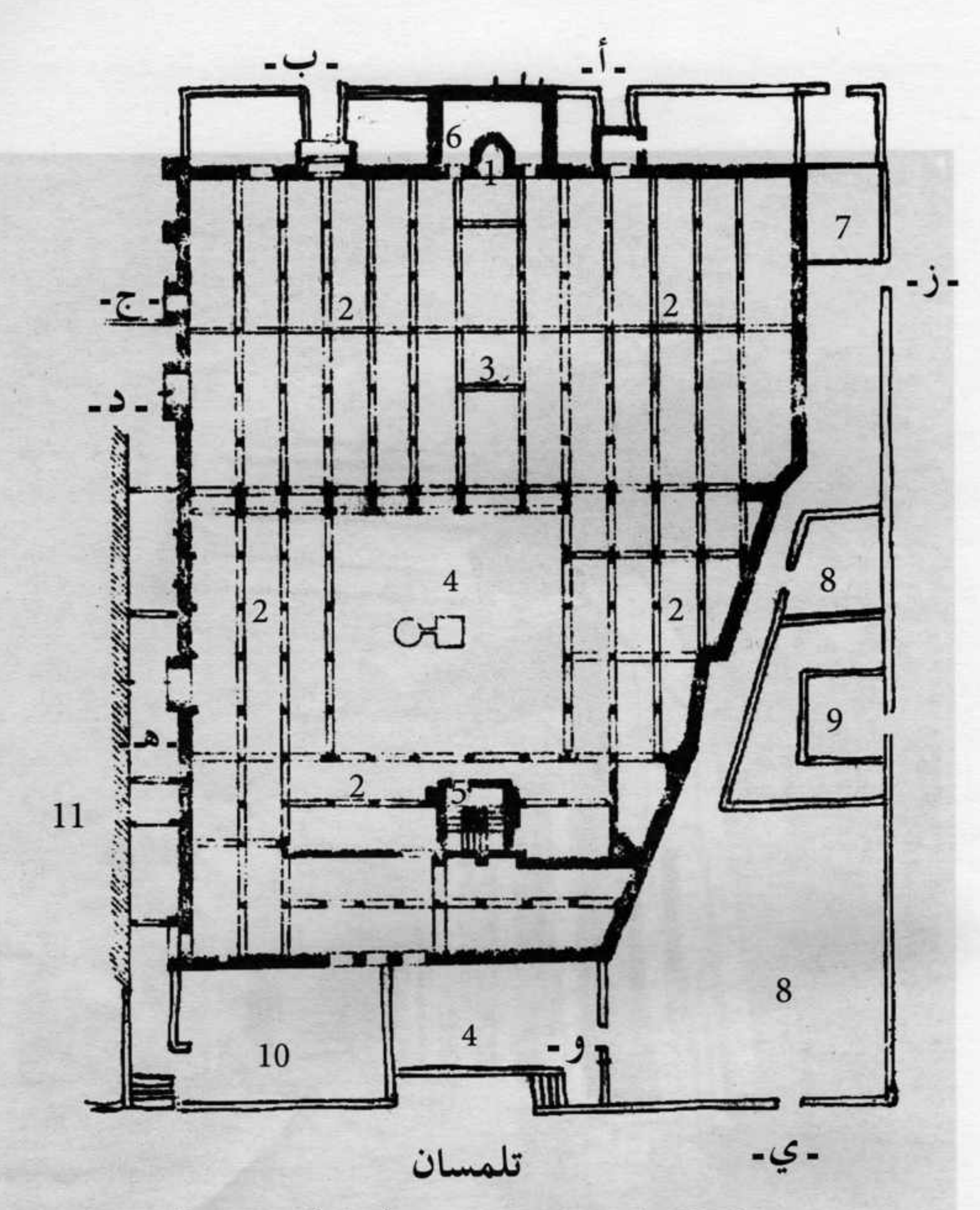
6- الواقفون وراء المكتب:

سي الهبري سماحي، سي الغوثي بن عصمان، سي محمد مرابط، الحاج عبد الرحمن بن احمدان (قد أصبح قاضيا بعد الاستقلال) والحاج هاشمي ابن عزة (أصبح مفتي فيما بعد) وسي نور الدين مزيان، وسي البشير مزيان وسي عبد القادر إبرير.

(1) أخذت هذه الصورة داخل مكتب المفتي سنة 1937(هذا المكتب يقع بجانب الجامع الكبير).



65- صورة لرجال سلك الديني أخذت سنة 1937 بمكتب المفتي



رسم رقم 1 : تلمسان رسم المسجد الأعظم أو الجامع الكبير

داخل الجامع

1- المحراب
2- قاعة الصلاة
3- الثرايا الكبرى
4- الصحن
5- المئذنة

خارج الجامع : ملحقاته

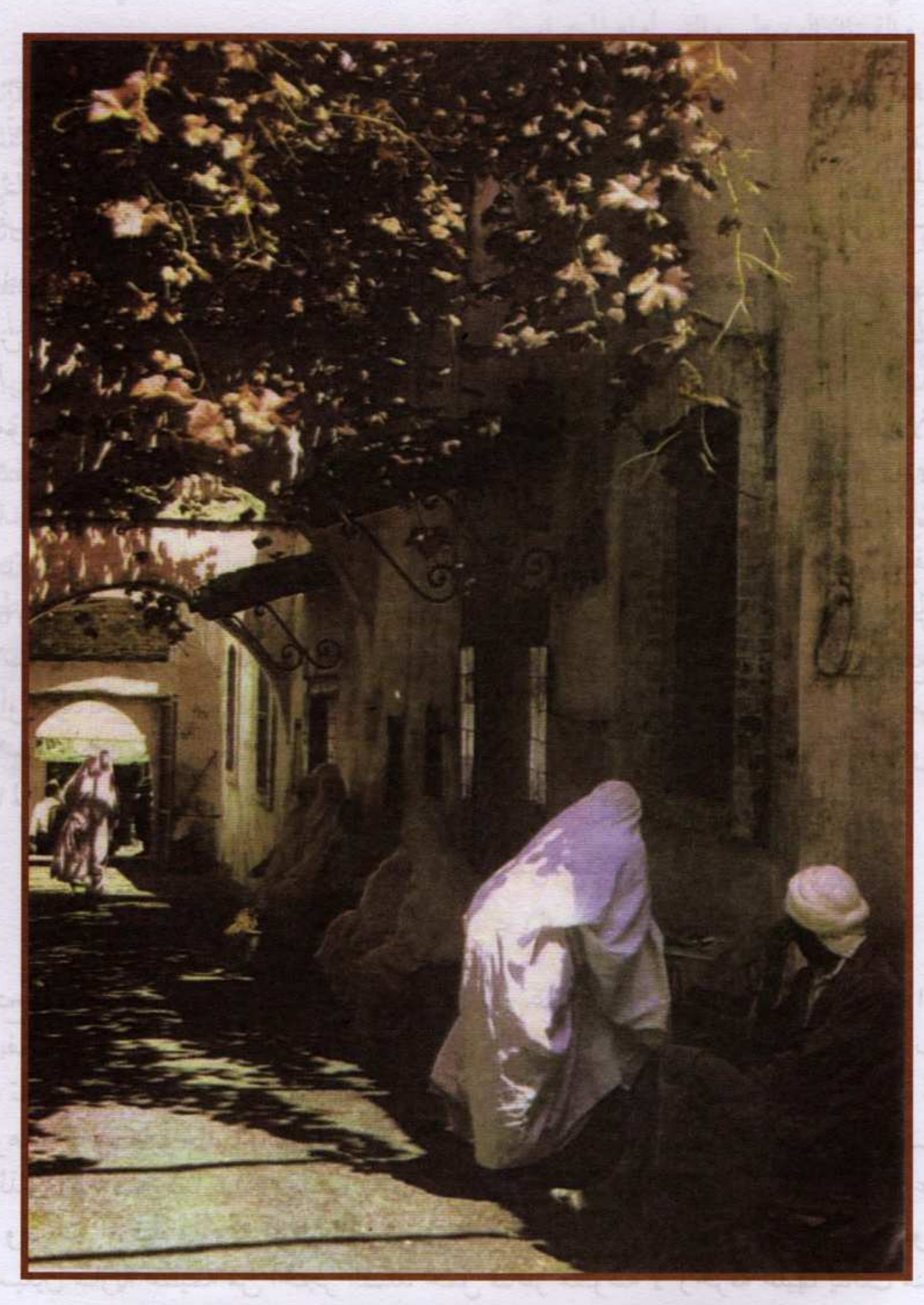
6- مقصورة الامام
7- ضريح ابن مرزوق الحفيذ
8- محل الوضوء
9- مقصورة المفتي
10- المحكمة
11- ضريح سيدي أحمد بن الحسن الغماري

أبواب الجامع الثنانية

أ- باب ابن مرزوق
ب- باب الجنائز
ج- باب الخرازين
د- باب المساكين
هـ- باب سيدي أحمبد بن الحسن
و- باب النساء
ي- باب سيدي صعد
ز- باب القصر



66- نرى الناحية الشرقية من دربة سيدي أحمد بن الحسن المغماري ومدخل ضريحه



67- نرى الناحية الغربية من نفس الدرب

الجامع الأعظم أو الكبير

يوجد هذا الجامع بوسط المدينة وهو بناء مستطيل الشكل طوله ستون مترا وعرضه خمسون مبيض بالجير وتعلوه قبتان مغطى سطحهما بقرمود أخضر اللون ومئذنته عالية ذات أربعة أوجه يبلغ ارتفاعها خمسة وثلاثين مترا وهي من بناء السلطان يغمراسن بن زيان بخلاف الجامع الذي شيده أمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني كما هو مسطر في القسم التاريخي ثم أتمه الموحدون بعد استيلائهم على تلمسان.

لهذا الجامع (الرسم رقم:1) ثمانية أبواب ثلاثة منها في القبلة: باب ابن مرزوق وسمي بهذا الاسم لقربه من ضريحه وكان فيما قبل يدعي باب المدرسة التاشفينية لقربه من بابها، وباب الجنائز وهو خاص برجال الدين من أئمة ومؤذنين وقيمين وهو يؤدي إلى بيت خلف المحراب وهي بهذا الاسم لأن الأموات يدخلون منه للصلاة عليهم يوم الجمعة خاصة بعد أداء الفريضة وباب الضحية لأن الإمام يذبح ضحيته يوم العيد بالقرب منه عملا بالقاعدة المعلومة «لا تذبحوا قبل أن يذبح الإمام» وثلاثة أبواب أخرى في الشرق: باب الخررازين لقربه من دكاكينهم وهذا الباب هو أهم أبواب الجامع وباب دار المساكين لأنه يقابل باب ملجأ الشيوخ والعجزة المساكين وباب سيدي أحمد بن الحسن الغماري (ص:66 و 67) لأنه يقابل ضريحه وكان للجامع في هذه الواجهة باب رابع وهو باب سوق الغزل سمي بهذا الاسم لقربه من تلك السوق وكان يقال له باب النساء أيضا لأنهن كن يدخلن إلى الجامع منه يوم الجمعة أو العيد لكن هذا الباب حول إلى باب المحكمة الشرعية التي هي جزء من الجامع انتقص منه في عهد الاحتلال الفرنسي وله باب واحد في الشمال وهو باب ابن صعد إذ هو يقابل مقامه وفي مدح هذا العالم الجليل يقول بعض فضلاء الأندلس وهو محمد العربي الغرناطي: (مجزوء الرجز):

إذا جئت لتلمسان	فقل لصنديدها ابن صعد
علمك فاق كل علم	مجدك فاق كل مجد[1]

وهنا نفتح قوسين لنقول: (كانت الضرائح والمقامات تبنى على قبور العلماء العاملين وأولياء الله الصالحين اعترافا بفضلهم وتخليدا لذكرهم[2] وقد عوض ذلك بالتماثيل في عصرنا هذا اقتداء بأهل الغرب حينما يريدون تخليد أسماء عظمائهم). وللجامح في الغرب باب واحد أيضا وهو باب دار الإمارة أو القصر القديم وهذا الباب كان خاصا بالسلطان وحاشيته في أيام الجمع والأعياد إذ الجامع كان ملتصقا بذلك القصر الذي شيد قبله كما تقدم ويشتمل الجامع الأعظم كغيره من جوامع تلمسان الكبيرة على قاعة الصلاة وصحن أو فناء وأروقة تحيط بالصحن ومئذنة أما قاعة الصلاة فهي بيت فسيح يحتوي على اثنين وسبعين سارية عظيمة من الحجر الصلد تحمل قناطر مقوسة لا زخرفة عليها يتألف منها ست

(1) «البستان» لابن مريم ص 253 طبع الجزائر 1326هـ (1908م).

(2) ومما يؤيد قولنا هذا أن ابن صعد غير مدفون هناك حيث أنه توفي بمصر عام 901هـ (1496م) وأنه جعل له ضريح رمزي لا غير ومثل هذا يقال كذلك في ضريح محمد بن أحمد الحباك الكائن بدرب سلسلة.

بلاطات وثلاثة عشر رواقا أوسعها الرواق الأوسط الذي جعل المحراب والقبان فيه وهذا الرواق هو أجمل ما في هذه القاعة لما يحتوي عليه من النقوش الجبسية المحفورة والبارزة التي زخرف بها إطار المحراب والقبتان الوسطى والتي أمام المحراب[1].

أما القبة الوسطى فإنها مزخرفة بتخاريم عريضة تلمع لمعانا وأما القبة التي أمام المحراب فإنها بيت على الشكل الكثير الأضلاع وألفت صفحاتها من عدة قناطر صغيرة متتالية كل قنطرة تحتوي على ثلاثة أجزاء، ووشيت القناطر المجتمعة في الزوايا بتماثيل مدلاة شبيهة بالتماثيل المائية المتحجرة التي تتدلى في الكهوف والمغارات وفي رأس القبة ترى أقواس ضيقة تشتبك اشتباكا عجيبا حاملة لصفحات تلمع لمعانا وقد وضعت هذه القبة على كوس مربع الشكل يحتوي على إفريز نقش في حفريته العريضة بخط أندلسي أنيق مايلي: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليما هذا مما أمر بعمله الأمير الأجل... أيد الله أمره وأعز نصره وأدام دولته وكان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن بن علي أدام الله عزهم فتم في شهر جمادى الأخير عام ثلاثين وخمسمائة» والجدير بالملاحظة أن اسم الأمير الذي أمر بهذا العمل الجليل قد كشط ومحي لكن الكاشط الماحي غفل عن كشط ومحو التاريخ الذي هو 530هـ وهكذا أبى التاريخ إلا أن يعترف لذوي الفضل بفضلهم وأمكن معرفة اسم القائم بهذا العمل وهو أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني الذي كانت تلمسان من جملة ولاياته في ذلك العهد والظاهر أن الآمر بالكشط والمحو هو أحد خلفاء الموحدين الذين خلفوا المرابطين في الحكم وأتموا بناء الجامع.

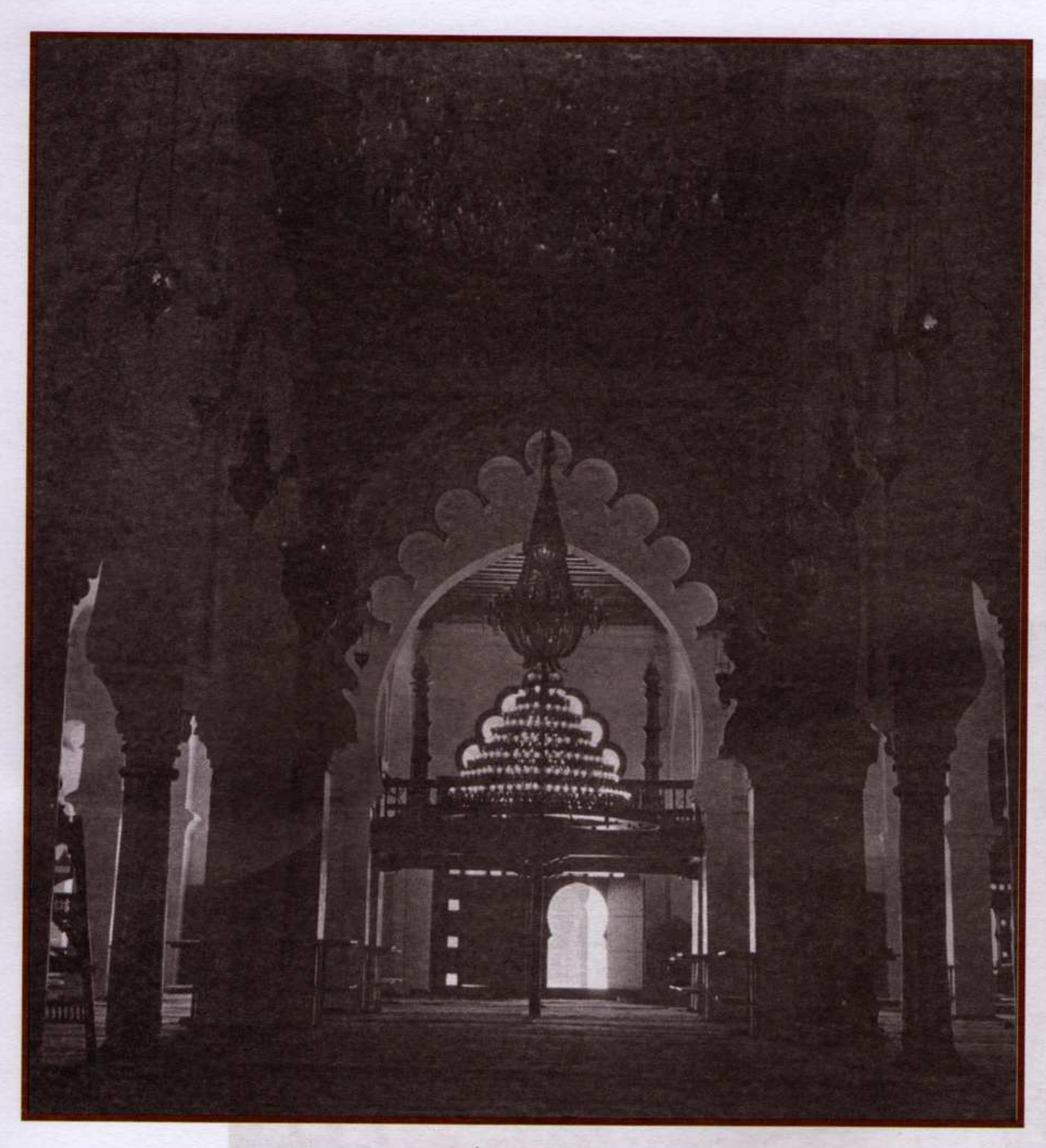
(1) مما تجدر ملاحظته أن هذا المحراب كبقية محاريب جوامع تلمسان ومساجدها أكثرها موجه للجنوب بدلا من الجنوب الشرقي الذي هو جهة القبلة.



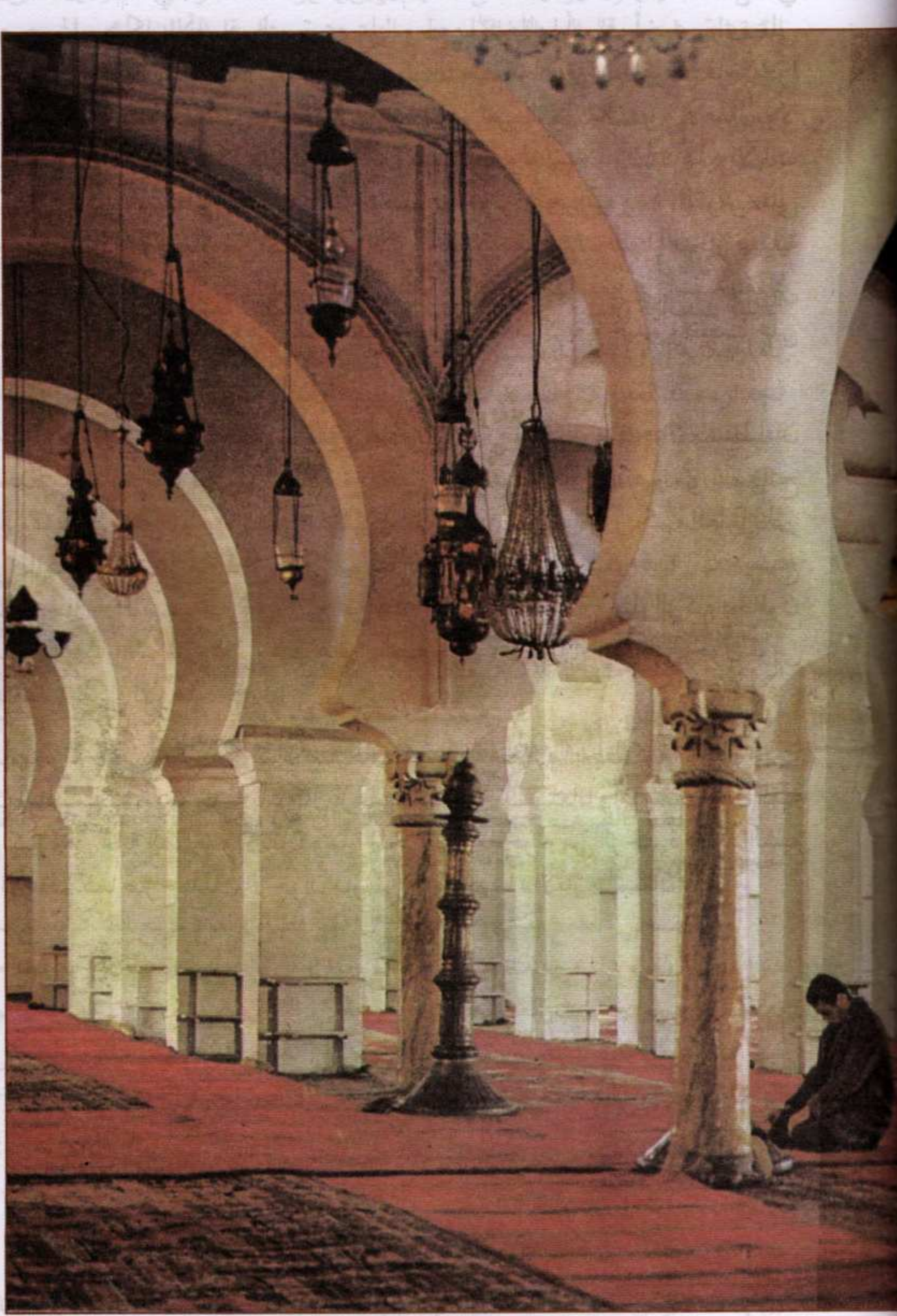


68-69 - الجامع الكبير

نرى على الصورتين المحراب والمنبر وما حولهما في القبة الوسطى والرواق الأوسط



70 – الجامع الكبير
الرواق الأوسط من قاعة الصلاة يرى فيه السدّة والثريا الكبرى والماثلتان
ومدخل للحصن





71 - الجامع الكبير : قاعة الصلاة

وتحت ما ذكر ترى نافذة مقوسة مزخرفة بأشكال هندسية شبيهة بالشباك وعلى يمينها ويسارها رواقان مؤلفان من قناطر صغيرة وضعت على ركائز ذات تيجان متزاوية الأضلاع كل قنطرة منها تحتوي على ثلاثة أقواس صغيرة ثم تأتي تحت النافذة والرواقين حاشية تحيط بإطار المحراب كله ثم يأتي بعدها إفريز زخرف بصور على شكل الأوراق التي ترى على وجهها تتخللها أوراق أخرى ترى على جانبا ثم تأتي حاشية ثانية محتوية على مايلي: «بسم الله الرحمن الرحيم وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون وأذكر ربك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون[1] » هذه الآيات الثلاث نقشت بخط كوفي بوشي المستطيل الداخل الذي وضع فيه قوس المحراب وهذا القوس على شكل حذوة الفرس يحمله عمودان رشيقان من المرمر وهنا ترى أحجار منقوشة تتخللها أحجار صقلية مثل الأولى في العرض ويحد هذه الأحجار كلها قوسان وشي القوس المحيط بها المغير في أسفله بنقوش عريضة عل شكل أوراق الأشجار وأزهارها وهي تلمع لمعانا حول نقطة مركزية وحيدة وضعت على وتيرة القوس الصغير الجامعة بين تاجي العمودين.

وعلى يمين فتحة المحراب (ص: 68 و 69) ويسارها وتحت الزخرفة هذه ترى صفحتان مستطيلتان الشكل تحيط بكل واحدة منهما حاشية نقش في أولاهما بخط كوفي قوله تعالى: «نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين[2] » وقوله عزوجل «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون»[3] وفي ثانيتهما قوله عز من قائل: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار»[4] وقد وشي وسط هاتين الصفحتين والزوايا الأربع التي حول قوس المحراب بزخرفة كثيفة على شكل الأزهار.

أما قبة المحراب فإنها ترتاح على جدار ذي ثمان صفحات قطعت في أعلاها بخط كوفي وقد وشيت تلك الصفحات بثلاث نوافذ منقوشة ومزخرفة بأشكال أزهارية مشتبكة تلمع لمعانا وأما سقف تلك القبة فإنه مزخرف بتخاريم كبيرة في غاية الصنعة والإتقان وهذا المحراب وما حوله من الزخرفة شديد الشبه بمحراب جامع قرطبة الأعظم كما صرح بذلك الأخوان مارسي في كتابهما «الآثار بتلمسان» [5].

(1) آيات 204 و205 و 206 من سورة الأعراف.

(2) آية 13 من سورة الصف.

(3) آية 75 من سورة الحج.

(4) آية 36 من سورة النور.

(5) ص 149 طبع باريس (1903م).

وعلى يمين المحراب يرى منبر من الخشب عجيب الشكل من حيث الزخرفة وأحكام الصنعة إلا أنه حديث العهد[1] وهذا مما يدل على أن أهل الصناعة التقليدية بتلمسان لا يزالون يعملون عمل أسلافهم ويتقنون العمل مثلهم ويؤيد قولنا هذا وجود الثريا الكبرى (ص:70) المعلقة في القبة التي في وسط الرواق الأوسط والتي هي من صنع الفنان الماهر المرحوم محمد بن قلفاط والتي كان يركز عليها 360 شمعة للاستصباح ويشاهد في نفس الرواق (ص:71) سدة كبيرة من الخشب محمولة على ست قوائم يصعد عليها المسمع أثناء صلوات الجمع والأعياد كما يشاهد أيضا حذاء العمودين مثلتان كبيرتان من النحاس الأصفر كانتا تستعملان للاستصباح أيضا وذلك في ليالي رمضان بالخصوص.

وكان بقاعة هذا الجامع في العهد الزياني مكتبتان حافلتان بالكتب النفسية التي كان يستفيد منها الطلبة بالمطالعة وقت فراغهم من الدراسة ولاسيما طلبة المدرسة التاشفينية التي كانت في قبلة هذا الجامع فأما المكتبة الأولى فإنها كانت عل يمين المحراب بالمكان الذي لا تزال اللوحة التي كانت على بابها مثبتة بجداره وقد تقدم في القسم التاريخي نص ما هو مكتوب على هذه اللوحة وقد ضاعت هذه المكتبة حوالي سنة 1850 م حين قامت مصلحة الآثار التاريخية بترميم الجامع وأما المكتبة الثانية فإنها كانت بالقسم الأمامي من الجامع ثم نقلت إلى المدرسة الإسلامية العربية سنة 1905م ثم نقلت من هذه إلى مكتبة ثانوية الحكيم بن الزرجب في أيام الثورة وهذه المكتبة الأخيرة هي من إنشاء السلطان أبي زيان الثاني عام 796هـ (1394م).

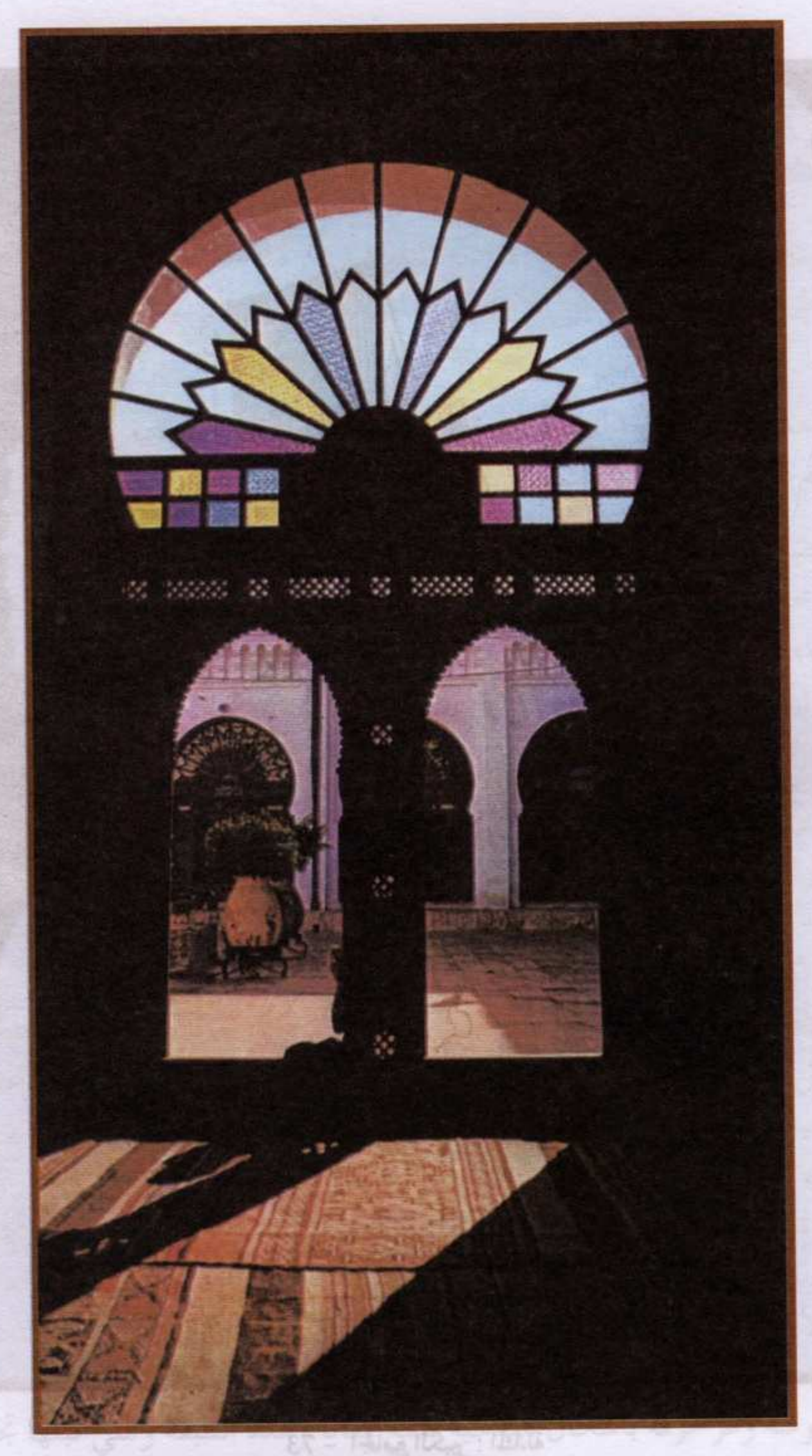
وقاعة ا الصلاة (ص:71) هذه مقسمة إلى قسمين متساويين بصف من الأقواس المقطعة كما أن الرواق الأوسط منها له قوسان مقطعان: أحدهما قبالة المحراب والثاني عند مدخل الصحن أما أرضها فهي مفروشة بزرابي من الصوف ذات نمط واحد وألوان وأشكال ومقاييس متماثلة في غاية من النسيج والإتقان وأما سقفها المصنوع من الخشب فليس به ما يلفت النظر إليه.

وفي فصل الصيف تنصب في وسط الرواق الأوسط سترة أي مسند من الخشب المرصع بالصدف لحجب المارين عن المرور أمام الإمام الذي يقف وقت الصلاة أمامها.

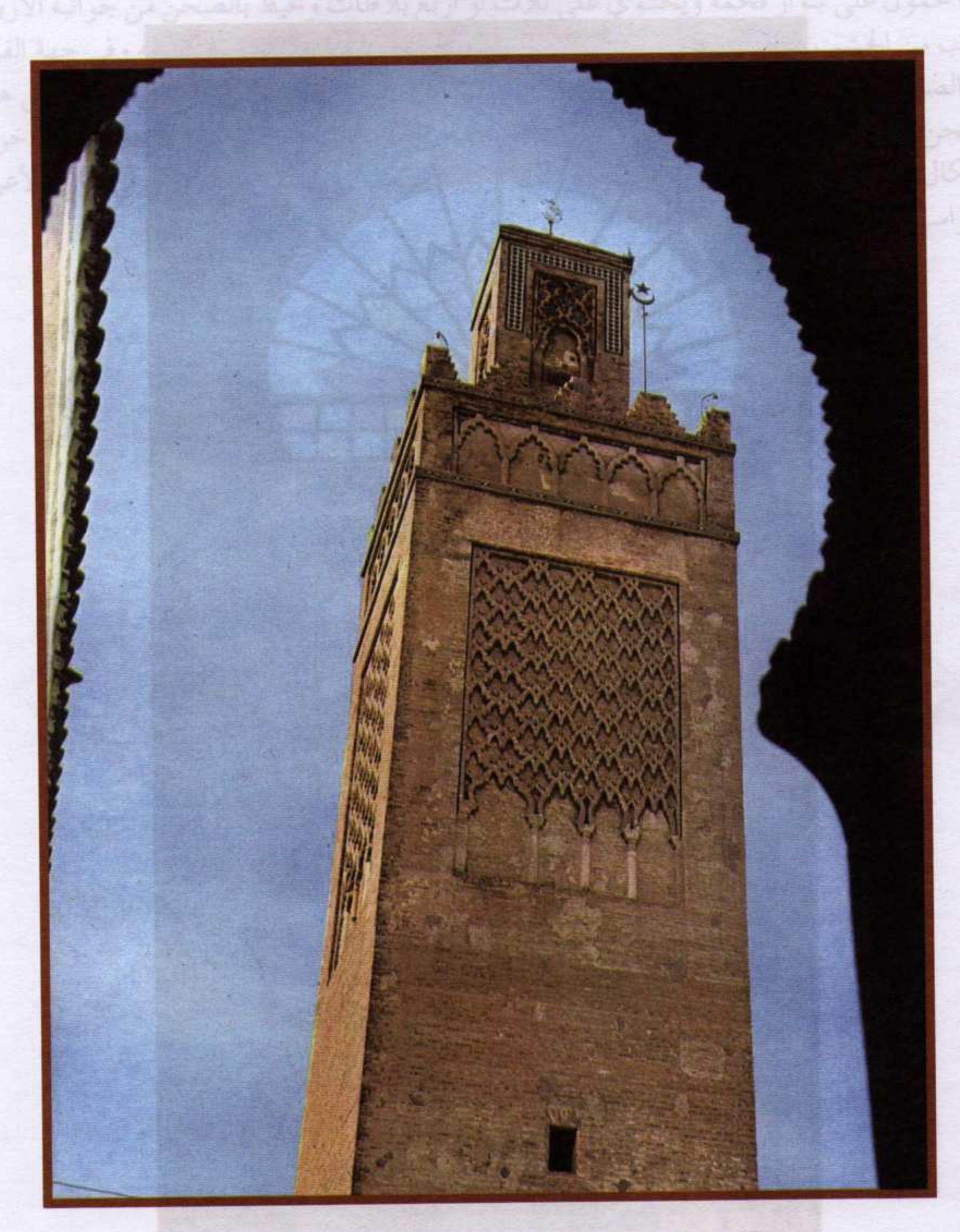
وأما صحن الجامع أو فناؤه (ص: 72) فهو فضاء واسع مربع الشكر تبلغ مساحته نحو الأربعمائة مترا مربعا مفروش بمربعات كبيرة من الرخام وفي وسطه حوضان أحدهما مستطيل الشكل يحيط به جدار صغير حديث العهد مغشى بالزليج المختلف الألوان وفي وسطه نافورة من الرخام يجري فيها ماء عذب لذة للشاربين ولاسيما في فصل الصيف وثانيهما مدور الشكل تحيط به مصاطب من الرخام يجلس عليها المتوضئون وهذا الحوض الأخير يجري إليه الماء من الحوض الأول بواسطة قناة تجمع بينهما.

(1) إن هذا المنبر من صنع الفنان عبد المجيد فار الذهب كما أن من صنعه أيضا البابان الكائنان على يمين المنبر وعلى يسار المحراب.

وبكل جانب من جوانب الصحن الأخرى أي الشرقي والغربي والشمالي أروقة سقف كل رواق منها محمول على سوار فخمة ويحتوي على ثلاث أو أربع بلاطات وتحيط بالصحن من جوانبه الأربعة أبواب من الخشب متوسطة الشكل ذات خوختين للدخول إلى الصحن والخروج منه وفي جهة القبلة من الصحن يوجد محراب مفروش برخام أسود اللون معد للصلاة في فصل الحرارة وتشرف على هذا الصحن من جهة الشمال مئذنة (ص:73) يصعد إليها بمائة وثلاثين درجة وهي ذات أربعة أوجه مزخرفة بأشكال مختلفة يعلوها جامور مزخرف كذلك وكثيرا ما تزين بالأنوار الكهربائية في ليالي الأعياد والمواسم فيزيدها ذلك بهاء وجمالا.



72 - الجامع الكبير : الصحن



73 - الجامع الكبير : المئذنة

مسجد سيدي أبي الحسن (المتحف)

إذا كان الجامع الأعظم يمتاز بالكبر والسعة والفخامة فإن هذا المسجد يمتاز بالحسن والرقة واللطافة وهو منسوب إلى العالم الجليل سيدي أبي الحسن علي بن يخلف التنسي المعاصر للسلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن الذي شيده ونسبه إليه إكراما له لأنه كان من أفضل علماء عهده وأتقاهم وأروعهم وابتنى هذا المسجد حسبما تنص عليه كتاباته المنقوشة في صفحة من المرمر الأخضر مثبتة في الجدار الغربي منه بخط أندلسي أنيق تذكارا للأمير أبي عامر إبراهيم بن أبي يحي يغمراسن بن زيان[1] عام 696 هـ وقد كررهذا النص بخط كوفي على حاشية فوق المحراب.

لهذا المسجد في الواجهة الجنوبية الشرقية مئذنة معتدلة القامة متناهية في الطرف والرشاقة تحتوي أوجهها الأربعة على زخرفة ذات أشكال بديعة (ص:74)

أم قاعة الصلاة (ص:75) فهي بيت مربع الشكل مساحته نحو المائة متر مربع يحتوي على ثلاثة أروقة وسقفها محمول عل صفين من الأعمدة المرمرية المكللة بتيجان في غاية الزخرفة واللطافة تحيط بها مثل الأساور بالمعصم وهذه الأعمدة تجمع بينها أقواس على شكل حدوة الفرس وهذا السقف المصنوع من خشب الأرز المنقوش بأشكال بديعة قد أصابه ويا للأسف حريق في أوائل سنوات الاحتلال فذهب بمحاسنه كلها.

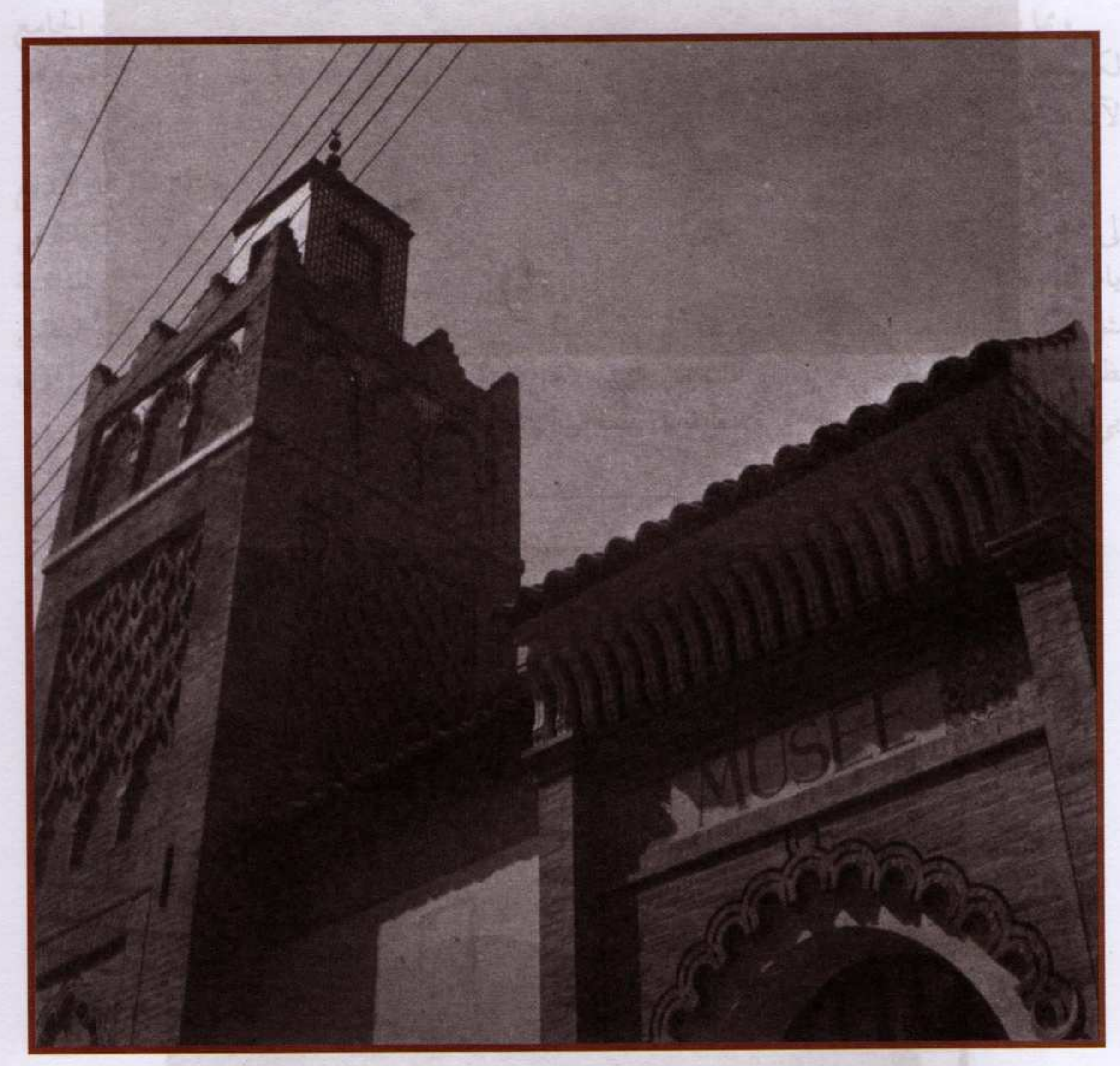
أما المحراب (ص:76) الواقع في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فزخرفته الجبسية الباهرة تثير إعجاب الزائر وتاخذ بمجامع قلبه وتذهب به في فضاء الأحلام إلى أن يذهل عن نفسه ويكاد يفقد شعوره زخرفة قبة هذا المحراب الصغيرة بأشكال ضوهيت فيها الطبيعة أحسن مضاهاة بتلك التماثيل المدلاة كأنها في الكهوف والمغارات ترتاح هذه القبة على أعمدة من المرمر داخلة في زوايا الرسم الكثير الأضلاع والأعمدة نفسها تعتمد على الإفريز الذي يبتدئ منه قوس فتحة المحراب وهو قوس على شكل حذوة الفرس يحمله عمودان من المرمر داخلان ويحيط به إطار عجيب رائع المنظر يتألف من حاشية أولى مدورة الشكل شبيهة بالأغلال رسمت بين قوس الفتحة وبين قوس ثان أكبر منه وجعلت نقطته المركزية فوق الأول ثم تأتي حاشية ثانية محفورة محتوية على خط عادي بسيط تحيط بالقوس في مستطيل عريض وتكون معه أربع زوايا غير متساوية مزخرفة كلها بأشكال عربية وأما الزاويتان الكبيرتان أي زاويتا الجهة العالية فإن وسط كل واحدة منهما وشي ببرعمة ذات تعاريج كثيرة شبيهة ببعض الأصداف وبعد ذلك تأتي حاشية ثالثة مؤلفة من عدة حويشيات ذات خطوط كوفية تتخللها أشكال عربية ومربعات ذات اشكال هندسية وفوق ذلك كله تأتي طبقة أخرى محتوية على ثلاث نوافذ مقوسة ومزخرفة بأشكال هندسية تلمع لمعانا وهذه الطبقة والتي قبلها تجمعهما حاشيتان أخريان ضيقتان مزخرفتان بخطوط عادية بسيطة.

(1) إن هذا الأمير هو الذي أوصى ببناء هذا المسجد قبل وفاته وحبس عليه بعض أمواله العقارية.

إن زخرفة المحراب هذا لها شبه كبير بزخرفة محراب مدرسة العطارين الفاسية كما صرح بذلك الأستاذ ألفريد بيل في كتابه «تلمسان وناحيتها»[1].

ومما يزيد هذا المسجد بهاء وجمالا أن جدرانه وقناطر رواقيه مزخرفة كلها بتخاريم بديعة إلا أن زخرفة القناطر قد ذهب معظمها و لم يبق منها إلا القليل. بخلاف زخرفة الجدران فإنها لا تزال على أصلها و لم يلحقها أدنى تغيير بل لا تزال لها قناطر صغيرة مسننة كما أن زواياها لا تزال مغشاة بنماذج مكررة مرسومة في مربعات وأخرى صقلية، وفوق هذه الزخرفة الجميلة توجد نوافذ صغيرة مقوسة ذات أشكال هندسية تشتبك اشتباكا أي مليء فراغها بزخرفة مصنوعة بنظام وكل ذلك تحيط به حاشية محتوية على خطوط عادية بسيطة أضف إلى ذلك أن قاعة المسجد كلها يحيط بها إفريز يحتوي على أشكال هندسية من أبهى ما يشاهد فيه.

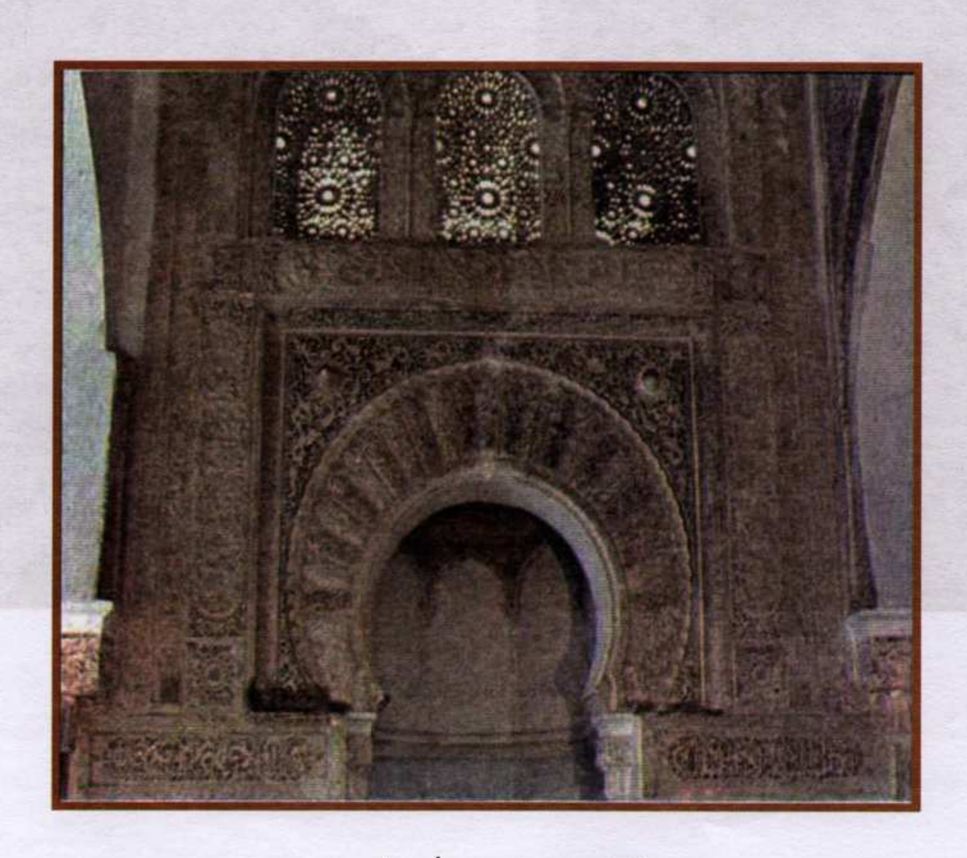
(1) ص 35 طبع تولوز (فرنسا) بدون تاريخ.



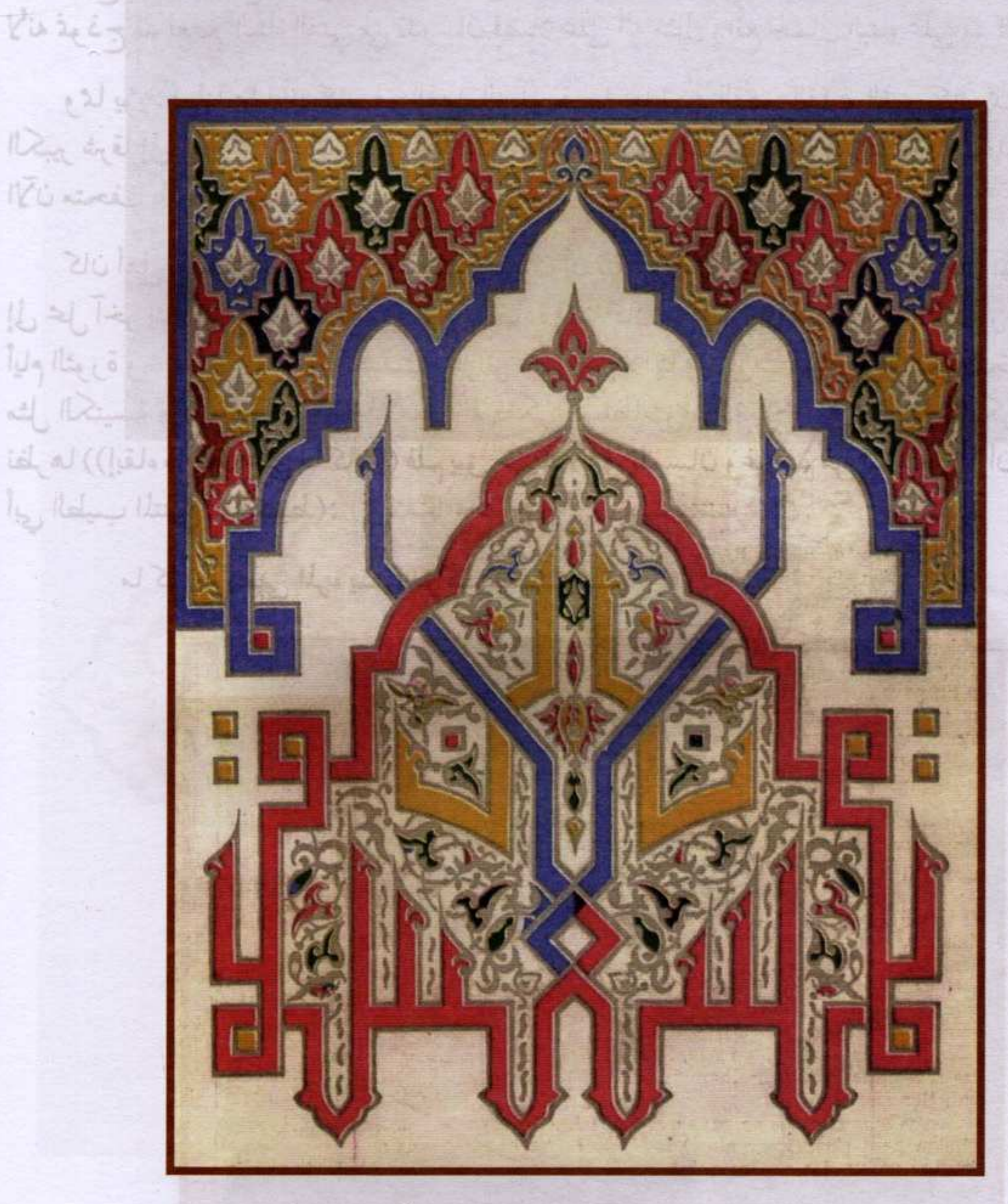
74 – مسجد سيدي أبي الحسن: منظر خارجي
(مئذنة وباب مدخله)



75 – مسجد سيدي أبي الحسن : قاعة الصلاة



76 – مسجد سيدي أبي الحسن :
المحراب : إن زخرفته الجبسية الباهرة تثير إعجاب كل زائر



77 – صورة الكلمة كما رسمها الفنان عبد الله أبو بكر



78 – متحف تلمسان : كتابة على شاهد قبر



79 - يحتفظ متحف سيدي أبي الحسن بأجمل الأقواس لمدينة المنصورة القديمة

وباختصار إن هذا المسجد يعد أجمل بناء فني (ص:77) في العهد القديم كله إذ هو وحيد في مظهره العام في أبهة بنائه فهو على صغره غاية في الأناقة ونقوشه في منتهى الجمال فزخرفته الخلابة التي تملأ الروح بهجة وتفتح العقل روعة تدل على أن هذا المسجد كان خاصا بالأمراء وأرباب الدولة الزيانية لأنه نموذج فد لعصر البناء الفني في تلمسان فضلا على أنه مثال رائع لجمال البناء على مر القرون.

ومما يؤيد قولنا هذا أنه كان في العهد الزياني قريبا جدا من القصر القديم الذي كان يمتد من الجامع الكبير شرقا إلى نهج ابن خميس غربا وكان بابه المعروف بباب البنود مقابلا لهذا المسجد الفخم وهو الآن متحف بلدة تلمسان.

كان أهل تلمسان في عهد الاستعمار يتمنون أن تنقل الآثار الفنية الموضوعة في هذا المسجد البديع إلى محل آخر يناسبها وأن يعود المسجد إلى العبادة كما كان من قبل وقد صار هذا التمني رغبة أكيدة في أيام الثورة وخصوصا بعد أن حصلت الجزائر على استقلالها وصارت شاغرة كثير من المحلات المناسبة مثل الكنيسة وغيرها ولكن ويا للأسف لم تفكر السلطات المعنية بالأمر في ذلك أو فكرت واقتضى نظرها ((إبقاء ما كان على ما كان)) فلم يبق حينئذ لأهل تلمسان وغيرهم من المؤمنين إلا أن يرددوا قول أبي الطيب المتنبي: (البسيط):

ما كل ما يتمنى المرء يـــدركـــــــــه

تجري الرياح بما لا تشتهـي السفـــــــن

الآثار الفنية الموضوعة بمتحف تلمسان

كان لمسجد أبي الحسن في واجهته الغربية صحن صغير بسيط يحتوي على مراحيض وأحواض للوضوء لكن ذلك هدم وعوض بقاعة كبيرة تجمع فيها الآثار الفنية الملتقطة بتلمسان وضواحيها ومما يؤسف له أن كثيرا من آثار تلمسان قد ضاعت لعدم الاعتناء بها في أوائل سنوات الاحتلال إذ هي لم تجمع إلا في سنة 1902م أي بعد ستين سنة من الاحتلال وبقيت تلك الآثار جميعها موضوعة في قاعة الصلاة إلى سنة 1919م حيث أن مصلحة الآثار التاريخية جعلت شباكا من الحديد حول المسجد ووضعت خارجه أعمدة من المرمر وشواهد قبور (ص:78) مكتوب عليها أسماء أصحابها من أمراء وعلماء وغيرهم من أهل الفضل والصلاح وجعلت داخل القاعة الجديدة ما كان من الآثار الفنية في قاعة الصلاة وهي آثار فنية عتيقة لا تخلو من أهمية (ص:79).

فمن جملة تلك الآثار عدة خطوط لاتينية نحتت على أحجار عريضة وعدة خطوط عربية نحتت على أعمدة من الرخام عشورية الشكل وعلى صفحات من المرمر الخالص وعدة قطع من الفسيفساء ذات الألوان المختلفة جيء بها من المدارس التي انطمست معالمها وعدة تيجان من الرخام (ومن جملة هذه التاج المنحوت عليه اسم من بني دار الفتح بالمنصور)[1] وعدة حزازات الآبار المصنوعة من الفخار المختوم وعدة خطوط عربية منحوتة على لوحات من خشب الأرز وعدة قطع من الرخام المزوق وعدة قطع من النقود الذهبية والفضية القديمة: منها ما هو مستدير ومنها ما هو مربع الشكل ومنها ما هو مضروب في تلمسان ومنها ما هو مضروب في غيرها كفاس وغرناطة وتونس ومراكش وبجاية وعدة مسامير فنية عتيقة وعدة آلات صغيرة من الحديد وضعت في زجاجيات ومدفع من صناعة الأسبان يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر للميلاد. أضف إلى ذلك كله المقصورة المصنوعة من الخشب التي كانت أمام محراب الجامع الكبير والتي كانت خاصة بالسلطان وحاشيته وكذا الثريا الكبرى العتيقة التي تهشمت والتي يرجع تاريخها إلى عهد السلطان يغمراسن بن زيان وقد صنعت الثريا المعلقة اليوم بالجامع على غرارها وكذا الساعة الشمسية المرسوم عليها خطوط كوفية التي كانت مستعملة في الآلات الفلكية بتلمسان.

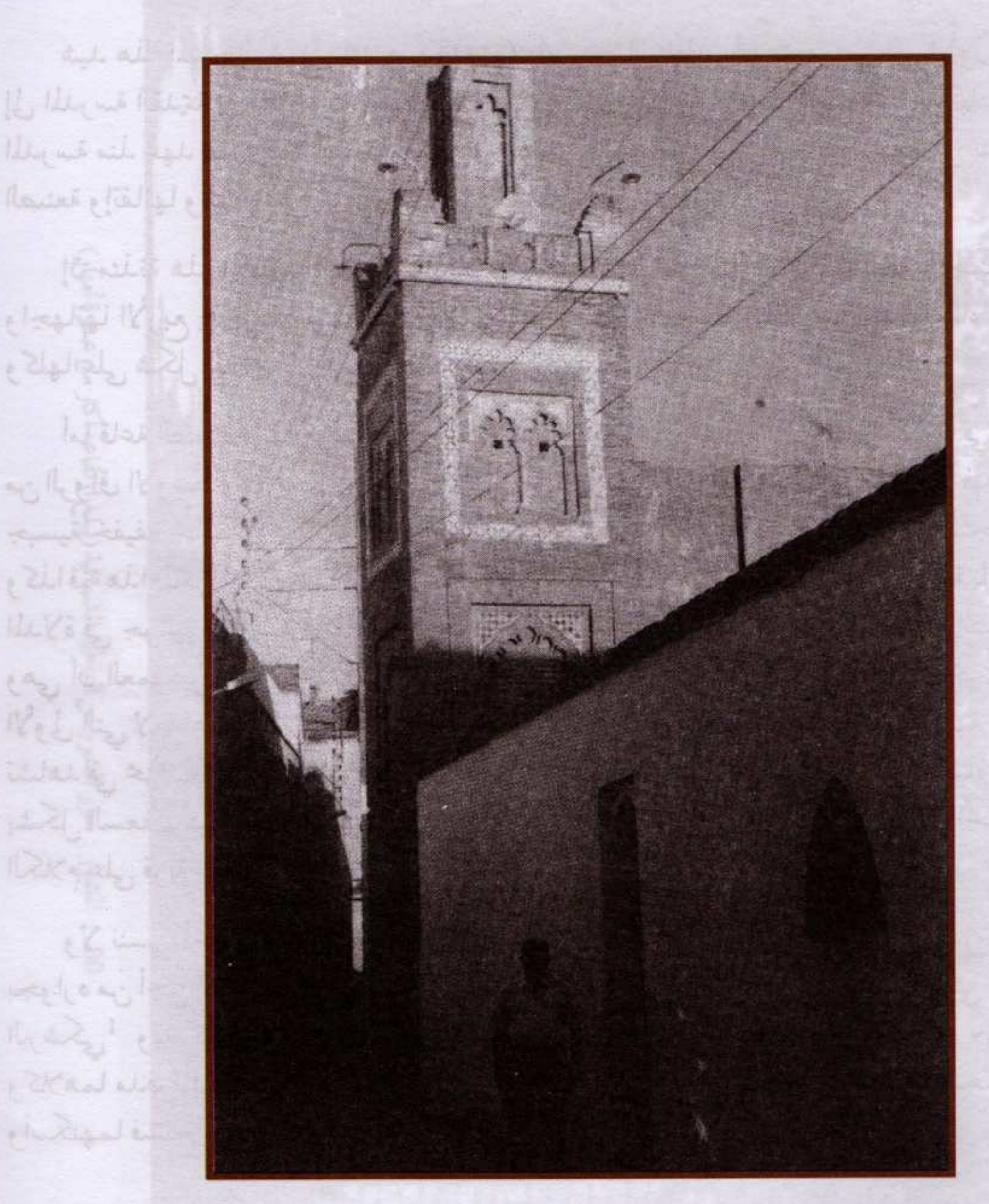
ومن جملة ما وضع بقاعة الصلاة من المسجد حوض كبير من المرمر جيء به من المنصورة وكذا الذراع الملكي المكون من رخامة ذات خطوط عربية مثبتة في الجدار الذي على يسار الداخل إلى قاعة الصلاة وهذا الذراع هو الذي كان يرجع إليه تجار الأقمشة عند الاختلاف ودونك نص ما نقش على رخامة ذلك الذراع الملكي «الحمد لله والشكر لله هذا قياس قالة الذراع

(1) أي السلطان أبو الحسن علي المريني الذي استولى على تلمسان عام 737هـ (1137م).

بالقيسارية عمرها الله في شهر ربيع الثاني عام ثمانية وعشرين وسبع مائة هجرية»[1] فالتاريخ هذا يدل على أنه من انشاء السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن الأول وقد عثر عليه بالقيسارية القديمة حين هدمها(ص: 128).

أما الطابق الأول من المتحف فهو يحتوي على مجموعة كبيرة من مركبات الأرض التلمسانية مما هو راجع إلى ما قبل التاريخ.

(1) 728 هـ (1328م).



140 - مسجد أولاد الإمام

مسجد أولاد الإمام

(ص:140)

شيد هذا المسجد حوالي 710هـ (1311م) بأمر من السلطان أبي حمو موسى الأول الذي أضافه إلى المدرسة القديمة أو مدرسة أولاد الإمام التي هي أول مدرسة شيدت بتلمسان وقد عفت رسوم هذه المدرسة منذ عهد طويل أما المسجد فمع ما لحقه من التغيير فإنه لا يزال قائما يشهد لمن بناه بأحكام في الصنعة وإتقانها والنبوغ في ممارسة فن الهندسة المعمارية.

إن مئذنة هذا المسجد التي يبلغ ارتفاعها سبعة عشر مترا لمثال رائع للرشاقة والجمال قد وشيت واجهاتها الأربع بزخرفة على شكل رفعة الشطرنج تحتوي على مربعات من الفسيفساء مختلفة الألوان وكلها على شكل المعين.

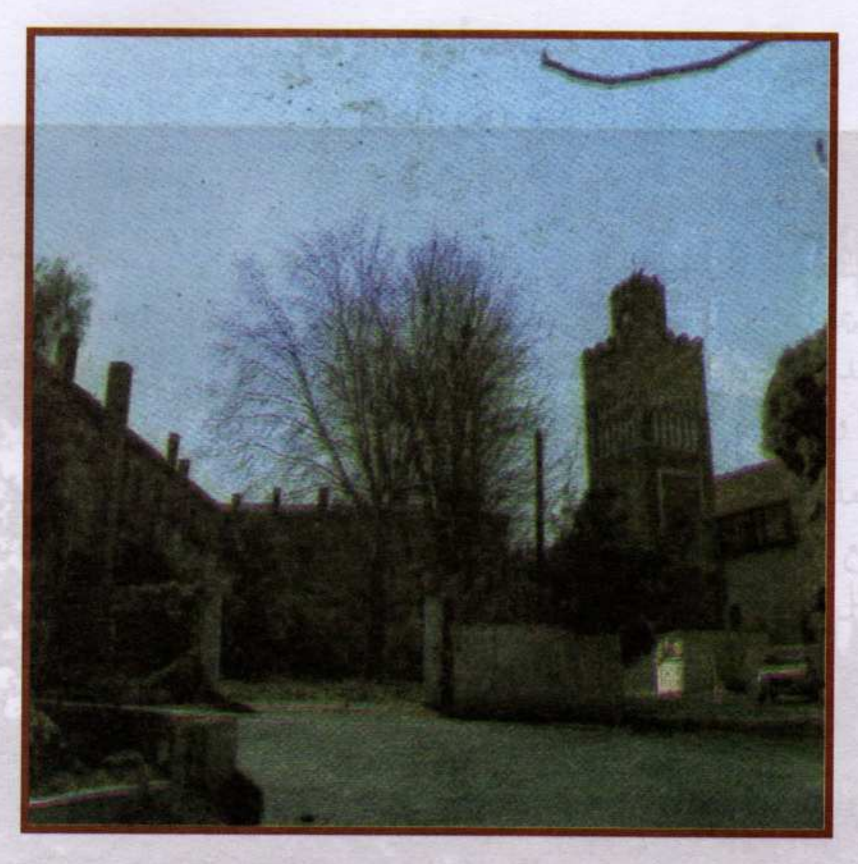
أما قاعة الصلاة فإنها مؤلفة من ثلاثة بلاطات وثلاثة أروقة جعل المحراب كغيره في واجهة القبلة من الرواق الأوسط وهو يحتوي على ثلاث نوافذ مقوسة على الشكل المعهود وله إطار فيه بقايا تراكيب جبسية خفيفة جامعة بين الدقة والفخامة شبيهة بما شوهد في زخرفة إطار محراب مسجد أبي الحسن وكذا قبة هذا المحراب فإنها موضوعة على الرسم الكثير الأضلاع المعهود وهي مزخرفة بالتماثيل المعلقة المدلاة في جوانبها وأما أعلاها فهو قبة صغيرة مؤلفة من ستة عشر تخريما ولكن لهذه القبة ميزة خاصة وهي أن العمودين الذين يحملانها تجمع بينهما قنطرتان وضعت إحداهما فوق الأخرى أما القنطرة الأولى التي لا يراها الناظر الواقف في أحد البلاطات أي العليا فإنها محشاة بتقاطيع شبيهة بالتقاطيع التي تشاهد في محراب مسجد سيدي أبي الحسن وأما القنطرة الأخرى أي السفلى فإنها محشاة بنقوش شبيهة بشكل السعف كما يشاهد مثل ذلك في محراب جامع سيدي أبي مدين الذي سيأتي الحديث عنه عند الكلام على قرية العبّاد.

ولا ننسى أخيرا أن السلطان أبا حمو موسى الأول شيد هذا المسجد وكذا المدرسة التي كانت بجواره من أجل العالمين الجليلين الأخوين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني الإمام عبد الله البرشكي[1] وقد كانت وفاة الأول منهما عام 741هـ (1340م) وكانت وفاة الثاني عام 749هـ (1349م) وكلاهما مدفونان برحاب هذا المسجد الذي لا يزال موجودا به شاهدا قبريهما تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنته.

(1) نسبة إلى برشك: مرسى صغير بين شرشال وتنس يدعى الآن قوراية.



80 – المشور : سور المشور من الناحية الشمالية (يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرة أمتار)



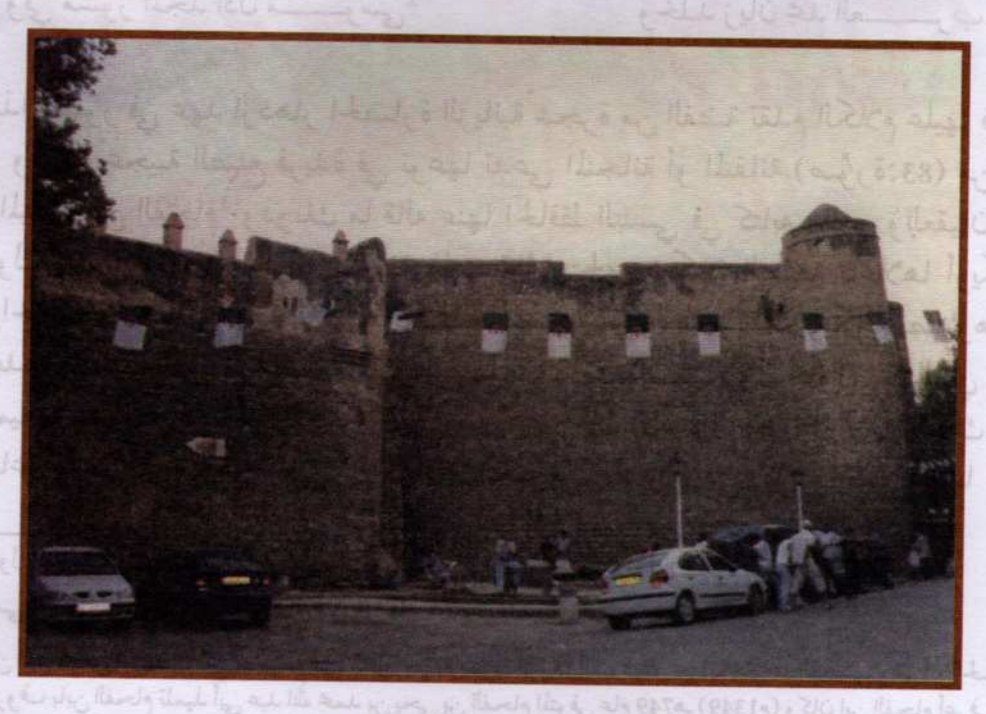
81 - مدخل المشور (القديم)



82 - مسجد المشور: إن الصليب الأبيض فوق مدخل المسجد
دال على تحويله إلى كنيسة



83 - المنجانة: الساعة العجيبة ذات التماثيل المتحركة التي كانت بالمشور
كما تخيلها الرسام د. مرتين



84 - سور المشور من الناحية الغربية

صرح المشور ومسجده

إن المشور (ص:76) هو الصرح العظيم الذي بناه السلطان يغمراسن بن زيان في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) بجنوب تلمسان واتخذه دارا لسكناه بدلا من القصر القديم وقد حصنه غاية التحصين حتى صار كأنه مدينة مستقلة في وسط العاصمة الزيانية ولا يزال هذا الصرح قائما بأسواره الشامخة (صورة:84) وبابيه الداخلي المعروف بباب المشور (صورة:80) والخارجي المعروف بباب التويتة[1] إلى يومنا هذا لكن داخله الذي كان يحتوي على عدة دور أنيقة وحدائق بديعة ونافورات للمياه في غاية الجمال والرشاقة ومسجدا فخما (صورة:81) وشجرة من فضة وساعة نادرة المثال تعد من عجائب الدنيا فكل ذلك قد محته خطوب الزمان وطوارئ الحدثان ولم يبق من المشور الآن إلا المسجد الذي بناه السلطان أبو حمو موسى الأول وجدد بناءه الأتراك ثم حولته السلطة الفرنسية إلى كنيسة بحيث أنه فقد جميع زخرفته القديمة ولم يبق به من الأعمال الفنية ما يلفت النظر ما عدا مئذنته التي لا زالت تحتفظ ببعض زخرفتها العتيقة خصوصا الواجهة الجنوبية منها فلا تزال مكتوبا على قطع الفسيفسات التي تغشى إطارها العبارات التالية المعهودة في الزخرفة الخطية الأندلسية: »اليمن والاقبال« و «يا ثقتي يا أملي أنت الرجاء أنت الولي اختم بخير أملي».
هذه المئذنة هي التي أشار إليها الشاعر مفدي زكرياء بقوله: (المتقارب)

وفي مشور المجد أذن مـــــوسى[2]   وخلد زيان مجد العـــــرب

وكان بهذا المشور في عهد ازدهار الحضارة الزيانية شجرة من الفضة تقدم الكلام عليها في القسم التاريخي وساعة عجيبة الصنع فريدة في نوعها تدعى المنجانة أو المنقانة (صورة:83) من اختراع المهندس المبدع ابن الفحام[3] ودونك ما قاله عنها الحافظ التنسي في كتابه «الدر والعقيان في بيان شرف ملوك بني زيان» « وخزانة المكانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة بأعلاها أريكة تحمل طائرا أفراخه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كورة بجوار الأريكة وبصدرها أبواب مفرجة بعدد ساعات الليل الزمانية يعاقب طرفيها بابان مفجآن.: الأول أطول من الثاني وأعرض وفوق جميعها ودون رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك وسامت أولئك ساعة بابها المرتج فينخفض من البابين الكبيرين عقابان بقي كل واحد منهما صنجة

(1) الباب الأول يصل المشور بالمدينة والباب الثاني يصله بالفحص والتويتة مصغر توتة أي شجرة التوت.

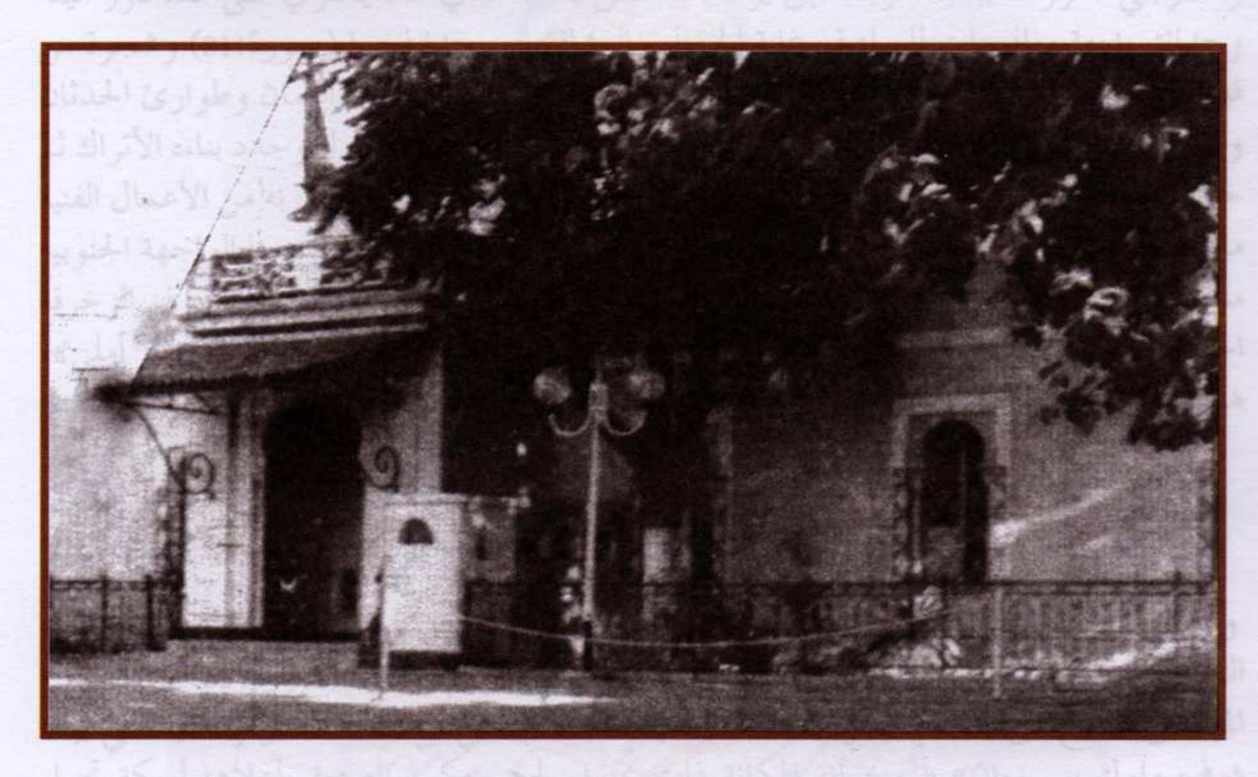
(2) المراد بموسى السلطان أبو حمو موسى الأول مؤسس المسجد ومئذنته.

(3) قد نال ابن الفحام من السلطان أبي حمو موسى الثاني جراية سنوية قدرها ألف دينار جزاء اختراعه العجيب وهو أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الفحام تلميذ أبي عبد الله محمد بن يحي بن الفحام المتوفي عام 749هـ (1349م) وكان ابن الفحام أعرف أهل زمانه بفنون التعاليم ظهر على يديه من الأعمال الهندسية المنجانة المشهورة بالمغرب فأثابه عنها ملوكه بألف دينار مقسطة على عمال بلادهم في كل سنة (المجلد الأول ص 56 رقم 59) من «بغية الرواد» ليحي بن خلدون طبع الجزائر عام 1321هـ (1903م).

صفر يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطة ثقب يمضي بها إلى داخل الخزانة فيرقى وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه فهنالك يفتح باب الساعة الذاهبة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء بيمناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة»[1].

إن هذه الساعة التي كانت أعجوبة الزمان بحاضرة تلمسان قد ورد وصفها كذلك في كتاب «بغية الرواد» ليحي بن خلدون بتفصيل لا مزيد عليه. وقد تقدم في القسم التاريخي كما تقدم كذلك وصفها للتنسي منقولا من كتابه «راح الأرواح» المنقول هو عينه من «أزهار الرياض» للمقري.

(1) الدر والعقيان (مخطوط تلمسان) ج1، ص66.



141 - دار البايلك

دار البايلك[1]

(ص: 141)

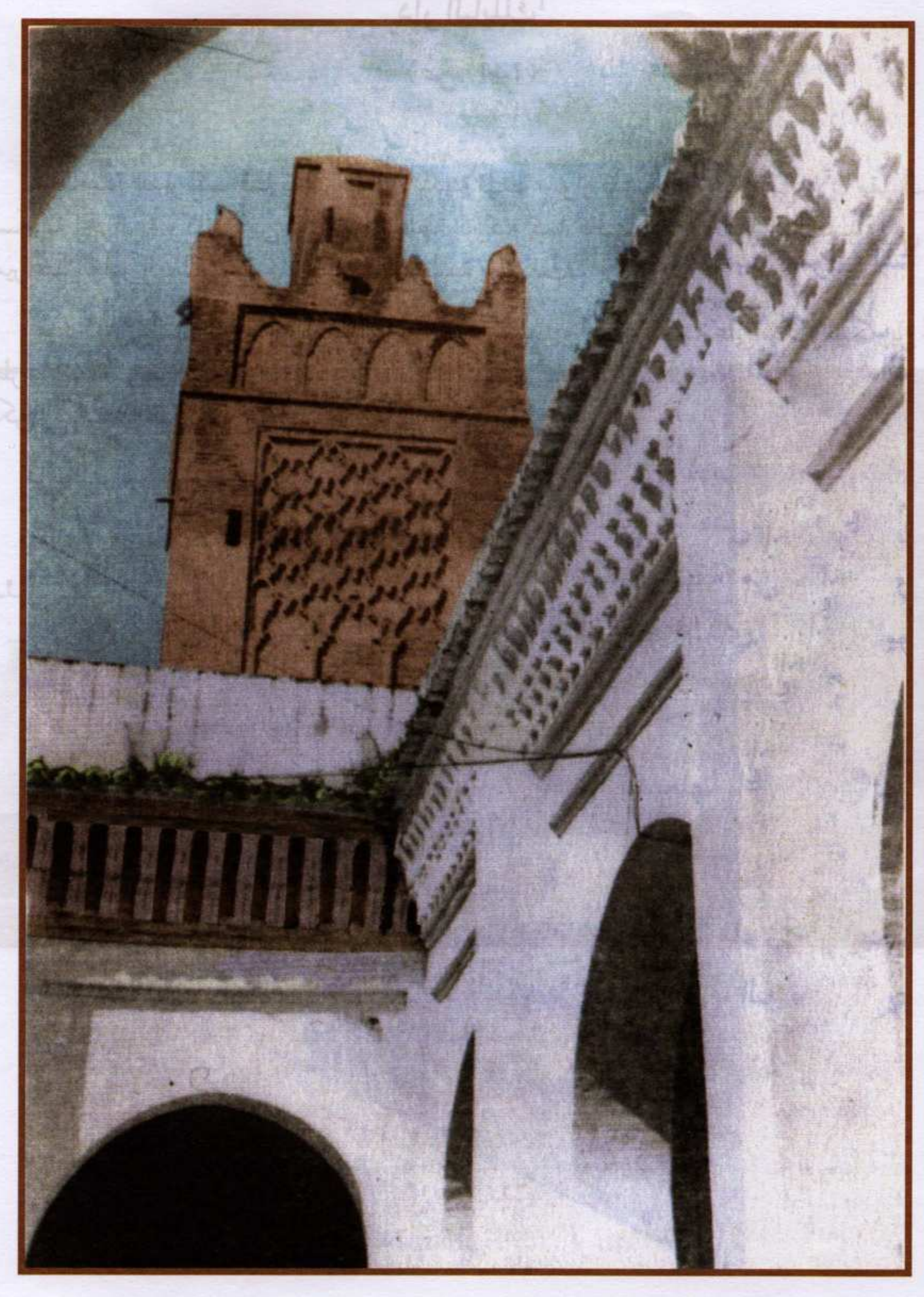
توجد هده الدار كما قلنا بالجنوب من المدينة قرب أسوار المشور الغربية وهي الآن مقر السلطة العسكرية الجزائرية وكانت من قبل مقر السلطة التركية كما كانت مقر الخليفة البوحميدي في عهد الأمير عبد القادر الهاشمي ثم مقر السلطة الفرنسية بعد ذلك.

وهذه الدار تتألف من صحن أو فناء مربع الشكل تحيط به أروقة مقوسة على شكل البيكارين تحمل قناطرها أعمدة رئيقة من الرخام ومن عدة بيوت فتحت أبوابها على تلك الأروقة وكان البوحميدي يسكن البيوت الواقعة في الجهة الشمالية من هذا الفناء.

أما بيوت الواجهة الغربية فإنها كانت تشتغلها المحكمة الشرعية وتوابعها.

وكان في وسط الفناء نافورة من الرخام يجري منها ماء زلال وينصب ما فضل منه في حوض كان مغروسا حوله أشجار من النارنج والزيتون والياسمين.

(1) أي الدار التي يقيم بها الباي ويراد بها دار الدولة أو دار الإدارة أو بيت المال وهي لفظة تركية أصلها بايلق ومعناها في لغتهم الثروة والرفعة.

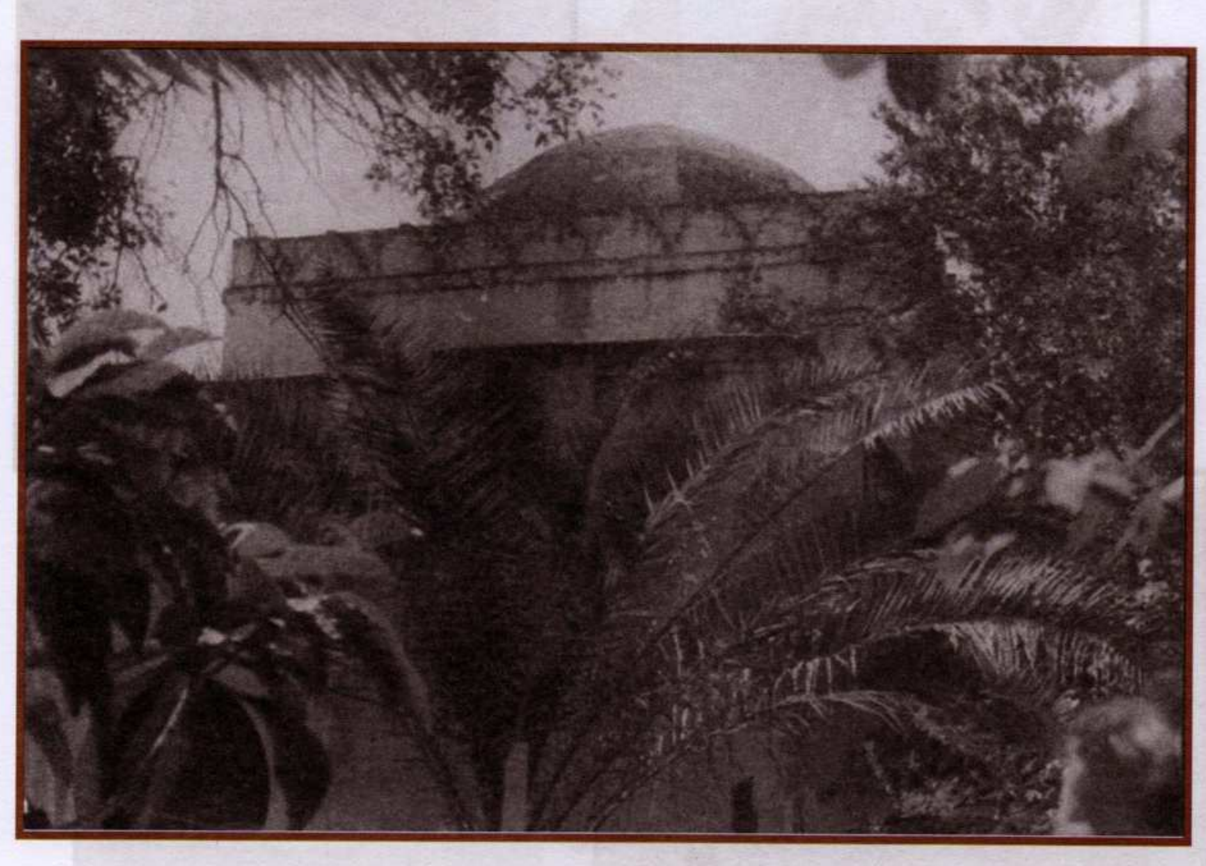


85 - جامع سيدي إبراهيم : حواشي السطح المقرمد
والمئذنة من ناحية الصحن



86 - جامع سيدي إبراهيم : المئذنة

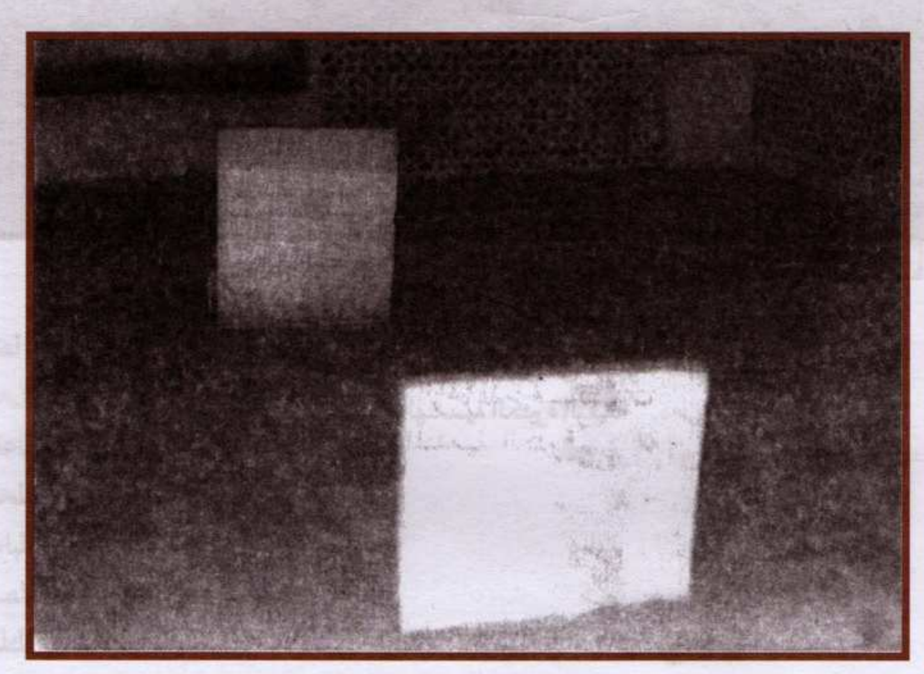
87 - ضريح سيدي إبراهيم : الباب الخارجي



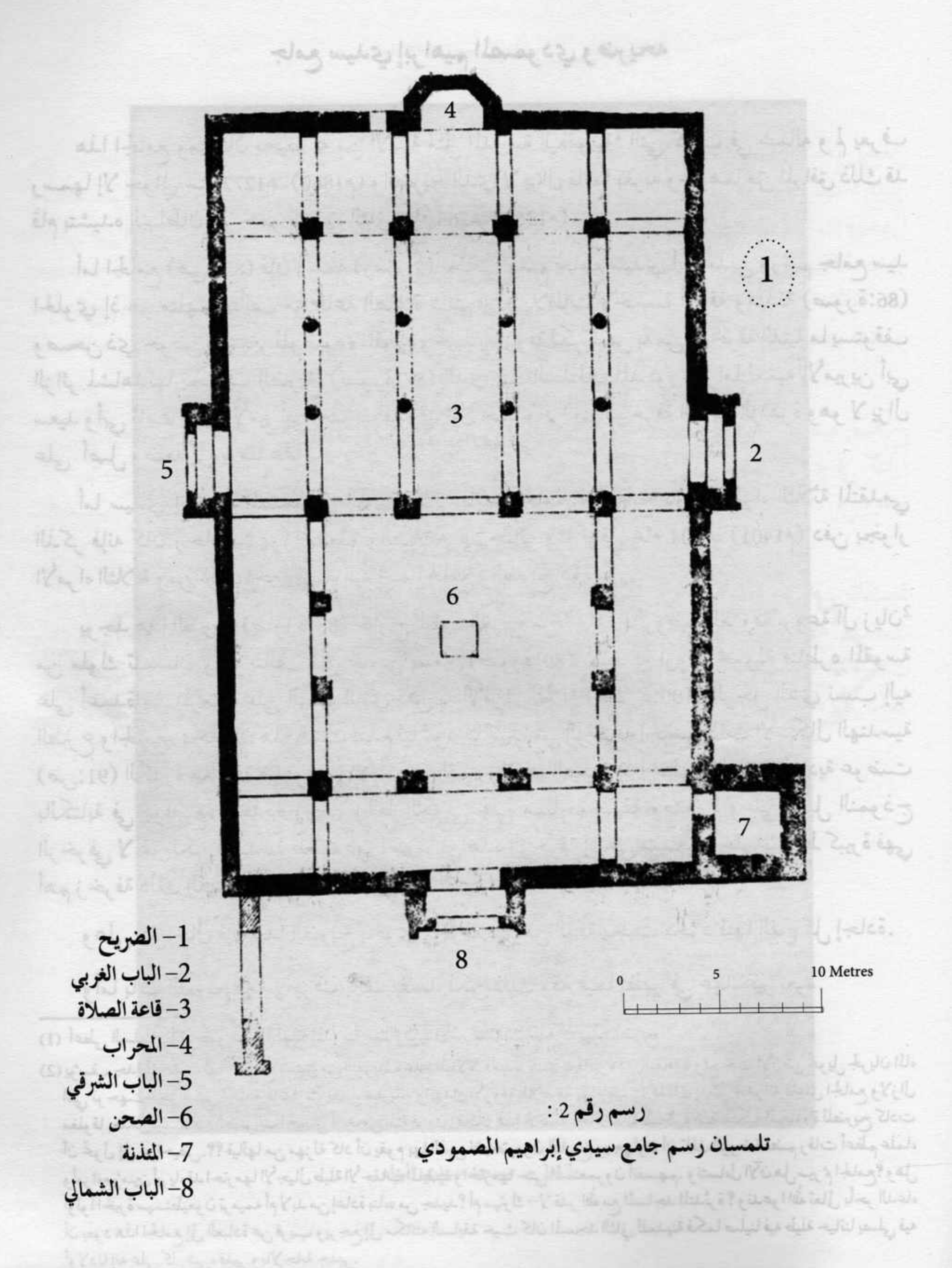
88 – ضريح سيدي إبراهيم : منظر خارجي نرى الباب الخارجي
ثم الصحن ثم قبة الضريح



89 - ضريح سيدي إبراهيم المصمودي
الباب الداخلي للضريح ورواق في الصحن



90 - داخل ضريح سيد إبراهيم المصمودي
نرى شاهدي ضريح في الوسط وشاهدي ضريح آخر في الزاوية



رسم رقم 2 :
تلمسان رسم جامع سيدي إبراهيم المصمودي

جامع سيدي إبراهيم المصمودي وضريحه

هذا الجامع وما كان يحيط به من الأبنية مثل المدرسة اليعقوبية[1] التي كانت في شماله و لم يعرف رسمها إلا حوالي سنة 1277هـ (1860م) والضريح الذي لا يزال قائما بغربه وغيرهما من المرافق ذلك قد قام بتشييده السلطان أبو حمو موسى الثاني عام 765هـ (1363م).

أما الجامع (ص: 85) فإن رسمه (رسم:2) يحاكي رسم جامع سيدي أبي مدين ورسم جامع سيد الحلوي إذ هو مثلهما يتألف من قاعة الصلاة ذات أربع بلاطات وخمسة أروقة ومئذنة (صورة:86) وصحن ذي حوض مستدير للوضوء ونافورة وتحيط به أروقة لكن ليس به من الزخرفة الفنية ما يستوقف الزائر لمشاهدتها بخلاف الضريح (صورة:87) الذي بناه السلطان المذكور إكراما لعميه الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت وأبيه الأمير أبي يعقوب فإنه قد نال حظا وافرا من الزخرفة العربية الزاهرة وهو لا يزال على أصل وضعه إلى يومنا هذا.

أما سيدي إبراهيم المصمودي الذي استأثر باسم الجامح والضريح دون الأمراء الثلاثة المتقدمي الذكر فإنه كان رجلا مشهورا بالعلم والصلاح في حياته ولما توفي عام 804هـ (1401م) دفن بجوار الأمراء الثلاثة ومن ذلك الحين أسند إليه اسم الجامع والضريح دونهم.

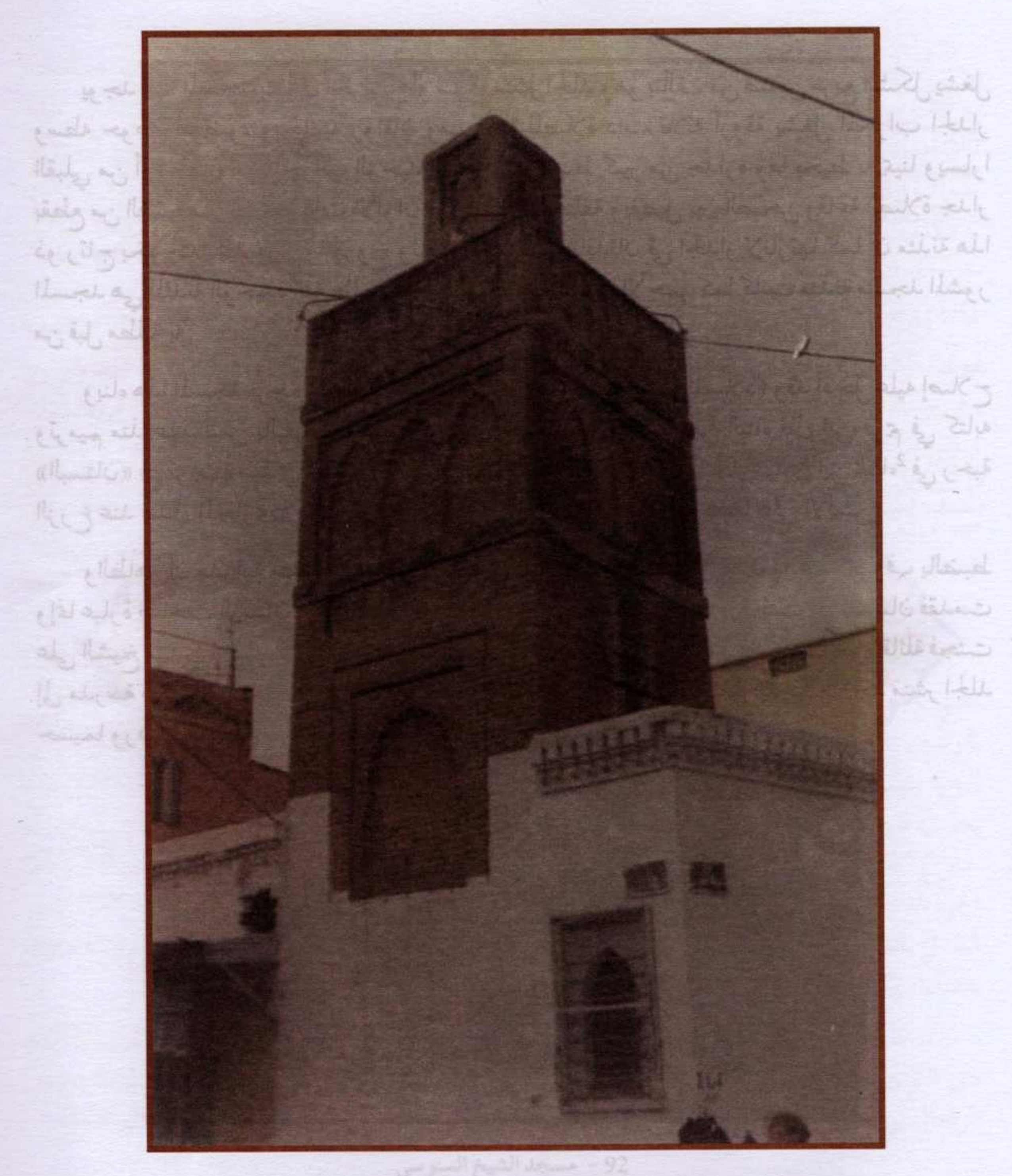
يوجد هذا الضريح (صورة:88) خارج الباب الغربي من الجامع بالروضة المعروفة بروعة آل زيان[2] من ملوك تلمسان وهو يتألف من صحن صغير (صورة:89) تحيط به أروقة محمولة قناطره المقوسة على أعمدة من المرمر وعلى البيت الذي دفن به الأمراء الثلاثة (صورة:90) والرجل الذي نسب إليه الضرع والجامع. فجدران هذا البيت تقدم لنا نموذجا كبيرا من الزخرفة الجبسية ذات الأشكال الهندسية (ص:91) الكثيرة مع فاقة ظاهرة في الأسلوب الفني وإتقان الصنعة إذ الخطوط العربية العادية عوضت بالكتابة في مواضع. متعددة ورسم الخط الكوفي على مساحة ضيقة وصغيرة وعلى سبيل النموذج الزخرفي لا غير لكن الهندسة تلعب دورا مهما في هذه الزخرفة إذ هي مستعملة على بسائط كبيرة فهي أهم زخرفة ذلك العهد.

وعلى كل حال فإن هذا الضريح يحوي زخرفة هي من الدقة بحيث يجود فيها الفن كل إجادة.

وأما باب الضريح فإنه زخرف بالفسيفساء لكن ذلك وقع فيما يظهر في عهد غير بعيد.

(1) أعطى السلطان أبو حمو موسى لهذه المدرسة اسم والده الأمير يعقوب المدفون بهذا الضريح.

(2) يؤسف جدا لما حدث لهذا الجامع العتيق من التفريط وعدم المبالاة. فعندنا بنيت بجانبه «دار الثقافة» وقع تحت الأرض تحويل لجريان الماء التي توجهت نحو أسس الجامع فانهارت بعض سارياته وانهدام الأروقة اللاصقة بها وميلت كذلك بعض جدرانه فأغلق الجامع ولازال مغلوقا بعدما أقيمت فيه الصلوات الخمس أزيد من ستة قرون. فكأن هذا الاندثار جاء عقابا لأن الروضة الملكية المجاورة للضريح كادت أن تحول إلى مراحيض.؟؟ فيالها من مهزلة كاد أن يقوم بها الذين لا يحترمون التاريخ ويجهلون أن تلك الروضة تضم رفات أعظم علماء وأمراء مؤمنين أبرياء قد احترمها الأجيال طيلة الأحقاب الماضية واحترمها حتى المستعمرون أنفسهم. ونتساءل الآن هل سيرمم الجامع؟ وهل أولوا الخبرة سيستطيعون ترميمه أم لابد من إعادة بناءه من جديد؟ أم سيترك –لا قدر الله مع المساجد المندثرة؟ وندعوا الله تعالى بأحر الدعاء أن يعود هذا الجامع إلى العبادة عن قريب ويرجع إلى مكانته السابقة حيث كان المسجد الثاني للمدينة فكما صلينا فيه طيلة حياتنا يصلي فيه أولادنا إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.



142 - مسجد سيدي البناء

مسجد سيدي البناء

يوجد هذا المسجد بسوق الخرازين أو سوق منشر الجلد وهو يتألف من صحن مربع الشكل يشغل وسطه حوض للوضوء وبجانبيه رواقان ومن قاعة للصلاة ذات ثلاثة أروقة يشغل المحراب الجدار القبلي من أوسطها وهو المحراب الوحيد الذي غشى قسط كبير من جداره وما يحيط به يمينا ويسارا بقطع من الفسيفساء اللامعة ذات الألوان والأشكال المختلفة ويفصل بين الصحن وقاعة الصلاة جدار ذو رتاج بخوختين للدخول والخروج ونافذتين تقابلهما نافذتان في الجدار لإنارتها كما أن مئذنة هذا المسجد هي المئذنة الوحيدة التي طليت واجهاتها الأربع باللون الأحمر كما كانت مئذنة مسجد المشور من قبل مطلية به.

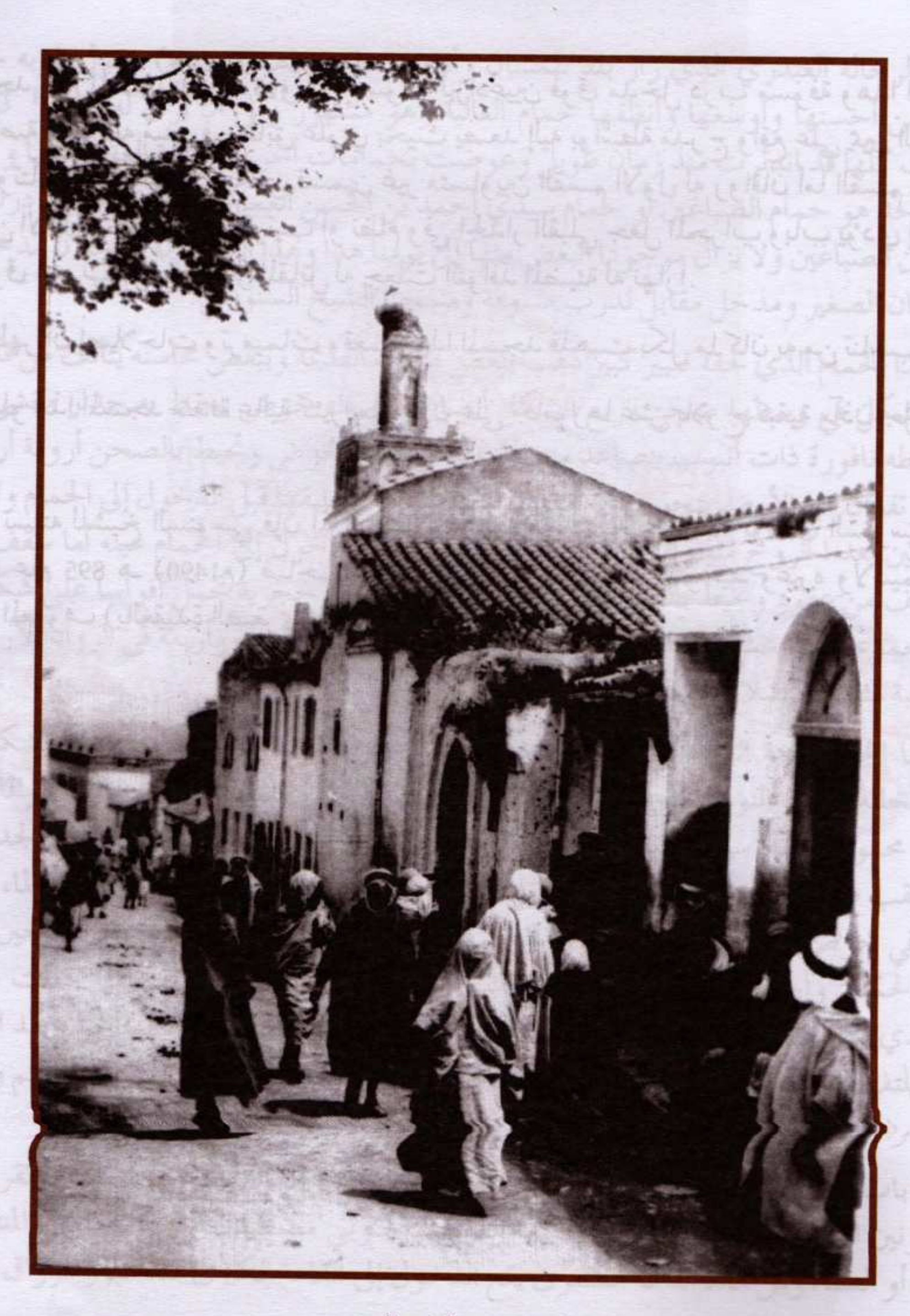
وبناء هذا المسجد يرجع إلى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) وقد أدخل عليه إصلاح وترميم منذ عهد ليس بالبعيد أما نسبته لسيدي البناء فالصحيح أنه ابن البناء قال ابن مريم في كتابه «البستان» في ترجمة سيدي محمد ابن الغليظ المديوني[1] «كان يؤم في مسجد سيدي ابن البناء[2] في رحبة الزرع عند فندق المجاري» وإنما حذفت كلمة ابن لكثرة الاستعمال وترددها على الألسن.

والظاهر أن مدرسة منشر الجلد كانت بالقرب من هذا المسجد لكن موقعها غير معروف بالضبط وإنما عبارة صاحب البستان عند الكلام عليها دالة على ذلك[3] إذ هو يقول: « فجئت إلى تلمسان فقدمت على الشيخ سيدي الحسن أبركان فسلمت عليه. . إلى أن يقول :» فطلعت وكان وقت حر وقائلة فجئت إلى مدرسة منشر الجلد ...الخ» وكان قرب هذه المدرسة مسجد آخر قد اندثر يدعى مسجد منشر الجلد حسبما ورد في كتاب «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق الخطيب.

(1) «البستان» لابن مريم ص 275 طبع الجزائر 1326 هـ (1908 م).

(2) ولعله سيدي محمد بن البناء الشاعر الاديب والعالم المحقق.

(3) «البستان» لابن مريم، ص 230 نفس الطبعة والتاريخ.



92 - مسجد الشيخ السنوسي

مسجد الشيخ السنوسي

يوجد هذا المسجد (ص: 15و 92) بسوق البرادعيين فوق مدخل درب مسوفة وهذا المسجد له ميزة خاصة وهي أنه مبني في طابق علوي بحيث يصعد إليه بواسطة مدرج واقع على يمين الداخل إلى الدرب وتتألف قاعة الصلاة به من قسمين غير متساويين القسم الأول له رواقان أما القسم الثاني فهو أصغر من الأول وخال من كل ترتيب أو نظام وفي الجدار القبلي جعل المحراب وباب يؤدي إلى صحن صغير فوق الدرب. وفي الجدار المقابل له جعلت النوافذ المضيئة له نهارا.

ويظهر أن إصلاحات وترميمات وقعت بهذا المسجد فذهبت بكل ما كان به من تناسب ورونق.

ويعلو هذا المسجد مئذنة عالية كثيرا ما يكون على جامورها عش بلارج كبقية مآذن جل مساجد تلمسان.

أما نسبته للشيخ السنوسي فإن المراد به الإمام العلامة الشيخ محمد بن يوسف السنوسي المتوفي بتلمسان عام 895 هـ (1490م) صاحب المصنفات الكثيرة في علم التوحيد وغيره ولاسيما مصنفه المشهور المعروف (بالعقيدة الصغرى) أو عقيدة أهل التوحيد.

حمام الصبّاغين

إن الرحالة العبدري الذي زار بلد تلمسان وأقام به عام 688هـ (1289 م) يقول:(وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور وقل أن يرى له نظير)[1] لكن هذه الحمامات كلها قد اندثرت منذ زمان طويل وعوضت بحمامات أخرى حديثة العهد نسبيا و لم يبق إلا حمام واحد هو حمام الصباغين أو حمام سيدي أحمد بن الحسن الغماري[2] وهو واقع في درب كانت به دكاكين الصباغين ولا يزال موجودا البعض منها إلى يومنا هذا وهذا الدرب له مدخلان مدخل مقابل لحي القران الصغير ومدخل مقابل لدرب مسوفة ومسجد الشيخ السنوسي.

وهذا الحمام الذي لحقه تغيير كبير ذهب ببعض مرافقة القديمة وببعض محاسنه يتألف من قاعة كبيرة مربعة الشكل في وسطها صحن مربع الشكل أيضا في وسطه حوض يحيط به جدار مغشى بالزليج وفي وسطه نافورة ذات أنبوب يتصاعد منه الماء وينصب في الحوض وتحيط بالصحن أروقة أربعة اثنان منهما مرتفعان عن الأرض بنحو شبرين معدان لنزع الثياب وتعليقها قبل الدخول إلى الحمام ولاستراحة المستحمين بعد الخروج منه وأما الرواق الرابع فمنه يكون الدخول إلى الحمام عينه أما سقف الأروقة فهو مؤلف من عقود وتحيط بالصحن من جوانبه الأربعة سوار حجرية تحمل أقواسا على شكل حدوة الفرس مجموعها ستة عشر قوسا ثلاثة في كل جانب من الجوانب الأربعة وأربعة في الزوايا الأربع وتعلوا الجميع قبة مثمنة الأضلاع في قمتها تخاريم لامعة.

وأما الحمام عينة الواقع في الرواق الشرقي فهو عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة الشكل سقفها مقبي وتخلله كوات النور المعروفة يدخل منها الضوء نهارا وفي جانبيها الأيمن والأيسر رواقان ينتهيان بقوسين محمولين على سارية صغيرة وسطى واثنتين داخلتين في الجدارين وحفرت في الجدار المقابل الباب بثقب صغيرة يدخل منها البخار وجعل في الرواق الأيمن صهريج للماء البارد وأما الماء الحار فإنه يجري في حوض حفر في وسط الجدار المقابل للباب كما يأتي الماء الحار من محل التسخين المجعول خارج الحمّام[3] وأخيرا إن ارض الحمام مفروشة بالبلاط المسخن جزء منه بقنوات جعلت تحته وهذا الجزء الذي يسمى الوسطى يستلقي عليه المستحمون أبدانهم قبل غسلها بالماء الساخن وبعد الفراغ من الغسل يلتف المستحمون في إزارين ويخرجون للقاعة الكبرى للاستراحة ثم يلبسون ثيابهم وينصرفون بعد أداء واجب من الأجرة للحمّامي.

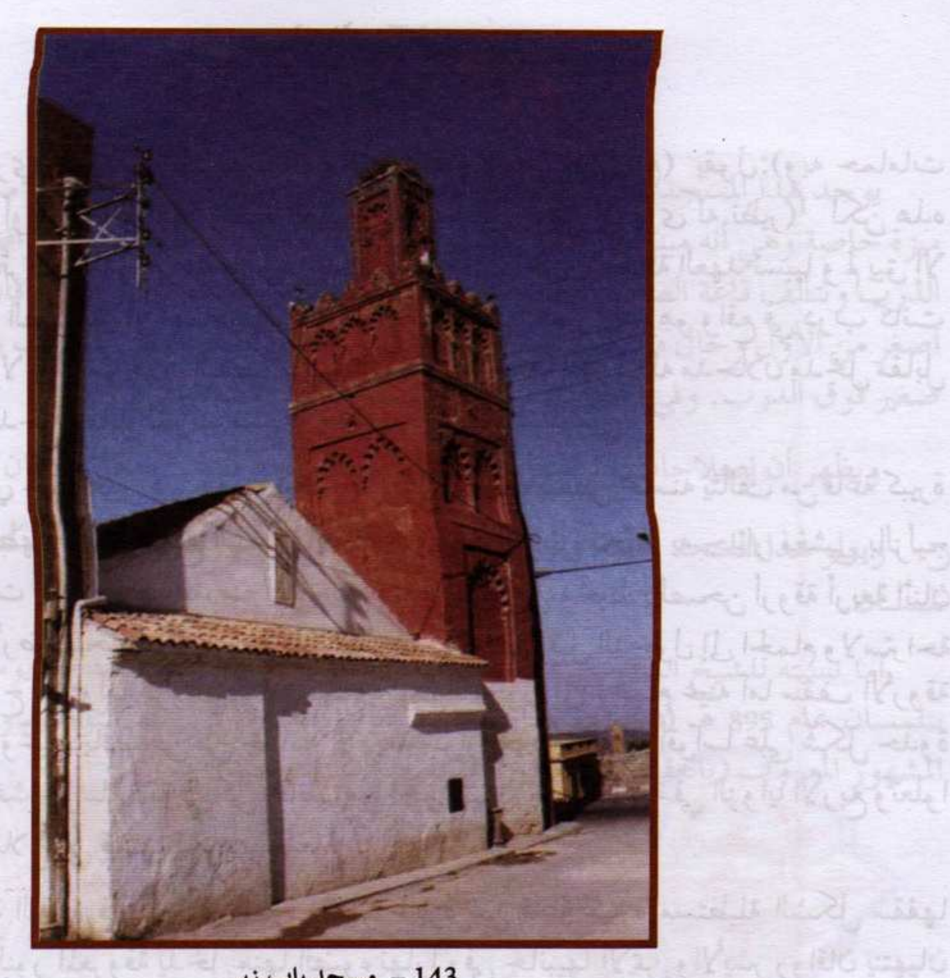
إن باب هذا الحمام يفضي إلى قاعة صغيرة مفروشة أرضها وجدرانها إلى نصف القاعة تقريبا بالزليج ذي اللونين الأزرق والأبيض وعلى جانبيها الغربي والجنوبي مصطبتان معدتان لجلوس المنتظرين من الرجال أو النساء ومن هذه القاعة الصغرى يقع الدخول إلى القاعة الكبرى بعد عبور الرواق الأول.

---

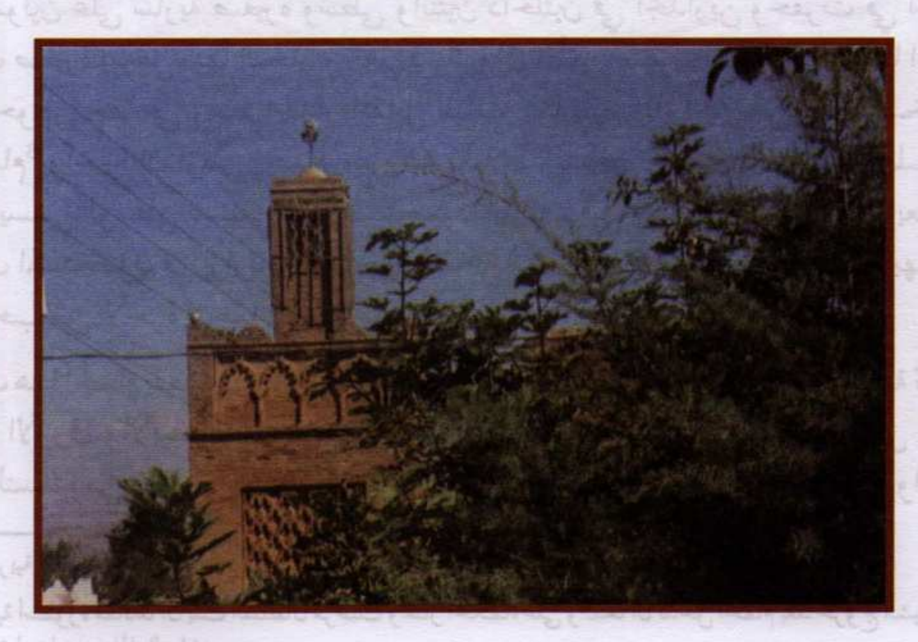
(1) "الرحلة المغربية" للعبدري ص 10 طبع قسنطينة (الجزائر).

(2) لهذه التسمية أسطورة مفادها أن بنت السلطان مرضت وأشار الحكماء على والدها أن تدخل الحمام بعد خروج الشيخ أحمد منه وأن تغسل بما يفضل عليه من الماء الساخن.

(3) هذا المحل يسمى الفرناق.



143 - مسجد باب زير



144 - مسجد سيدي الحسن بن مخلوف

مسجدا باب زير وسيدي الحسن بن مخلوف

(ص: 143 و144)

الأول من هذين المسجدين موجود داخل باب زير والثاني خارجها وكلاهما له صومعة معتدلة القامة لكن الأول منهما وإن أدخل عليه إصلاح غير رسمه الأول فلا زالت تقام به الصلوات الخمس إلى يومنا هذا أما الثاني منهما فهو خراب الآن ما عدا مئذنته مع أنه لعب دورا مهما أثناء القرون الوسطى حيث أنه كان مصحوبا بمدرسة انطمست معالمها تماما الآن بحيث إننا لا نعرف حتى موقعها وكلاهما أي المسجد والمدرسة منسوبان للشيخ سيدي أبي الحسن بن مخلوف الراشدي المتوفى بتلمسان عام 853 هـ (1453م) ولعلهما من بناء السلطان أبي العباس أحمد المشهور بالعاقل.

مسجد سيدي اليدّون

(ص:145)

يوجد هذا المسجد بدرب يسمى باسمه وهو واقع على يمين الدرب بعد المرور تحت ساباط قريب من ساحة الشهداء[1] ويدخل إليه عبر باب ذي قوس على شكل حدوة الفرس تعلوه شرعة وله مئذنة بسيطة في واجهته الشمالية.

أما قاعة صلاته فهي تتألف من ثلاثة بلاطات وثلاثة أروقة جعل المحراب في الجدار القبلي من أوسطها وقرب الجدار المقابل له يوجد ضريح سيدي اليدون الذي يسمى المسجد بإسمه وهو محاط بسياج من الخشب منقوش وملون بألوان متنّوعة.

ويرجع بناء هذا المسجد إلى العهد التركي وهو المسجد الذي شيده الأتراك بتلمسان نعم أنهم شيدوا مباني أخرى بهذه المدينة لكنها اندثرت كلها و لم يبق منها إلا دار البايلك الواقعة بالجنوب الغربي من صرح المشور وقد تقدم الكلام عليها.

هذه هي مساجد تلمسان التي لا تزال قائمة داخل أسوار المدينة وقد تعرضنا لوصف أهمها أما التي لم نتعرض لها فهي بسيطة لا حاجة بها تهم الزائر وأما المساجد القائمة والمندثرة الموجودة خارج المدينة فستتعرض لها في الصفحات التالية بعد ذكر المساجد المندثرة داخل المدينة.

وكان موقوفا على المساجد هذه في عهد الاحتلال ثلاثة وأربعون عقارا ينفق ريعها في ثراء الزيت لإنارتها ليلا.

---

(1) كانت هذه الساحة تدعى "المدرس" قبل الاستقلال و"رأس المصدع" في العهد التركي والمصدع معناه الطريق المهلة في الأرض الغليظة.

145 - مسجد سيدي اليدون

جوامع ومساجد تلمسان المندثرة

إن مساجد تلمسان المندثرة كثيرة منها ما اندثرت قبل الاحتلال الفرنسي ومنها ما اندثرت بعده فالمساجد المندثرة التي كانت داخل الأسوار هي: مسجد سيدي أحمد ومسجد الصباغين ومسجد المدرسة ومسجد سيدي عبد السلام ومسجد سيدي المراغي ومسجد الكرشولة ومسجد النور ومسجد سيدي البرارة ومسجد سيدي قلايجي ومسجد لالة مرفودة ومسجد سيدي عمران ومسجد سيدي عياد ومسجد المزوار ومسجد سيدي شعيب ومسجد سيدي يعقوب بسويقة ابن صالح ومسجد الحفرة ومسجد سيدي الحباك ومسجد سيدي الشعار ومسجد العقيبة ومسجد سيدي المازوني ومسجد سيدي البرادعي ومسجد باب إيلان ومسجد سيدي محمد بن عيسى ومسجد سيدي كيوان ومسجد الحدادين ومسجد المدرسة في الرحبة ومسجد السماط[1] وجامع الصنعة ومسجد سيدي مهماز ومسجد سيدي بويزار ومسجد سيدي النصر ومسجد درب بن مامي ومسجد درب الجماير ومسجد درب المطارحين ومسجد سيدي أنوار ومسجد سيدي الجبار ومسجد سيدي الكماد ومسجد المعدة ويضاف إلى هذه المساجد مسجد عين الكسور[2] الذي كان بالمنية خارج باب القرمدين ومسجد ستي الوصيلة الذي لا نعرف موقعه وجامع الخراطين وجامع الحلفاويين[3] وهذه المساجد الأربعة المضافة ورد ذكرها في كتاب (البستان) لابن مريم كما يضاف لها أيضا مسجد منشر الجلد وجامع رحبة القصر الوارد ذكرهما في كتاب (المسند الصحيح الحسن) لابن مرزوق الخطيب.

(1) أي بجانب الطريق والظاهر أن مكانه في مكان بيع الحوت بالجملة الآن.

(2) أرض ذات كسور أي صعود وهبوط.

(3) إن المساجد المذكورة في هذه القائمة لا تعرف مواقعها الآن إلا القليل منها وبالتقريب فقط كمساجد درب الصباغين وسيدي الحباك والشعار والمازوني والبرادعي وسيدي عمران والحفرة بدرب سلسلة وباب إيلان والمدرسة في الرحبة إلخ...

المنصورة وأطلالها

قد تقدم الكلام في القسم التاريخي من هذا الكتاب عن حصار تلمسان الطويل الذي دام ثمانية أعوام وبضعة أشهر وعن بناء مدينة المنصورة أثناء ذلك الحصار وقلنا أيضا أن الفاقة بلغت بأهل تلمسان مبلغا هائلا وأنه مات من سكانها قتلا وجوعا نحو مائة وعشرين ألف نسمة ولما اشتد الكرب إلى هذه الدرجة عزم السلطان أبو زيان الأول على الخروج والاصطلاء بنار معركة حاسمة إلا أنه في تلك الساعة الرهيبة التي ظن كل إنسان أن تلمسان ستذهب فيها فريسة لبني مرين انقض أحد العبيد على السلطان أبي يعقوب يوسف فقتله وانسحبت جيوشه من المنصورة بعد أن اشترطت على صاحب تلمسان أن لا يتعرض لها بسوء وحق لهذا أن يقول: (الكامل)

ضاقت ولما استحكمت حلقاتها — فرجت وكنت أضنها لا تفرج

وكانت المنصورة وقتئذ تحتوي على أسوار عامرة ودور شاهقة وحمامات كثيرة ومنتزهات بديعة وطرق كبيرة وشوارع عريضة ومساجد متعددة أضخمها الجامع الكبير ذي المئذنة الشامخة وقصر باهر لكن بسبب ما عملت به أيدي التخريب الذي أوقعه بنو عبد الواد بها عقب انصراف بني مرين بعد رفع الحصار عن تلمسان فإنه لم يبق من المنصورة إلا أطلالها الجليلة (ص:61) المحتوية على أسوار عالية وبروج عظيمة أكثرها خراب وعلى الجامع الكبير الذي لا تزال جدرانه قائمة (ص: 93و94) بفتحات أبوابه وخصوصا مئذنته العظيمة التي لا تزال مع ما أصابها من حوادث الزمان من مدهشات ما صنعته يد الإنسان في هذه الأكوان متحدية العصور والأوان.

وقلنا كذلك أن بني مرين عادوا إلى تلمسان بعد مضي تسع وعشرين سنة من انصرافهم عنها وحاصروها للمرة الثانية بقيادة السلطان أبي الحسن علي وأنهم نزلوا بالمنصورة وجددوا بناءهم بترميم ما أمكن ترميمه وإصلاح ما أمكن إصلاحه وان سلطانهم نزل بقصبتها بعد أن جدد بناء قصرها الذي دعاه (دار الفتح) وقد عثر بمكانه عل رخامة منقوش عليها مايلي: »الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الدار السعيدة دار الفتح عبد الله علي أمير المسلمين أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق فكملت سنة خمس وأربعين وسبع مائة عرفنا الله خيرها) وبعد حصار دام عامين كاملين وبضعة اشهر تمكنوا من فتح تلمسان والاستيلاء عليها لكن بعد انصرافهم عنها فإن أهل تلمسان خربوا المنصورة للمرة الثانية وتركوها قاعا صفصفا ولسان حالها ينشد قول الشاعر (الطويل):

ديار بأكناف الملاعب تلمع — وما أن بها من ساكن وهي بلقع

ينوح عليها الطير من كل جانب — فيصمت أحيانا وحينا يرجع

فخاطبت منها طائرا متفردا — له شجن في القلب وهو مودع

فقلت على ماذا تنوح وتشتكي — فقال على دهر مضى ليس يرجع

وهكذا لما جاء أبوعنان فارس لحصار تلمسان للمرة الثانية فإنه لم ينزل بالمنصورة كما فعل والده من قبل.

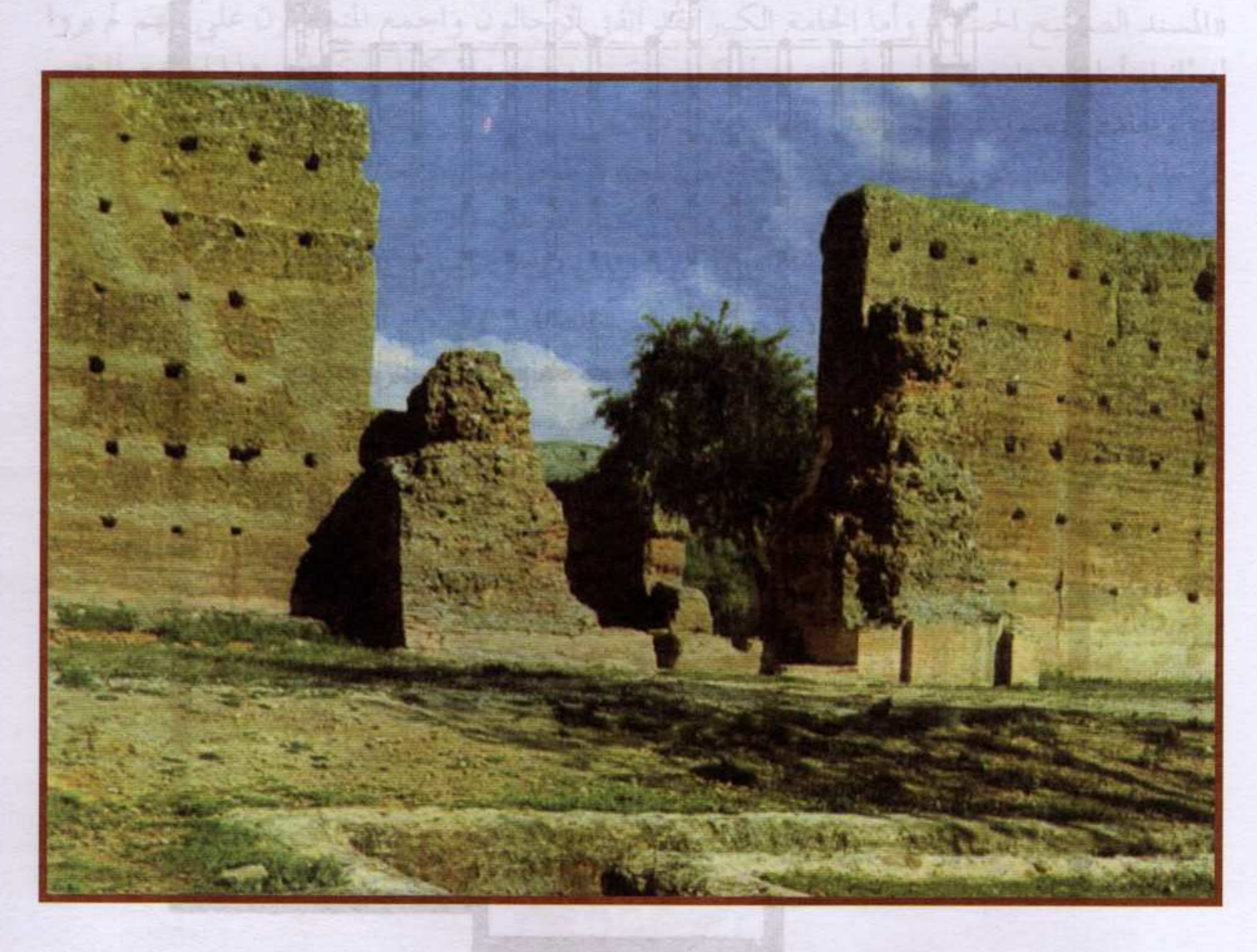
وكان للمنصورة أربعة أبواب حسبما ذكر الإمام ابن مرزوق الخطيب في كتابه: «المسند الصحيح الحسن» باب فاس غربا وباب هنين شمالا وباب المجاز[1] شرقا وهناك باب رابع جنوبا لم يذكر اسمه ابن مرزوق ولعله باب خارجي كان يصل القصبة بالفحص[2].

(1) في رواية أخرى باب الحجاز وهو خطأ والصواب ما اثبتناه لأن المراد بالمجاز الطريق والمسلك الذي يسلكه الجند المريني لمحاربة الجند العبد الوادي عند باب الخميس الذي معناه: الجند قال أبو تمام: (البسيط) والعلم في شهب الأرماح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب.

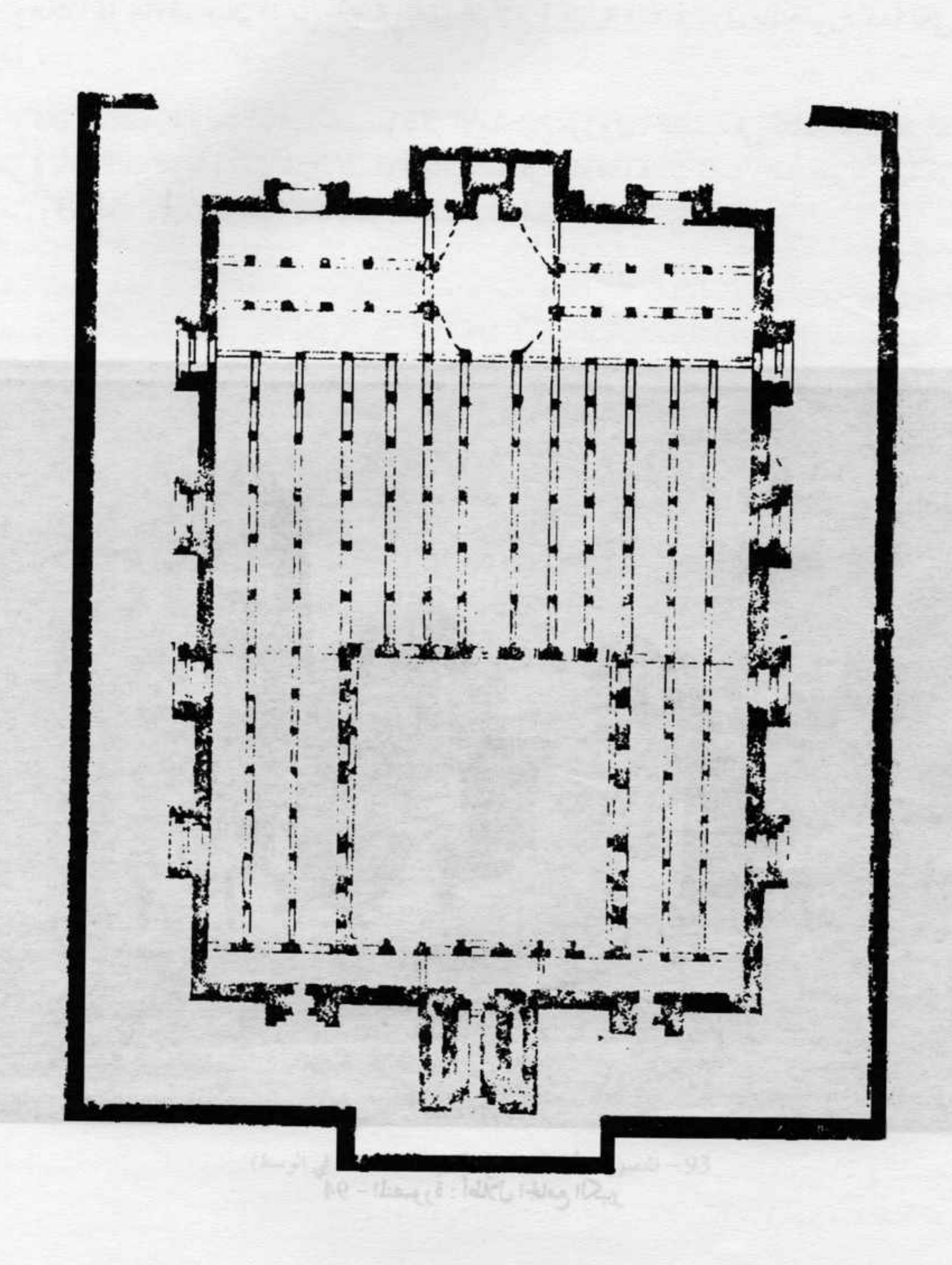
(2) بدليل وجود جامع القصبة لانه كان قرب كل باب من الأبواب الثلاثة المذكورة مسجد يعرف به ولان القصبة تبني غالبا في مكان مرتفع من البلدة.



93 – المنصورة : أطلال الجامع الكبير (قاعة الصلاة في الوسط)



94 – المنصورة : أطلال الجامع الكبير



رسم رقم 3 : تلمسان (المنصورة) رسم الجامع الكبير قبل خرابة

وكان قرب كل باب من هذه الأبواب الأربعة مساجد وكان الجامع الأعظم (رسم: 3) في وسط المدينة وكان له مائة متر طولا وستون مترا عرضا وكان له ثلاثة عشر باب منها أربعة شرقا وأربعة غربا واثنان قبلة عن يمين المحراب ويساره وثلاثة شمالا واحد تحت المئذنة وهي ميزة خاصة بهذا الجامع واثنان عن يمينه ويساره وكان لهذا الجامح قاعة صلاة تتألف من تسعة بلاطات وثلاثة عشر رواقا ومن صحن مربع الشكل مساحته 900 مترا مربعا في وسطه حوض للوضوء وتحيط به أروقة ثلاثة من جانبيه الشرقي والغربي وواحد من جانبه الجوفي وقد ترك لنا الإمام ابن مرزوق السالف الذكر وصفا رائعا لهذا الجامح الذي شاهده بعينه بعد تخريبه – وليس الخبر كالعيان – فاسمع إليه يقول في كتابه «المسند الصحيح الحسن» وأما الجامع الكبير فقد اتفق الرحالون واجمع المتجولون على أنهم لم يروا له ثانيا، أما أن جامع بني أمية تم حسنه لما كمل ترتيب وضعه وإن كملت تتمات هذا الجامع لما قصر عنه وجامع المنصور بمراكش الذي يضرب به الأمثال، وإن كان أكبر مساحة إلا أن ما كان في هذا من الرخام والأحكام أغرب وأعظم ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر وهو رحمة الله عليه على فرسه وأنا على بغلتي من أسفلها إلى أعلاها وكأننا في وطاء من الأرض وكانت على الباب الجوفي منه ولها مجريان يطلع فيهما إلى أعلاها وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار بصناعة مختلفة من الأحكام في كل جانب ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح وهو من حديد يشبه أن يكون صاريا. وأما الثريا فعملها كان على يدي وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي على ما هي عليه الآن في جامع تلمسان وتشتمل على ألف مشكاة أو نحوها وعهدي بقدر وزنها مرسوم في أسفلها ومبين على قدر جرمها وأما المنبر فقد أجمع الصناع يومئذ على أنه لم يعمل مثله في المعمور وقد اتفقوا عل أن منبر قرطبة ومنبر الكتبيين بمراكش أحفل منابر المعمور صناعة فإن أهل المشرق لم يجر لهم في بنائهم احتفال في نقش الخشب فبلغ من منبر قرطبة المنقوشة: عدة قطعات وعورضت بما اشتمل عليه المنبر فلم يوجد بينهما مناسبة وفيه من الأشكال قدر البندق والحمص وفيه من التحاشي قدر البرة ونحوها إذا رأيته رأيت العجب فالله حسيب من تسبب في خراب ذلك كله وهو مجازيه فلقد محا رسوما يفخر بها أهل الإسلام ويعتز بها الدين ما بقيت الأيام[1] ثم قال فيما بعد: «وأجري لهذا الجامع الأعظم نهرا يشق من أول المدينة إلى الجامع المذكور في ساقية تمر تجري منها سقايات متعددة» ولا تزال هذه الساقية قائمة إلى يومنا هذا.

---

(1) المنتخب من «المسند الصحيح الحسن» لابن مرزوق الخطيب ص 34 وما يليها نشر ليفي بروفنسال (باريس) بدون تاريخ.



95 – المنصورة : رتاج الباب الرئيسي



96 – المنصورة : مئذنة الجامع الكبير والباب الرئيسي تحتها

ولنعد إلى الباب الجوفي (ص: 95) والمئذنة (ص: 96) الشامخة المبنية بالحجارة الصلبة التي يبلغ ارتفاعها الآن أربعين مترا بعد أن سقطت طبقتها العليا و لم تبق منها إلا الطبقة السفلى فإن هذه الطبقة تحتوي على أربعة أنواع من الزخارف: كل نوع منها مباين لصاحبه: فأول ما يبصر المبصر رتاجا مقوسا يحيط به إطار مؤلف من حفريات متتابعة رسمت الحفرية الأولى في مستطيل يبلغ عرضه ثمانية أمتار زخرف بحاشية تشتمل على خطوط أندلسية ذكر فيها اسم مشيد هذا الجامع وتاريخ تشييده وزاويتين رسمت فيهما أشكال عربية ووشي وسط كل منهما بتمثال صدف بارز ثم أن الحفرتين الثانية والثالثة زخرفت كل واحدة منهما بقوس ذي رؤوس مسننة وأما الحفرية الرابعة فهي عبارة عن قوس غير مسنن يرتاح على عمودين من المرمر الخالص وفوق ما ذكر يبصر المشاهد شرفة عجيبة وضعت فوق التماثيل المدلاة من دون أن تجعل لها أعمدة داخلية تحملها كما يبصر كذلك رواقا منقوشا بتقاطيع على شكل أوراق الأشجار وأزهارها.

وفوق ما ذكر تشاهد زخرفة محتوية على صفحة كبيرة شبكية الهيئة ترتاح على رواقين لهما شكل البكارين ثم طبقة وسطى مرتاحة على قوس صغير تبتدئ من الأسفل وتنتهي عند ثلاثة أرباع هذه الصفحة، حفرت فيها نوافذ ضيقة.

وأما الطبقة العليا من هذه المئذنة (ص:97) فإنها ألفت من الرواق ذي الأقواس المنكسرة والأعمدة الرشيقة الممشوقة كما هو موجود في المآذن الأندلسية والمغربية عادة.

إن هذا البناء الضخم لا يزال من حيث مظهره العام وعظمة تجسمه وضخامته وأبهة بنائه دون خروجه عن أصول الانسجام في أكمل معانيه أنموذج فذ لعصر الهندسة المعمارية والفن العربي بهذه البلاد.

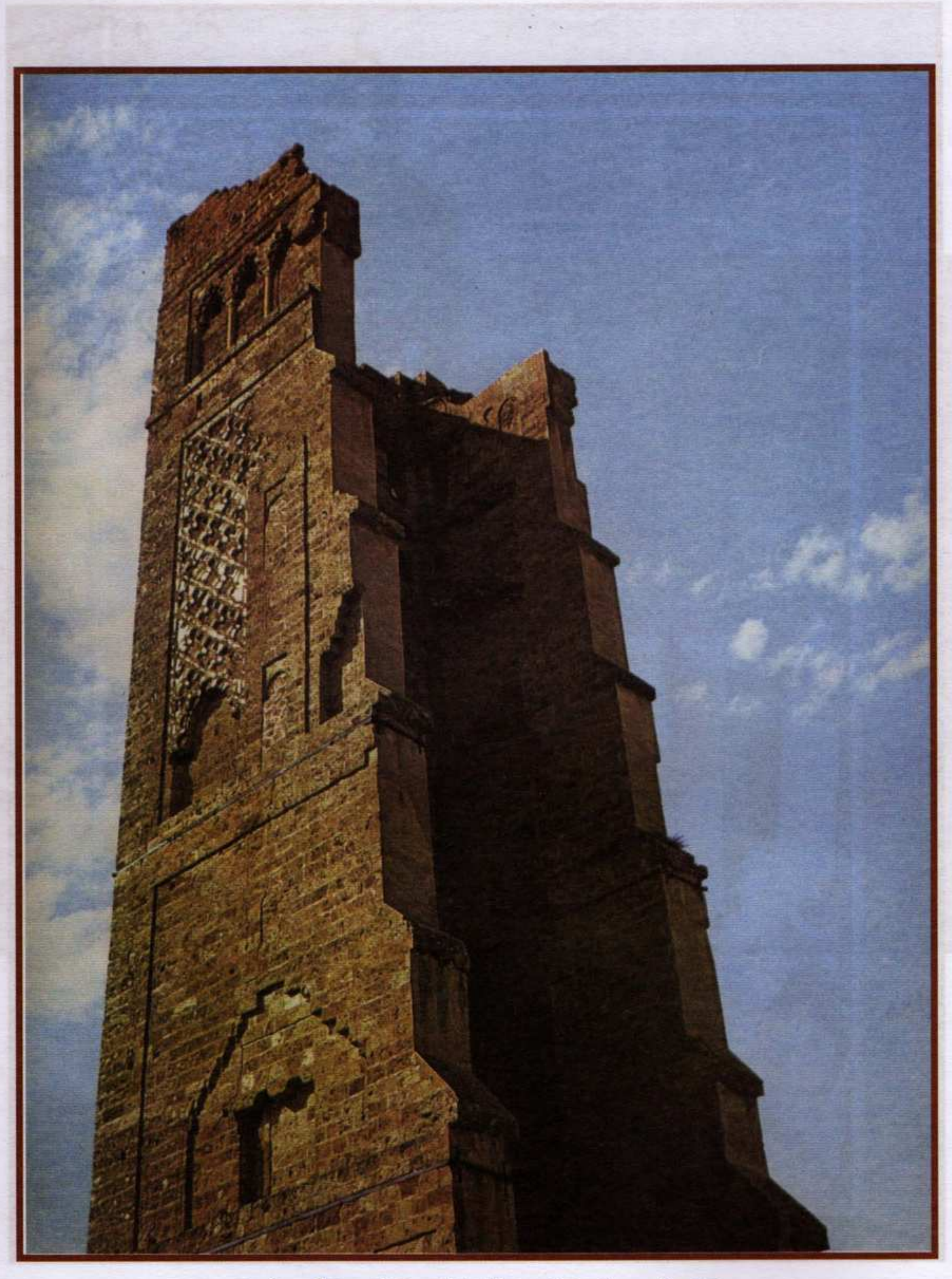
ولنختم الكلام عن المنصورة بما قاله الإمام أبي مرزوق الخطيب السالف الذكر عن جامع قصبتها المندثر. »وأما ما أنشأه بمدينة تلمسان مما يرجى من الله إعادة رسمه وتجديد أثاره فكان مما لم يعهد منه في سالف الأزمان ولا سبك شكله في قواعد البلدان فمن ذلك جامع القصبة المشتمل على المحاسن التي لم يجتمع مثلها من حسن وضعه وجمال شكله وترتيب رواقاته واعتدال صحته وحسن شأوه ومعين مائه واتساع رحابه واحتفال ثرياته الفضية منها والصفرية وغرابة منبره»[1].

وعلى يمين الذاهب من المنصورة إلى تلمسان بنحو ستة مائة متر يوجد باب من الآجر علوه نحو التسعة أمتار وعرضه نصف ذلك يدعى باب الخميس أي باب الجيش[2] مما يدل على أن المعارك بين بني مرين وبني زيان كثيرا ما كانت تقع قرب هذا الباب سيما أنه معضد بور من الرضام[3] مخرب الآن تمتد من الباب شمالا إلى سفح الجبل جنوبا وأنه بني من أجل الدفاع عن حاضرة المنصورة وبالقرب من هذا السور يوجد المصلى الذي كان يصلي به أهل المنصورة صلاة العيدين: الفطر والأضحى وكان ذلك المصلى يحيط به سور لا زالت منه بقايا إلى يومنا هذا.

(1) من نفس المصدر المذكور سابقا.

(2) لأن الجيش كان يتركب من خمسة فيالق المقدم والمؤخر والقلب والميمنة والميسرة تشبها له بالطائر.

(3) تراب مصلب ومكتنز.



97 – المنصورة : ما بقي من المئذنة العجيبة لجامعها الكبير المندثر



98 – حي العبّاد الفوقي:
نرى واجهة الجامع ومئذنته وبابا صغيرا وهو باب يدخل منه إلى الضريح وإلى الجامع ويصعد على يمين هذا الباب الصغير إلى المدرسة ويدخل من يسار الباب إلى دار السلطان



99 - أطلال مسجد أبي إسحاق الطيّار بالعبّاد السفلي :
نرى كذلك الطريق الحديث المؤدّي إلى العبّاد الفوقي

قرية العبّاد وأبنية سيدي أبي مدين

العباد قرية عتيقة (ص:98) واقعة في الجنوب الشرقي من تلمسان تبعد عنها بنحو الميلين ومبنية في سفح جبل البعل (بفتح العين) الذي يشرف عليها بغابته ذات الاشجار الوارفة الظلال كما تشرف هي أيضا على واد الصفصيف وما على حافتيه من البساتين الخضراء والحدائق الغناء والرياض الفيحاء واسم العباد مشتق من العبادة لأنه جمع عابد إذ كان في أول الأمر رباطا يجتمع به النساك والزهاد والمتبتلون بقصد الانقطاع لعبادة الله والجهاد في سبيله قال العبدري الذي زار تلمسان عام 688 هـ (1289م) عن العباد في رحلته «وبظاهرها (تلمسان) في سند الجبل موضع يعرف بالعباد وهو مدفن الصالحين وأهل الخير وبه مزارات كثيرة ومن أعظمها وأشهرها قبر الصالح القدوة فرد زمانه أبي مدين رحمه الله ورضي عنه ورزقنا بركته وعليه رباط مليح مخدم مقصود»[1] وكان العباد في سالف الأزمان ينقسم إلى قسمين العباد السفلي والعباد الفوقي أو العلوي وكان الأول منهما يمتد من عين وانزوتة إلى سيدي أبي إسحاق الطيار وكانت به على ما قيل خمسة مساجد منها واحد بقرب العين المذكورة وقد وقفت بنفسي على نصف دائرة محرابه التي لم تندثر إلا بعد أن بني ذلك المكان وأما المسجد الثاني فإنه كان شرق ضريح الشيخ محمد السنوسي ولا يزال نصف دائرة محرابه بارزا إلى يومنا هذا ومكانه صار مقبرة وأما المسجد الثالث بل الجامع فإنه كان قرب ضريح سيدي المجاصي ولا تزال مئذنته قائمة إلى الآن لا ينقصها إلا الجامور وأما المسجد الرابع فهو مسجد سيدي أبي إسحاق الطيار(ص: 99)

وهذا المسجد قد ذكره في البستان ابن مريم ولا تزال بعض سواريه وقناطره المخربة قائمة إلى اليوم وأما المسجد الخامس فإنه يقال أنه كان قرب ضريح سيدي علي بن نقيم[2]، وكان بالعباد السفلى دور وحمامات وأسواق ومنتزهات قد اندثرت معالما وعفت رسومها من دون أن نعرف لذلك من سبب سوى ما جاء في الاسطورة التي ملخصها أن فتنة عظيمة وقعت بين أهل أقادير وأهل العباد السفلي وأدت إلى حرب أهلية بين سكان المدينتين من أجل وشاية قام بها عبد أسود فكان مآلها الخراب والدمار لكل منهما[3] والله أعلم بالحقيقة.

وأما العباد الفوقي أو العلوي فإنه هو أيضا كان به خمسة مساجد قد اندثرت و لم يبق منها إلا جامع سيدي أبي مدين أما المساجد الأربعة المندثرة فهي مسجد سيدي إبراهيم النعار ومسجد سيدي الهواري ومسجد الرحمة ومسجد صالح، وهذا العباد الفوقي تحيط به من جوانبه الأربعة بساتين كثيرة ذات أشجار باسقة تجري من تحتها أنهار بمياه غزيرة إلا أن دوره قديمة وطرقه ضيقة وملتوية تتخللها عقبات

---

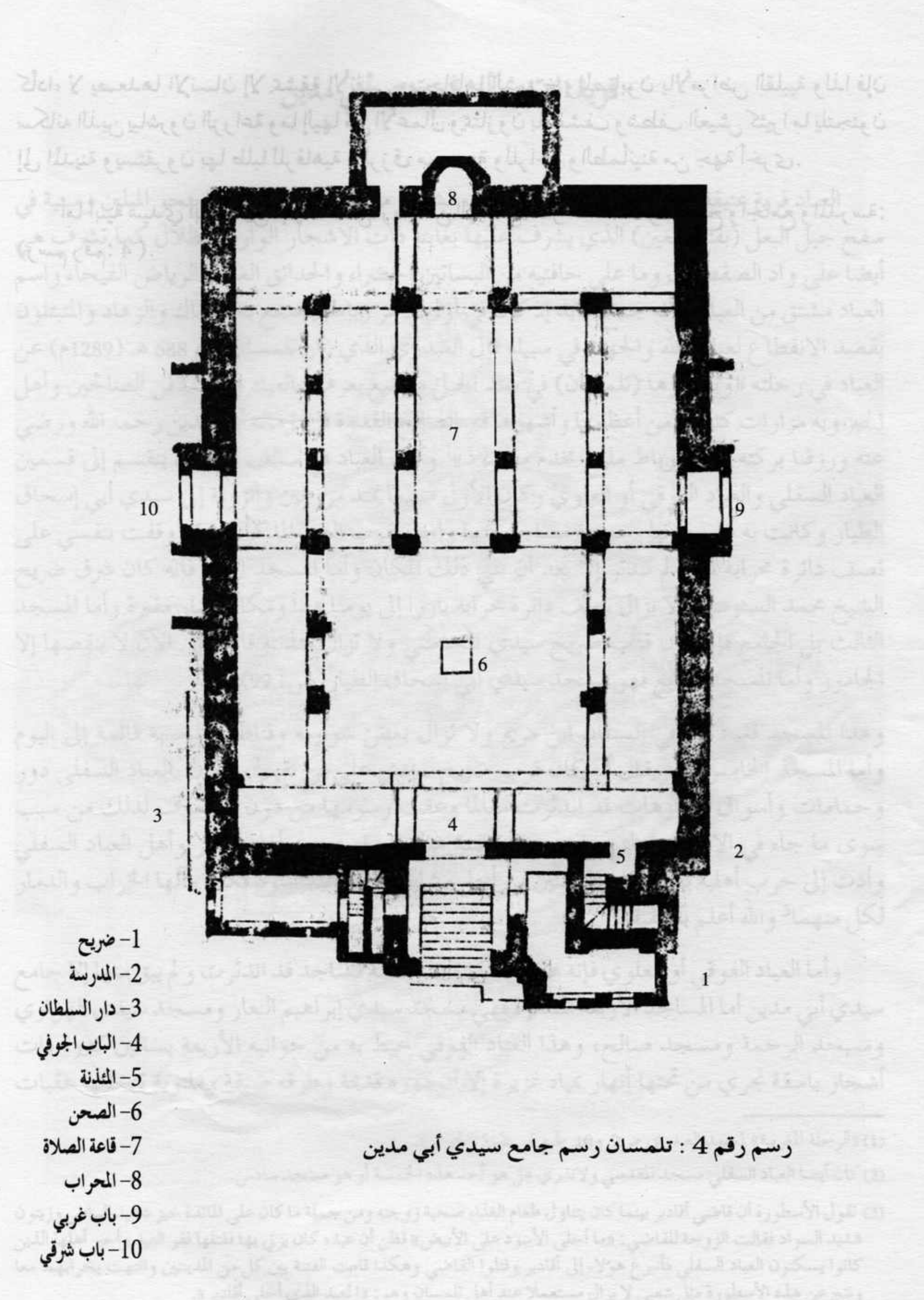
(1) «الرحلة المغربية» لمحمد العبدري ص9 و10 طبع قسنطينة (الجزائر).

(2) كان أيضا العباد السفلي مسجد المقدسي ولاندري هل هو أحد هذه الخمسة أو هو مسجد سادس.

(3) تقول الأسطورة أن قاضي أقادير بينما كان يتناول طعام الغذاء صحبة زوجته ومن جملة ما كان على المائدة خبز شديد البياض وزيتون شديد السواد فقالت الزوجة للقاضي: «ما أحلى الأسود على الأبيض» فظن أن عبده كان يزني بها فقتلها ففر العبد وأخبر أهلها الذين كانوا يسكنون العباد السفلي فأسرع هؤلاء إلى أقادير وقتلوا القاضي وهكذا قامت الفتنة بين كل من المدينتين وانتهت بخرابهما معا ونتج عن هذه الأسطورة مثل شعبي لا يزال مستعملا عند أهل تلمسان وهو: «ا لعبد الذي أخلى أقادير».

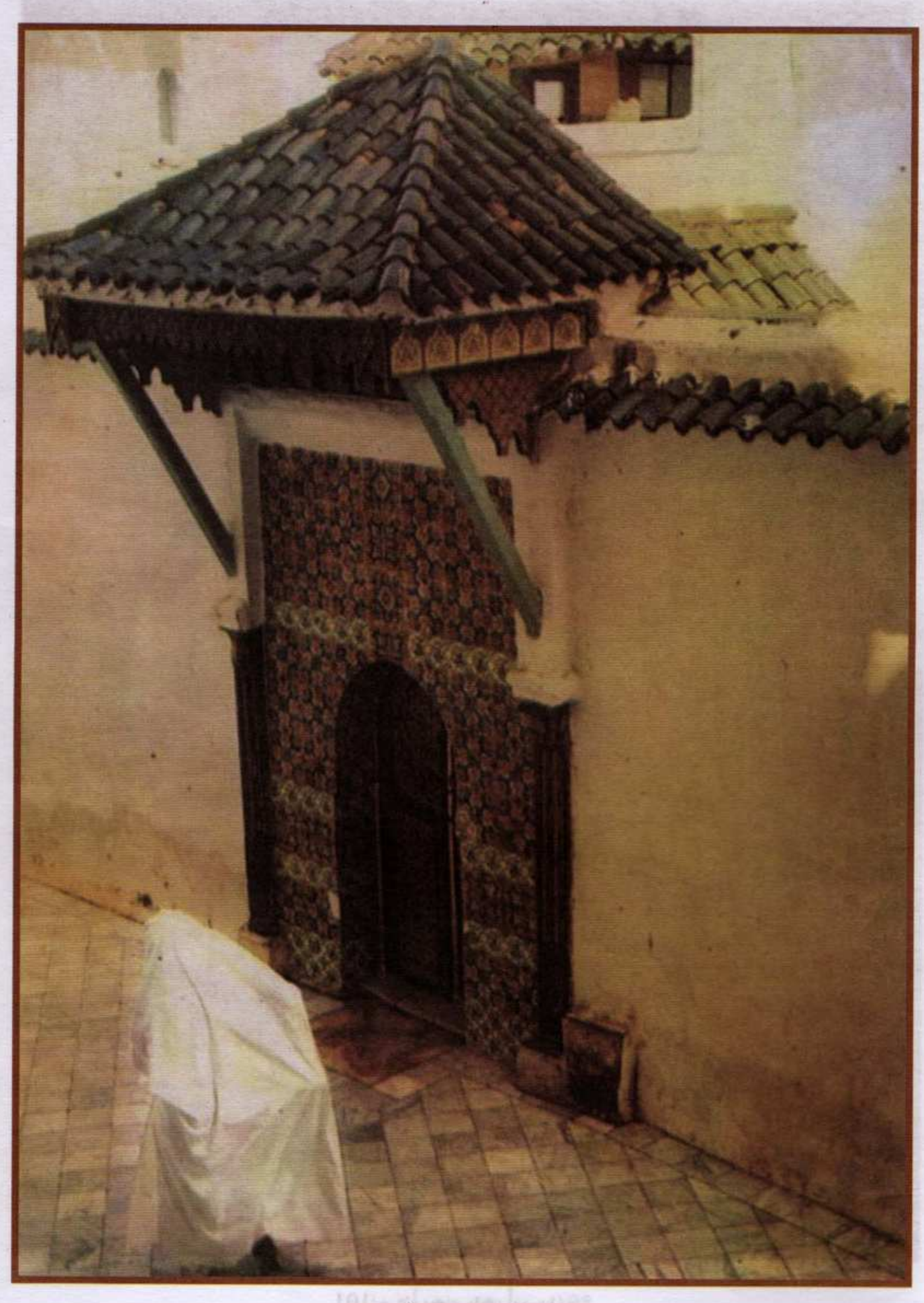
كأداء لا يصعدها الإنسان إلا بمشقة الأنفس ويتجافاها الشيوخ والمصابون بالأمراض القلبية ولذا فإن سكانه الذين يباشرون الزراعة وما إليها من الأعمال ويمتازون بالتقشف وشظف العيش كثيرا ما يلتجئون إلى المدينة ويستقرون بها طلبا للرفاهية والرزق من جهة وللراحة والطمأنينة من جهة أخرى.

أما أبنية سيدي أبي مدين فإنها تشمل أربعة من الهياكل: دار السلطان والضريح والجامع والمدرسة: (رسم رقم: 4).

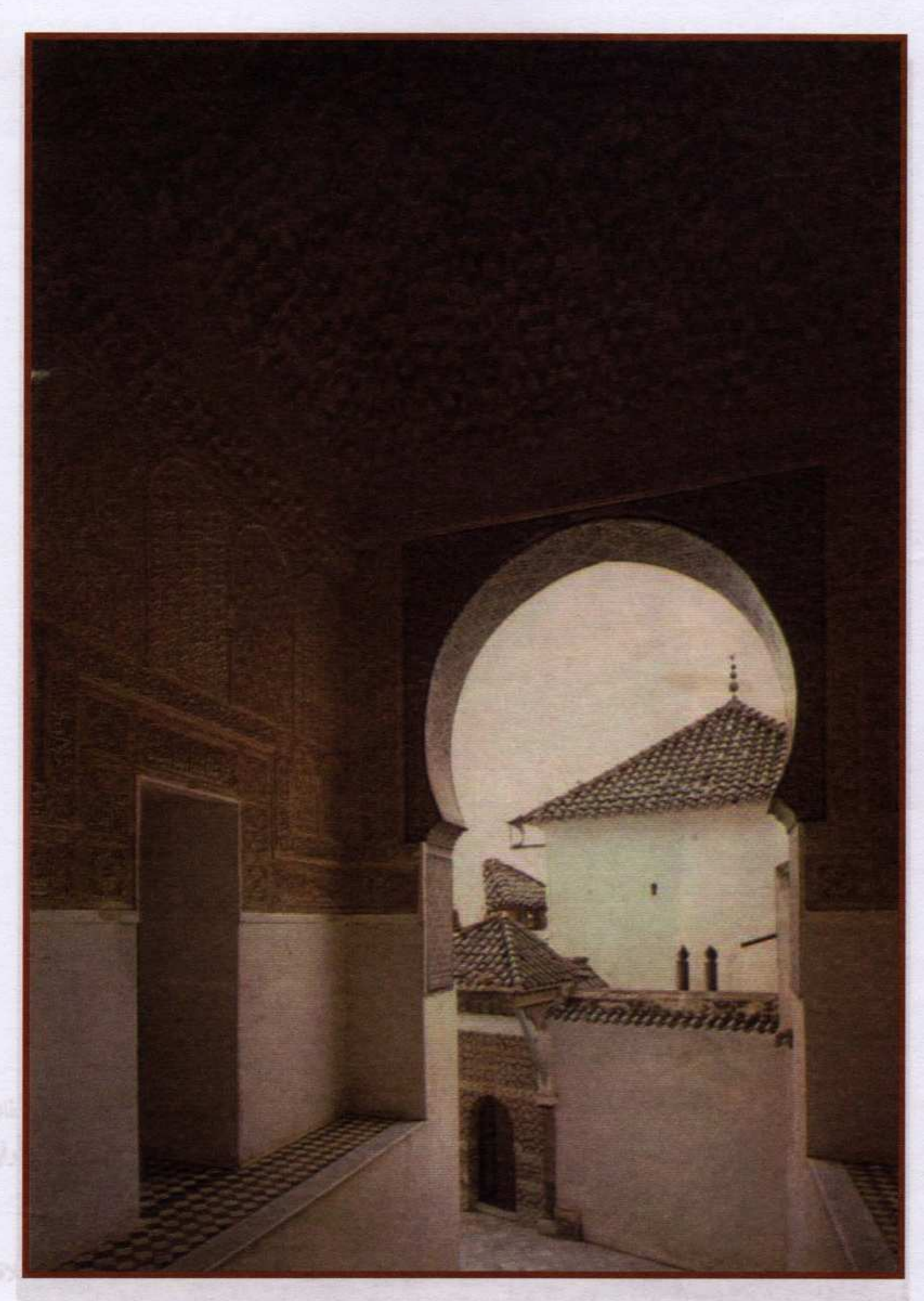


1- ضريح
2- المدرسة
3- دار السلطان
4- الباب الجوفي
5- المئذنة
6- الصحن
7- قاعة الصلاة
8- المحراب
9- باب غربي
10- باب شرقي

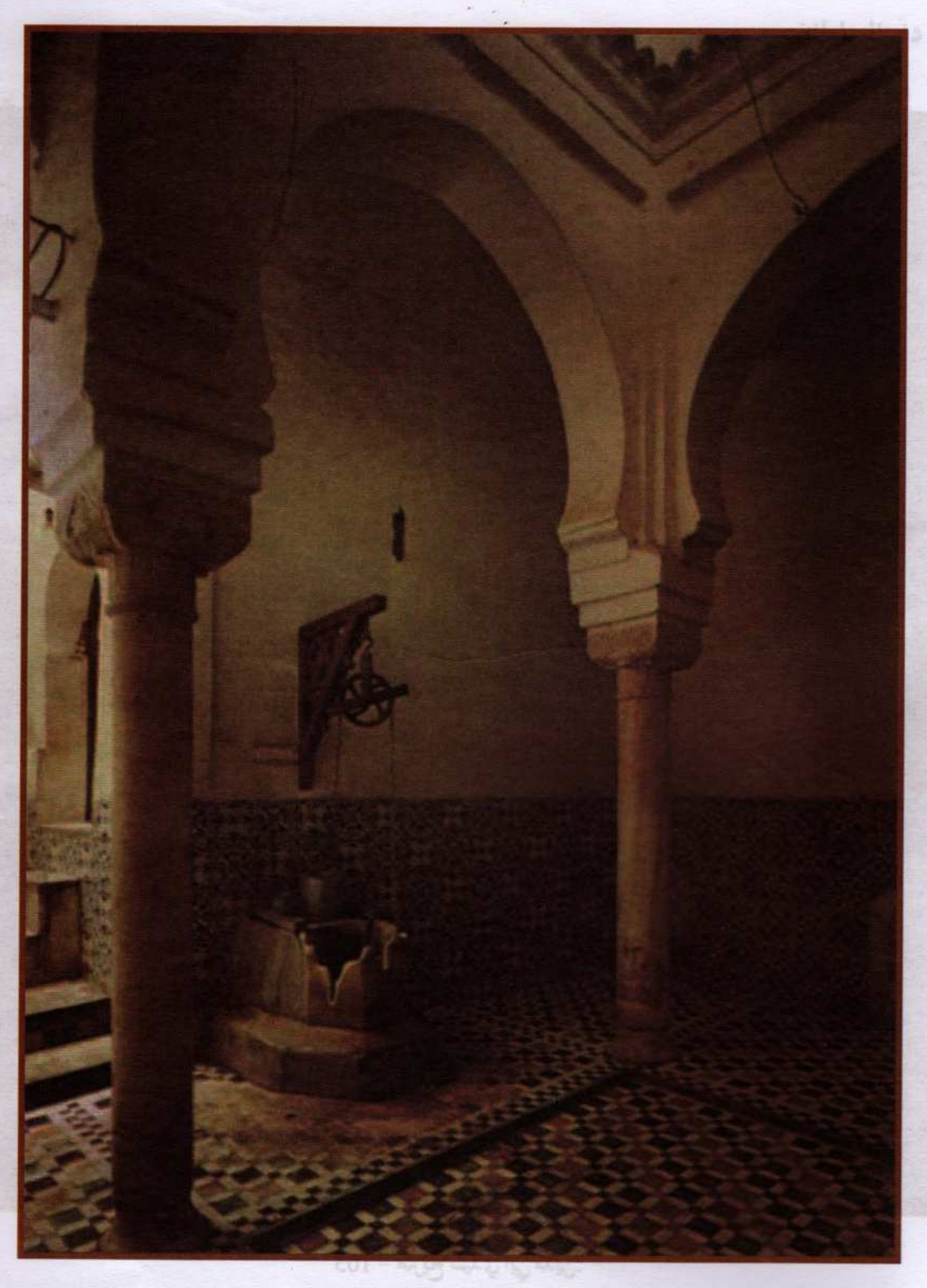
رسم رقم 4 : تلمسان رسم جامع سيدي أبي مدين



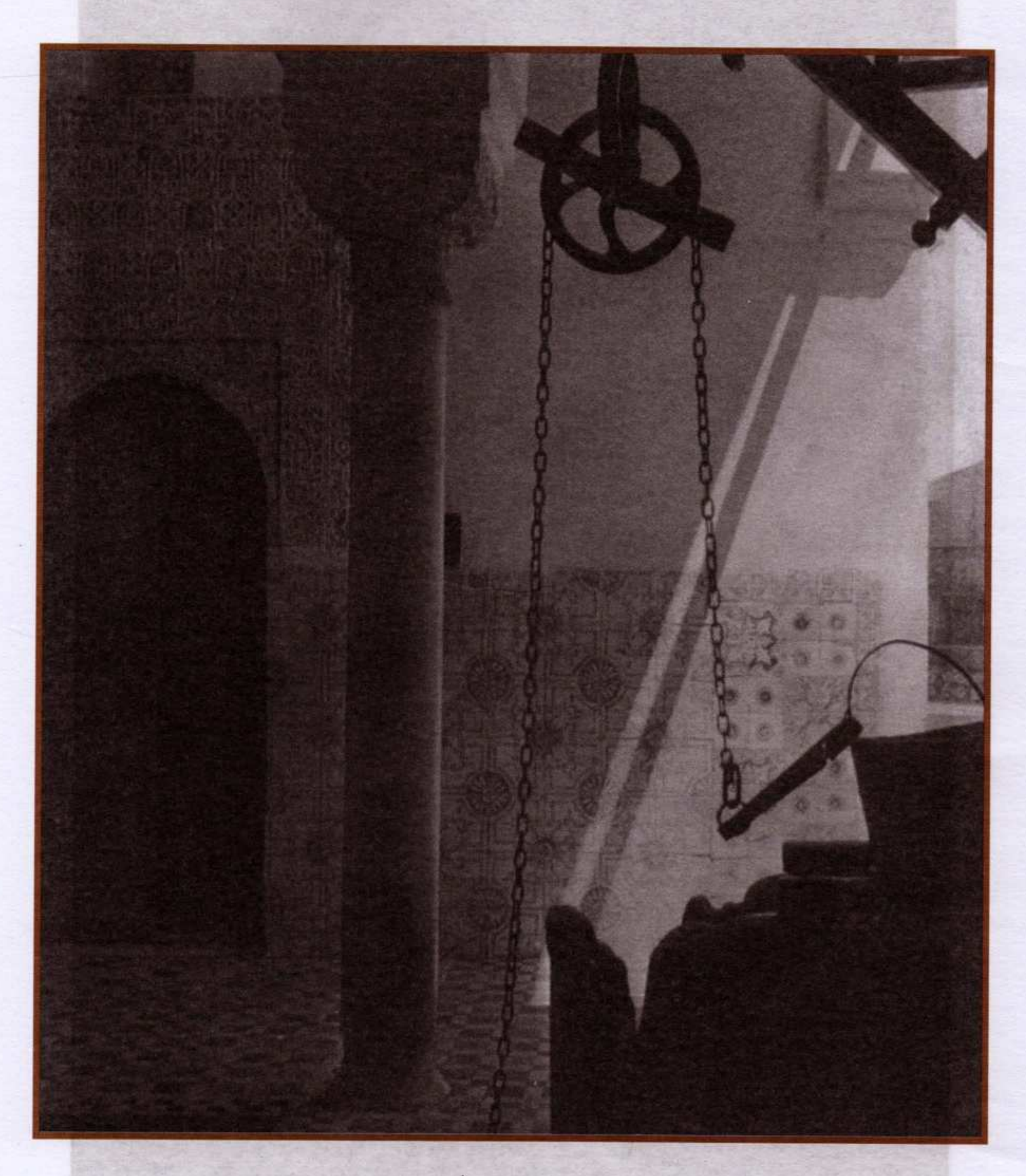
100 - ضريح سيدي أبي مدين:
الباب الخارجي



101 - ضريح سيدي أبي مدين:
نرى من وراء الباب الجوفي الضخم لباب الخارجي
للضريح والسقف المقرمد للضريح



102 - ضريح سيدي أبي مدين:
الصحن الذي يحتوي على أروقة وقبة وأعمدة من المرمر
وشواهد القبور بعض العلماء والبئر



103 - ضريح سيدي أبي مدين:
باب الضريح والبئر

1 - **دار السلطان:**

إذا وصل الزائر إلى باب سيدي أبي مدين فإن أول ما يشاهد فوق ذلك الباب شرعة خشبية يرجع تاريخها إلى عهد الأتراك فإذا دخل الباب وجد عن يساره بابا عريضا يؤدي إلى دار السلطان وهي عبارة عن مجموعة أطلال دارسة لكن رسومها لا تزال بارزة تدل عليها وجدران مخربة لا زالت تحتفظ في بعض جهاتها بزخرفتها الجبسية وأروقة ذات قناطر مقوّسة.

2 - **الضريح:**

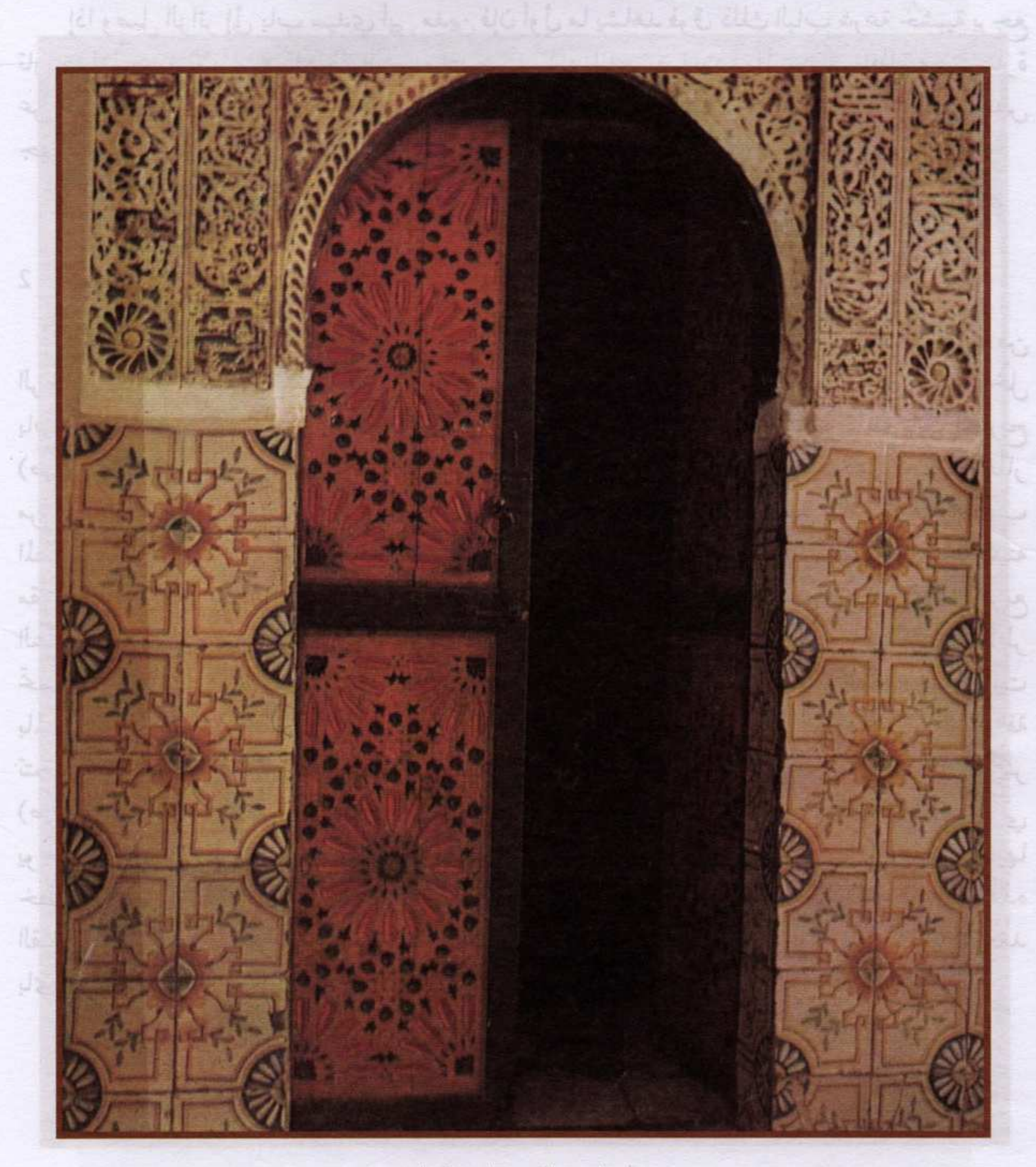
فإذا خرج الزائر من دار السلطان وتقدم إلى الداخل فإنه يجد أمامه فناء طويلا مفروشا بمربعات من الرخام ينتهي في واجهته الشرقية بباب من الخشب وفي الزاوية الغربية من هذا الفناء وعن يمين الداخل باب دار المقدم أو وكيل الضريح[1] وفي وسط الفناء مدرج يصعد منه إلى الجامع ويقابله باب الضريح (ص: 100 و 101) الذي ينزل إليه بواسطة مدرج أيضا وهو باب صغير ذو قوس منكسر يحيط به إطار من الفسيفساء أو الزليج ذي الألوان المختلفة وتعلوه شرعة ترتاح على عمودين صغيرين من الخشب المطلي لهما تاجان بديعا الشكل. فإذا نزل الزائر المدرج المفروش بمربعات من الزليج رأى عن يمينه مقبرة صغيرة تضم رفات العلماء من أهل تلمسان أو العباد ثم يجد نفسه في صحن (ص:102) مربع الشكل تحيط به أروقة على شكل حذوة الفرس في غاية الصنعة والإتقان سقفه قبة محمولة على قناطر تحملها أربعة أعمدة من المرمر ذات تيجان لطيفة جيء بها على ما قيل من «دار الفتح» التي كانت بالمنصورة وأرض هذا الصحن وأسفل جدرانه مغشاة كلها بالفسيفساء أو الزليج ذي الألوان البراقة تتخللها شواهد من الرخام لقبور بعض العلماء وعلى يسار الداخل أي في الرواق الجنوبي توجد بئر (ص:43) عميقة ذات ماء عذب تحيط بها حرزة من المرمر وعن يمين الداخل أي في الرواق الشرقي يوجد باب الضريح (ص: 103 و 104) وفوق هذا الباب يشاهد إطار ذو حواش جبسية رسمت عليها خطوط عربية يرجع وضعها إلى العهد التركي ودونك نص هذه الخطوط: «الحمد لله أمر بتنميق هذه القبة المباركة المشتملة على ضريح سيدي أبي مدين أدركنا الله برضاه آمين الأمير سيدي عبد الله محمد باي أيده الله ونصره وجعل الجنة منزله عام (1208هـ) ثمانية ومائتين وألف: (مجزوء الرجز).

أنظر إلى الدار الأنيـــــــــق   تراه في جيد شريـــــــــــق

نظمه فتى عشيـــــــــــق   الهاشمي بن صار مشيـــــــق[2]

(1) كانت هذه الدار في القديم زاوية يأوي إليها الغرباء وأبناء السبيل لكنها خربت فجدد بناءها الأتراك وجعلوها سكنى لوكيل الضريح.

(2) لا تزال درية هذا الفنان موجودة بتلمسان إلى يومنا هذا.



104 - الباب المفتوح الداخلي لضريح
سيدي أبي مدين

وأما داخل الباب فهو بيت مربع يعلوه سقف ملون جميل الشكل مقسم داخلا إلى اثنتي عشرة صفحة وأما خارجها فهو سطح هرمي الشكل ذو أربعة أوجه مغشاة كلها بالقرمود الأخضر الجميل ولا يدخل الضوء إلى هذا البيت المشتمل على ضريح سيدي أبي مدين يمينا وضريح سيدي عبد السلام التونسي يسارا إلا من أربعة نوافذ (ص: 105 و 106) صغيرة محفورة في الجدران المغشاة بأنواع الحرير والديباج كما أن الضريحين يعلو كل واحد منهما تابوت مغشى بأغطية من الملف والحرير وعلى أرض البيت زرابي مبثوثة وفي جوانبه مصابيح وشموع ومباخر كثيرة وتفوح فيه روائح العطور المختلفة.

ولا يفوتنا هنا أن نقول: أن أبا مدين بعد رجوعه من الشرق استقر ببجاية وانتصب للتدريس بها ونفع الماهر حتى سعى به بعض الحساد إلى الخليفة الموحدي بمراكش فبعث إليه فلما سمع أهل بجاية ذلك عظم عليهم أمره فقال أبو مدين: «أذهب والله غير أن الناس لا يروني ولا أراهم» فلما قرب من تلمسان قال: «أحملوني على بغلة فالموضع الذي تبرك فيه فذلك قبري» فبركت في العباد ودفن فيه فصار رحمة لأهل تلمسان ومن زاره حتى قال في ذلك شاعرها أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي:(الكامل)

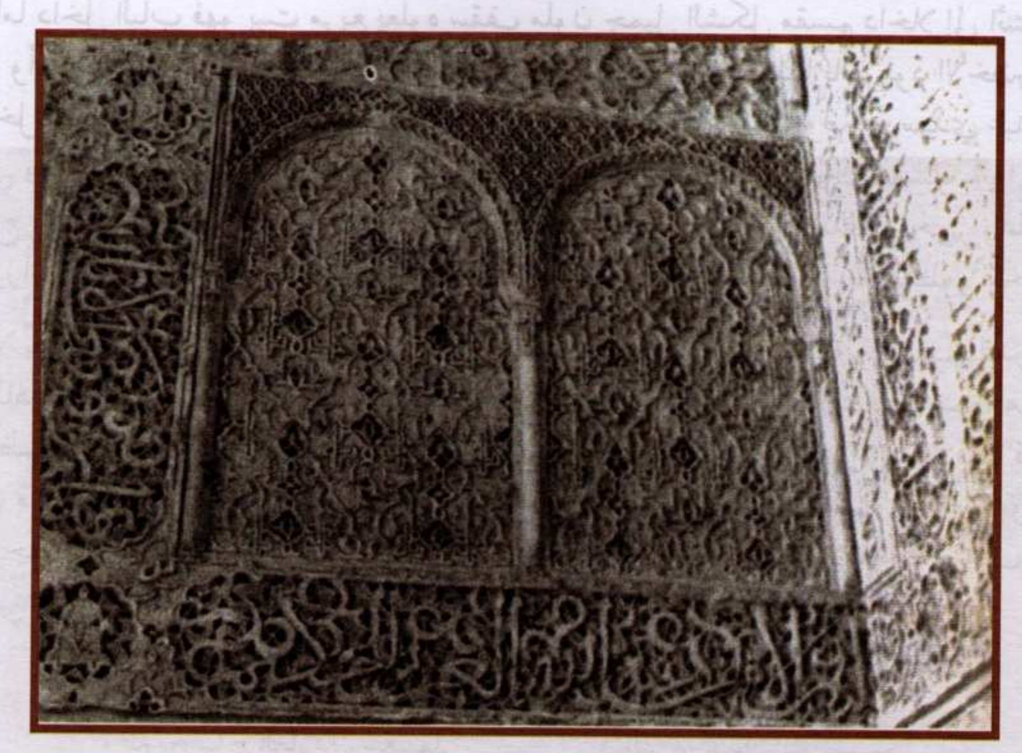
ولتغد للعباد منها غــــدوة ... تصبح هموم النفس عنك بمعزل

وضريح تاج العارفين شعيبها ... زره هناك فحبذا ذاك الــــولي

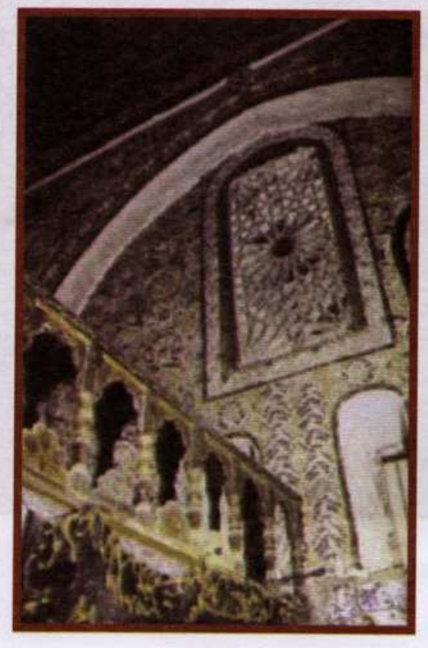
فمزاره للدين والدنيا معــا ... تمحي ذنوبك أو كروبك تنجـلي[1]

أما ضريحه الذي تحدثنا عنه فقد شيده الخليفة الناصر بن المنصور الموحدي بعد وفاته التي كانت عام 594هـ (1197م) وأما صاحب القبر المجاور لقبر سيدي أبي مدين فهو الرجل الصالح والعالم الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ابن عبد السلام التونسي المتوفي عام 589هـ (1193م) أي قبل سيدي أبي مدين بنحو الخمس سنوات ودفن هذا الأخير في جواره تغمدها الله برحمته وأسكنهما فسيح جنته آمين.

(1) «بغية الرواد» ليحي بن خلدون مجلد 1 ص 14 طبعة الجزائر 1321هـ (1903م).



105 - ضريح سيدي أبي مدين:
نافدتان داخل الضريح



106 - ضريح سيدي أبي مدين:
نشاهد داخله زخرفة نقش سقفه

3 - الجامع:

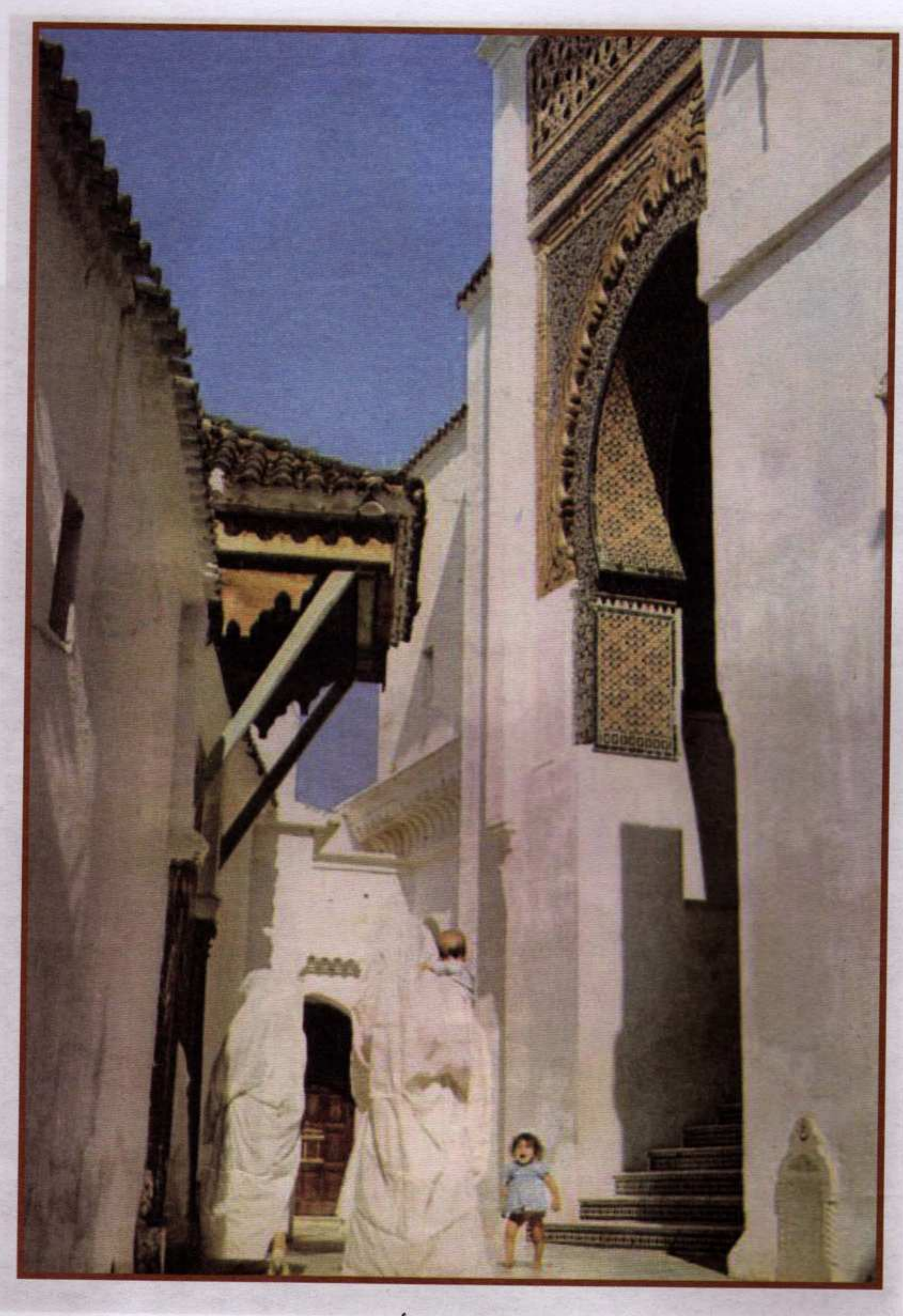
وإذا خرج الزائر من الضريح بعد أن يصعد المدرج الذي نزل معه فإنه يقابله باب الجامع الضخم (ص: 45 و101 و 107و 108) ذو الزخرفة الباهرة يحتوي هذا الباب على قنطرة عظيمة البنيان على شكل حذوة الفرس مغيرة في رأسها بتكسير غير ظاهر وعلى إطار بديع يحيط بالقنطرة كلها ويتألف من ثلاثة تقاطيع على شكل أوراق الأشجار وأزهارها وينقسم هذا الإطار إلى قسمين الأول مكون من حاشية عريضة مدورة تحيط بالقوس وتمتد عند انتهاء القوس بأكثر من متر والقسم الثاني مكون من زاويتين وقد زخرف الإطار بأشكال عربية محتوية على أحجار من الفسيفساء ذات ألوان أربعة الأبيض والأسمر والأخضر والأصفر تحيط بها حويشية خضراء وقد ألفت الأشكال العربية من شكل السعف المزدوج فكونت اشتباكا كرز بنظام وفوق ما ذكر تشاهد حاشية أخرى جارية فوق هذا الإطار المستطيل الشكل رسمت في داخلها الأبيض خطوط أندلسية أنيقة نصها: «الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان عبد الله علي بن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام تسعة وثلاثين وسبعمائة[1] نفعهم الله به» ثم يشاهد فوق هذه الحاشية زخرفة هندسية من الآجر المزين بصفحات من المينا السمراء ومن حويشيات خضراء تكون مع خمسة رسوم على شكل الورد حول نجوم ذات خمسة رؤوس افريزا فخما لهذا الباب العظيم المكلل بشرعة من القرمود محمولة على صف من المساند المزدوجة وأما دائرة القنطرة فإنها مغشاة أيضا بزخرفة منظمة ذات ألوان ثلاثة: الأبيض والأصفر والأسمر ويصعد إلى الجامع بمدرج مفروش بالرخام تعلوه قبة بديعة المنظر يقول عنها الإمام ابن مرزوق الخطيب «وعلى مدرجه قبة من عمل المقربص غريبة الشكل قليلة المثل» وفي سقف هذه القبة تقرأ في حفريته النص الآتي مرسوما عند ابتداء القوس: «هذا ما أمر به مولانا أبو الحسن عبد الله علي»والحاشية التي تحمل هذا الرسم مؤلفة من ست صفحات من الزليج المورد أما زخرفة القبة الجبسية فهي من أجمل ما أنشأه الفنانون المغاربة تتألف هذه الزخرفة يمينا ويسارا من طبقتين تشتمل كل واحدة منهما على صفحات صغيرة رسمت على قناطر رشيقة وأما أعلى القبة فإنه وشي بالتماثيل المدلاة المعهودة وتجد تحت هذه الزخروفة في الأسفل: حاشيتان، تحمل أحداهما خطا كوفيا رائع الجمال وهما يكونان إطارا أنيقا لبابين يؤديان يمينا ويسارا إلى بيتين معدين لتعليم القرآن الكريم للصبيان.[2]

(1) 739 هـ (1339م).

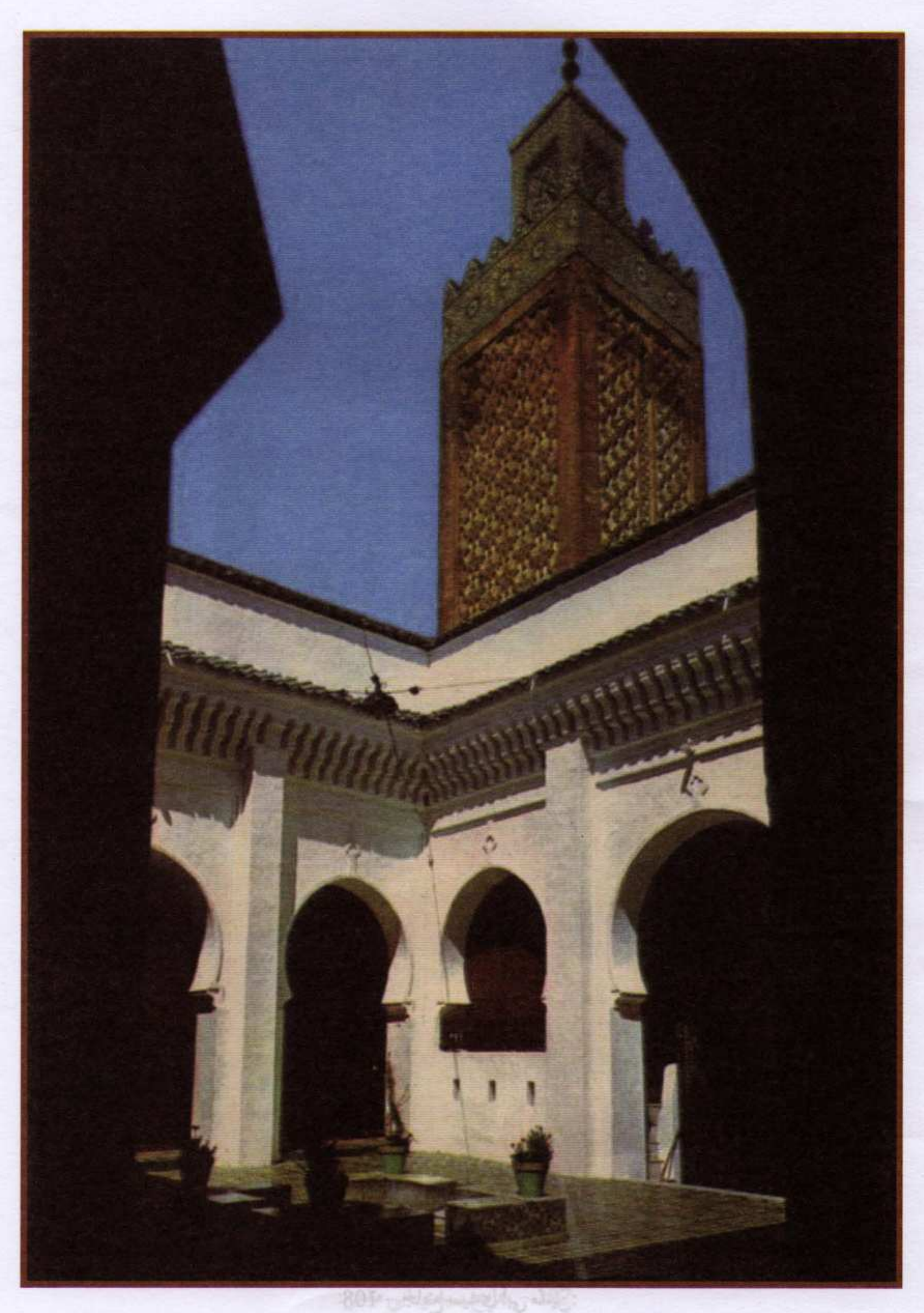
(2) كان هذان البيتان معدين أيضا لنزول الحجاج بعد قدومهم من بيت الله الحرام وقبل دخولهم إلى منازلهم.



107 – جامع سيدي أبي مدين:
الباب الجوفي الضخم الذي يصعد منه من الضريح إلى صحن الجامع



108 - جامع سيدي أبي مدين:
نفس الباب الجوفي الضخم على اليمين والباب الخارجي لمدخل الضريح على اليسار



109 – جامع سيدي أبي مدين: الصحن والمئذنة



110 - جامع سيدي أبي مدين:
قاعة الصلاة

وأما الرتاج المؤدي إلى صحن الجامع فلنترك الإمام ابن مرزوق الخطيب يحدثنا عنه فإنه يقول: «وأما الباب الجوفي الذي ينفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبر الشيخ رضي الله عنه وإلى الشارع وهو باب من النحاس المشتمل على مصراعين كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة فهو من غريب ما يتحدث به».[1]

وبعد أن يعبر الزائر الباب الجوفي هذا يجد نفسه في صحن (ص:109) مربع الشكل مفروش بالفسيفساء المتنوعة الألوان في وسطه حوض من الرخام ومصاطب يجلس عليها المؤمنون حين الوضوء للصلاة وتحيط بهذا الصحن أروقة من الجهات الثلاث أما جهة القبلة فإنها شغلت بقاعة الصلاة (ص:110) المحتوية على أربعة بلاطات وخمسة أروقة محمولة عقودها على ست عشرة سارية ذات أربعة أوجه أما الأقواس فهي على حدوة الفرس أما سقف (ص:113) المسجد وجدرانه وقناطره (ص: 46) فكلها مزخرفة بنقوش عربية بديعة يقول عنها الإمام ابن مرزوق الخطيب: «وعلى يدي اشتمل على الوضع الغريب وهو أن في سقفه كله أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد وقعت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة فلا يختلج في النفس شائبة ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منقوشة وهي كلها مبنية إحكاما بالآجر والقصة».

وأما المحراب: (ص:111) الموجود في الرواق الأوسط من الجدار القبلي فإنه يشبه كثيرا محراب مسجد سيدي أبي الحسن من حيث زخرفة إطاره. له فتحة مقوسة على شكل حذوة الفرس يحملها عمودان من المرمر الخالص ولهذين العمودين تاجان منقوش عليهما بخط أندلسي أنيق النص الآتي: «هذا ما أمر بعمله مولانا أمير المسلمين أبو الحسن بن مولانا أمير المسلمين أبي يعقوب ابتغاء وجه الله العظيم ورجاء ثوابه الجسيم كتب الله له به أنفع الحسنات وأرفع الدرجات» ويشاهد هنا كما في محراب أبي الحسن القوس ذو الأغلاق والزوايا الحاملة التماثيل البارزة والخطوط الكوفية والنوافذ الثلاث ذات الأشكال الهندسية. وقبة المحراب (ص:111 و 112 و 113 وص الغلاف) الداخلية ذات التماثيل المدلاة (ص:114) المحمولة على القناطر العادية. وأمام هذا المحراب توجد قبة مزخرفة بزجاج المختلف الوانه بين الأصفر والأزرق والأخضر والأحمر بحيث أنها تلمع لمعانا وتجتمع هذه القبة مع الرسم المربع لا بالكوس المعتاد ولكن برسم أفقي وضع على الزاوية وزخرفت بحفرية عميقة. وحينما أبصرت هذه الزخرفة العجيبة تذكرت قول الشاعر التونسي الطاهر القصاد في تدشين جامع المرسى بتونس: (الكامل).

نفثت يد الصناع في محرابـــــــه	سحر الصناعة باديا لا يجحـــــــد
من أحمر في أزرق في أخضـــــر	من وشيها زهر الربى يتـــــــورد

(1) المنتخب من "المسند الصحيح الحسن" لابن مرزوق الخطيب ص: 34 وما يليها. نشر ليفي بروفنسال (باريس) بدون تاريخ.

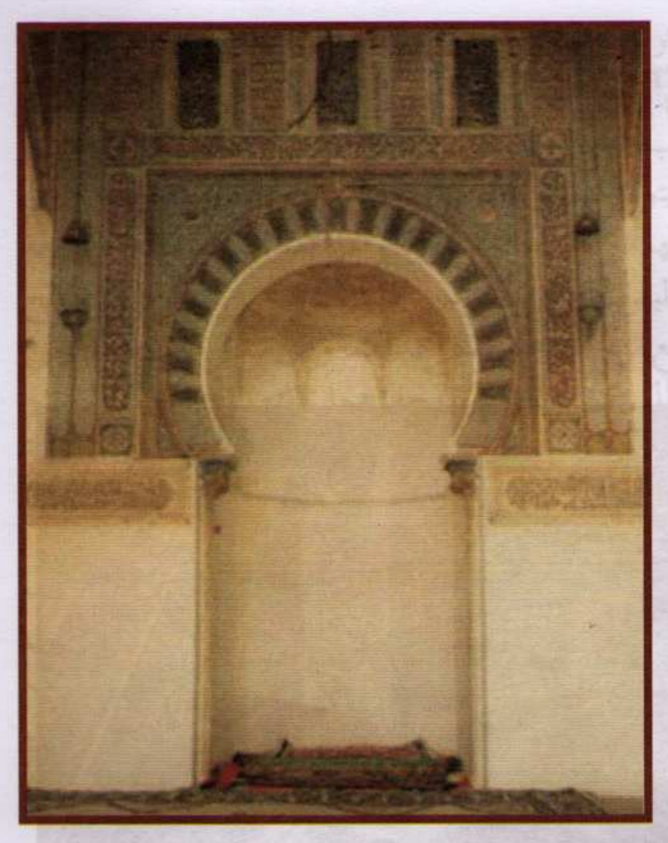


111 - جامع سيدي أبي مدين:
المحراب

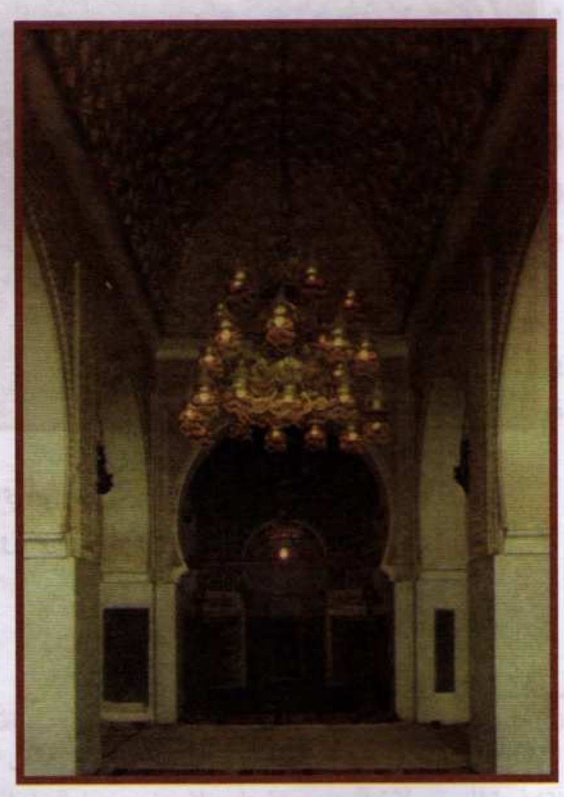
وعلى الساريتين اللتين أمام المحراب (ص:113) من البلاط التاني توجد رخامتان منقوش علي إحداهما ما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو الحسن بن مولانا أبي سعيد بن مولانا أبي يوسف بن عبد الحق المريني أيد الله أمره وخلد بالعمل الصالح ذكره واخلص لله تعالى في عمل البر سره وجهره وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه على الجامع المذكور والمدرسة من الجنان العلي نفعهم الله بذلك وجميع الجنان القصير الذي بالعباد الفوقي المشتري من ولدي عبد القادر القصير. ومن عبد الوحد وجميع جنان اقدام المشتري من علي المراني وجميع الجنان المعروف بابن حويتة الكائن بازواغة المشتري من ورثة الحاج محمد بن حويتة[1] وجميع الجنان الكبير والدار المتصلة من جهة غربه المعروف ذلك باسم داوود بن علي المشتري من ولده وهو بأسفل العباد السفلي وجميع الرقعتين الموروثين أيضا منه اشتراهما من ولده علي الغز واحدة بابن أبي اسحاق والثانية بابن صاحب الصلاة المغروس منهما وغير المغروس وجميع الجنان المعروف بجنان البادسي[2] الموروث أيضا منه المشتري من يحي بن داوود المذكور وهو أسفل العباد السفلي وجميع الجنان المسمى قرعوش من جنان البادسي المذكور الموروث أيضا عنه المشتري من ولده عبد الواحد وعيسى وجميع المغروسات الأربعة الفوقي منها يعرف بابن مكي والثاني بابن محمد بن السراج والثالث بفج المدلسي والرابع بن الفراق التي بجوفي مسجد العباد السفلي المشتري أيضا منهم والنصف الواحد من الجنان الزهري مع جميع بيتي الرحا المبنية بغربه وذلك بجهة الوريط وجميع بيتي الارحا المبني أيضا بقلعة بني معلي خارج باب كشوط وجميع الحمام المعروف بحمام العالية الذي بداخل تلمسان مع حانوتيه المتصلتين به على يمين الخارج من بابه القبلي ودويراته المتصلة به من جهة جوفه ومصريته المجعولة على أسطوانه والواحد الحمام القديم الذي بداخل المدينة المنصورة حرسها ألله ومن حرث عشرين زوجا يتبهو بدبرة من زيد ورهني قطر تلمسان المذكورة برسم إطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للقراء والحجاج المقيمين والواردين عليها واثره عشرة أزواج بالموضع المذكور برسم ساكني المدرسة المذكورة بحساب خمسة عشر صاعا للطالب الواحد في كل شهر وجميع جنان سعيد بن الكماد المشتري من ورثه وهو الكائن فوق العباد العلوي وتحت ساقية النصراني وجميع جنان القائد مهدي المشتري من ورثه الكائن بأزواغة المحروسة وجميع جنان التفريسي الكائن تحت الطريق المارين عليها للوريط المشتري من ورثته وجميع أرض جنان التفريسي المذكور الكائن غربي الصوارم المشتراة منهم بقبة الرحاب المتصلة بالجامع المذكور البقية من الجنان المزيد بعضه في الجامع المشتري من ورثه عبد الواحد من ورثة أبيه وأمه وعمتهم ممرنة و لم يبق لورثتهم حق ولا مطلب وحبس على الزاوية المذكورة والجامع المذكور بين ملاحق البطح على نفقة الحجاج الواردين عليها من الفقراء والمساكين».

(1) لا يزال هذا الجنان معروفا بهذا الاسم إلى يومنا هذا وموقعه على طريق الوريط وملاكه الآن الخديم من الأسر التلمسانية.

(2) أسرة البادسي وكذا المدلسي الآتي ذكرها لا تزال ذريتهما موجودة بتلمسان.



112 - جامع سيدي أبي مدين:
المحراب



113 - جامع سيدي أبي مدين:
المحراب وقبة المحراب والرواق الأوسط والماثلتان والثريا
والرخمتان اللاصقتان على الساريتين



114 - جامع سيدي أبي مدين:
المحراب: أنظر عجابة نقش وزخرفة سقفه وجدرانه

وعلى الرخامة الأخرى اللاصقة على السارية الثانية (ص:113) نقش عليها ما يلي: «هذا اشترى عن أمر مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله الثابتي[1]» أيد الله أمره أعزنصره من الأراضي مما كان موقوفا تحت يديه الكريمتين من وفر أحباس الولي القطب سيدي أبي مدين نفعنا الله به وذلك ببوهنان زوج فدان الزيتون الكبير بمائتي دينار ذهبا وفدان الزيتون الصغير بمائة دينار ذهبا وزوج تادكره بمائة وأربعين دينار ذهبا وفرديا بمائة دينار ذهبا المشتري جميعها من بيت ماله أيده الله وأنماه بعد خلوصها له من ورثة ابن ويغذن بالوجه الشرعي وجميع زوج اتقاطيس بثلاثة وخمسين دينارا ذهبا من ورثة ابن صالح وورثة الشيبي بترابها وحفرها بالصفصيف جميع الزوجين المسماة إحداهما وغز مشتراة من ورثة يحي بن داود والأخرى افطوطن مشتراة من أحمد المسيفي[2] بترابهما وحفرهما بمائتين اثنتين وثلاثة عشر دينارا ذهبا لتصرف غلتها في مصروف الحبس المذكور على عادته حسبما وقع ذلك في عام 904 أربعة وتستعماية سنة».[3]

وكان لهذا الجامع منبر يقول عنه الإمام ابن مرزوق الخطيب «واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلف من الصندل والعاج والأبنوس مذهب ذلك كله» كما يقول عن منارته القائمة في الشمال الغربي من جدار صحنه «وصومعته كذلك في غاية من الحسن والإتقان كل جهة من جهاتها الأربع تخالف الأخرى في النوع والإحكام وذهبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين دينارا ذهبا نفعه الله بذلك وأجزل ذخره وأعظم أجره».[4]

لهذا الجامح زيادة عل الباب الجوفي، بابان آخران متقابلان: باب شرقي يصله بالحمام والمراحيض وباب غربي يصله بالمدرسة التي سيأتي الحديث عنها وبالجملة إذا تمثلنا كل هذا الإنتاج الفني الهائل وما احتوى عليه من الزخارف التي تدهش الأنظار وتأخذ بالأبصار في بناء واحد تناسقت أجزائه وانسجمت كل مشتملاته وجدنا أنفسنا أمام عظمة قل أن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى.

ولنختم كلامنا على هذا الهيكل العظيم بما قاله عنه الإمام ابن مرزوق الخطيب: «وأما الجامع الذي بناه حذاء ضريح شيخ المشايخ وقدوة المتأخرين من المتصوفة أبي مدين شعيب بن الحسن رضي الله عنه فهو الذي عز مثاله واتصفت بالحسن والرشاقة أشكاله، أنفق فيه مقدارا جسيما ومالا عظيما.

وكان بناؤه على يد عمي وصنو أبي الصالح أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق».[5]

---

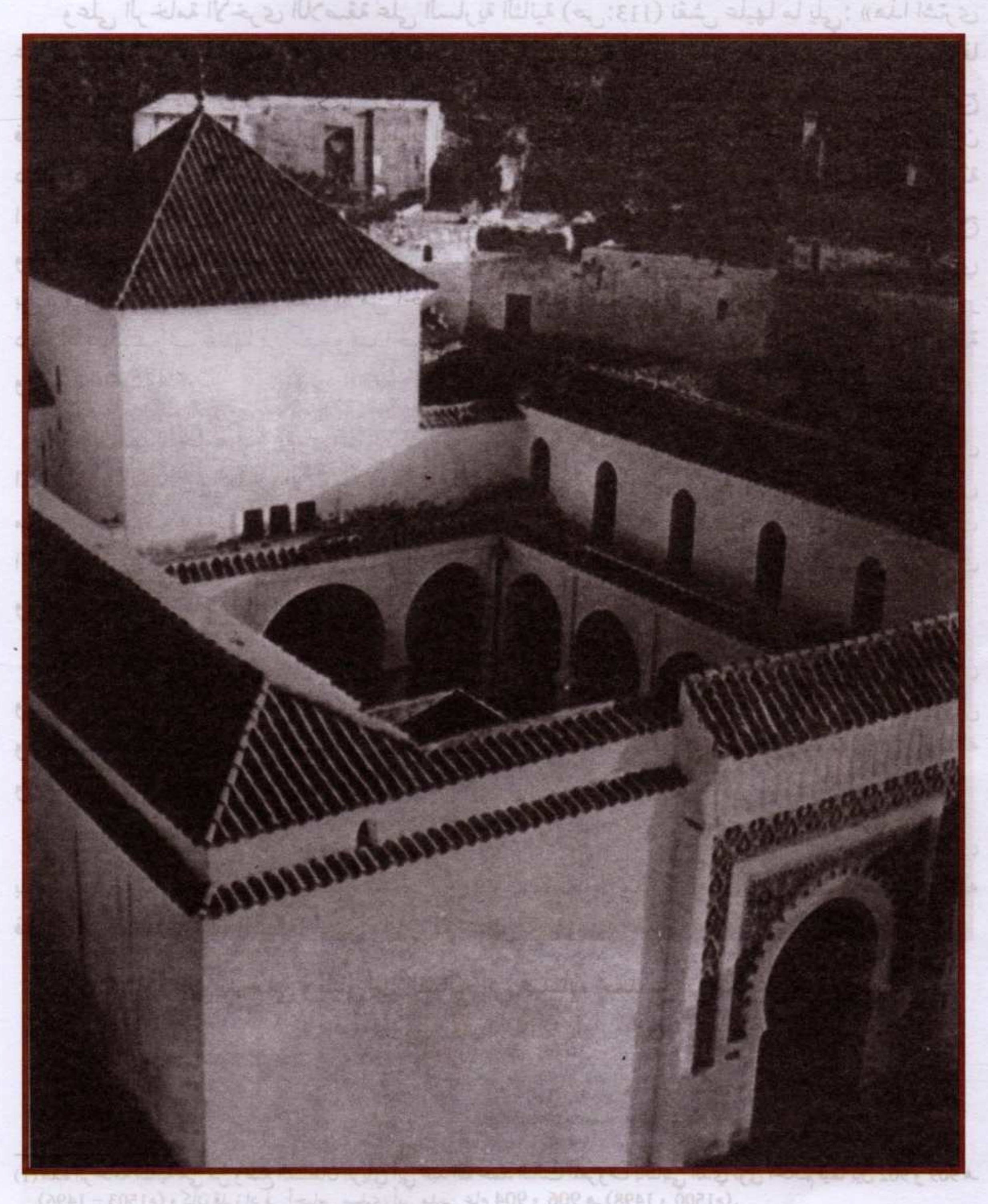
(1) هذه الرخامة الثانية هي من وضع السلطان الزياني أبي عبد الله محمد الثالث المعروف بالثابتي الذي تولى الحكم فيما بين 902 و 909 هـ (1496 – 1503م) وكان قد زاد في أحباس سيدي أبي مدين عام 904 و 906 هـ (1498 و 1500م).

(2) ذرية المسيفي لا تزال موجودة بتلمسان وخصوصا بالعباد إلى يومنا هذا.

(3) هكذا ورد النصان المنحوتان على الرخامتين المذكورتين.

(4) الضمير يعود على السلطان أبي الحسن على المريني مشيد الجامع.

(5) من نفس المصدر المذكور سابقا



115 – مدرسة سيدي أبي مدين:
الباب، الصحن، البيوت وقاعة الصلاة. وإلى جانب كونها مكانا للعبادة كانت كذلك مركزا لتكوين العلماء المتصوفين ورجال الثقافة

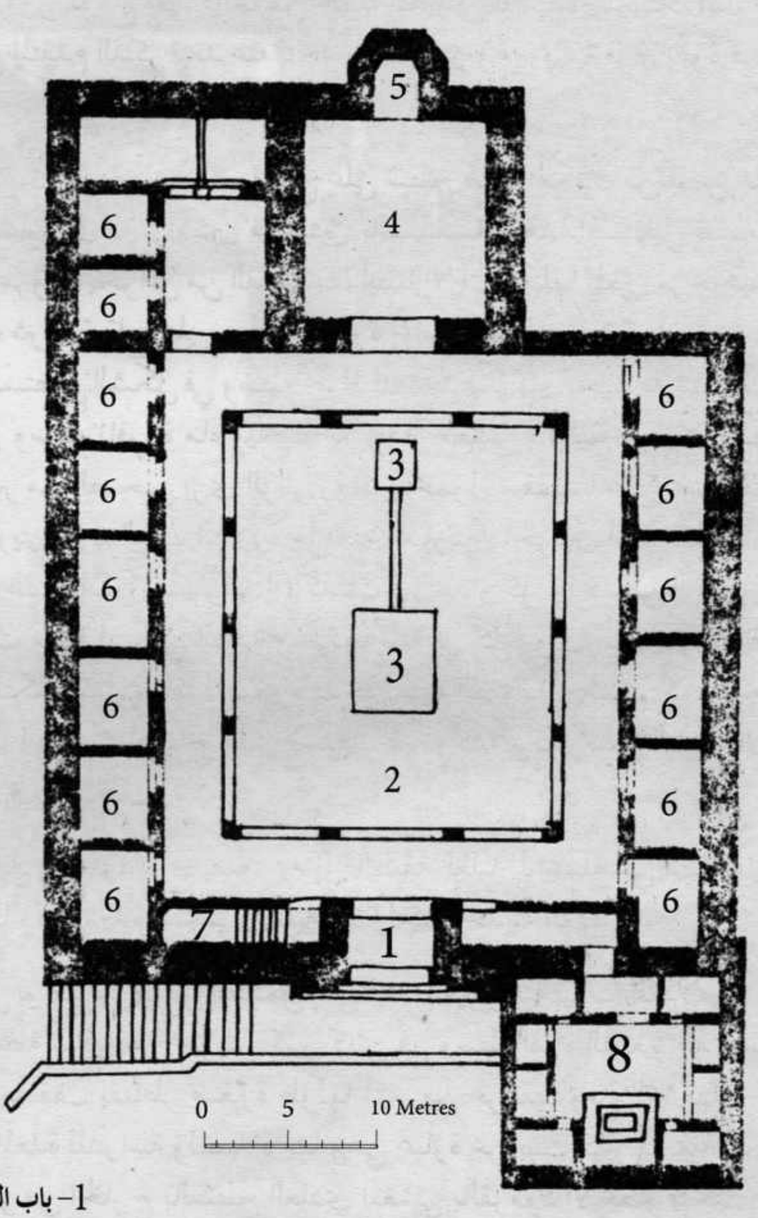
4 – **المدرسة:**

هذه المدرسة هي آخر نموذج بقي قائما من جملة المدارس المشيدة بتلمسان أثناء القرون الوسطى وموقعها بغرب الجامع المتقدم الذكر تبعد عنه بنحو سبعة أمتار وهي مبنية فوق ربوة صغيرة يصعد إليها بخمس عشرة درجة.

لهذه المدرسة (ص:115) باب واحد مفتوح على سطح صغير مكون من قوس على شكل حذوة الفرس يحيط به مستطيل أول ذو زاويتين موشيتين بالفسيفساء وهذا المستطيل نفسه جعل في وسط مستطيل آخر أكبر منه مرونق بحواش من الفسيفساء أيضا إلا أن شكلها المعين مزخرف بتقاطيع مزهرة ووضع في أعلى الباب شرعة ترتاح على مساند صغيرة إتماما لهذه الزخرفة ثم أن الداخل لهذه المدرسة يجد نفسه في صحن مستطيل الشكل في وسطه حوضان أحدهما كبير يحيط به شباك من حديد حديث العهد وآخر صغير في وسطه نافورة ماء ويحيط به جدار مغشى بالزليج حديث العهد أيضا وعلى الجانبين الأيمن والأيسر من الصحن يرى الزائر رواقين محمول سقفهما على عشر سوار: خمس من كل جهة كما يرى ساريتين إزاء الباب الذي دخل منه وساريتين آخريتين أمام القاعة المقابلة التي تلقى بها الدروس وتقام بها الصلوات (رسم رقم:5) كذلك في جدار كل واحد من الرواقين الأيمن والأيسر تفتح البيوت التي كانت معدة لسكني الطلبة وعددها ستة في كل رواق بيت منها له باب مقوس على شكل حذوة الفرس المنكسر تعلوه نافذة صغيرة يدخل منها الضوء إلى البيت كما توجد داخل البيت كوة مقوسة يضع عليها الطالب المصباح الذي يستضيء به وكتبه وكراريسه وجميع الأدوات الصالحة للدراسة من محابر وأقلام وغير ذلك.

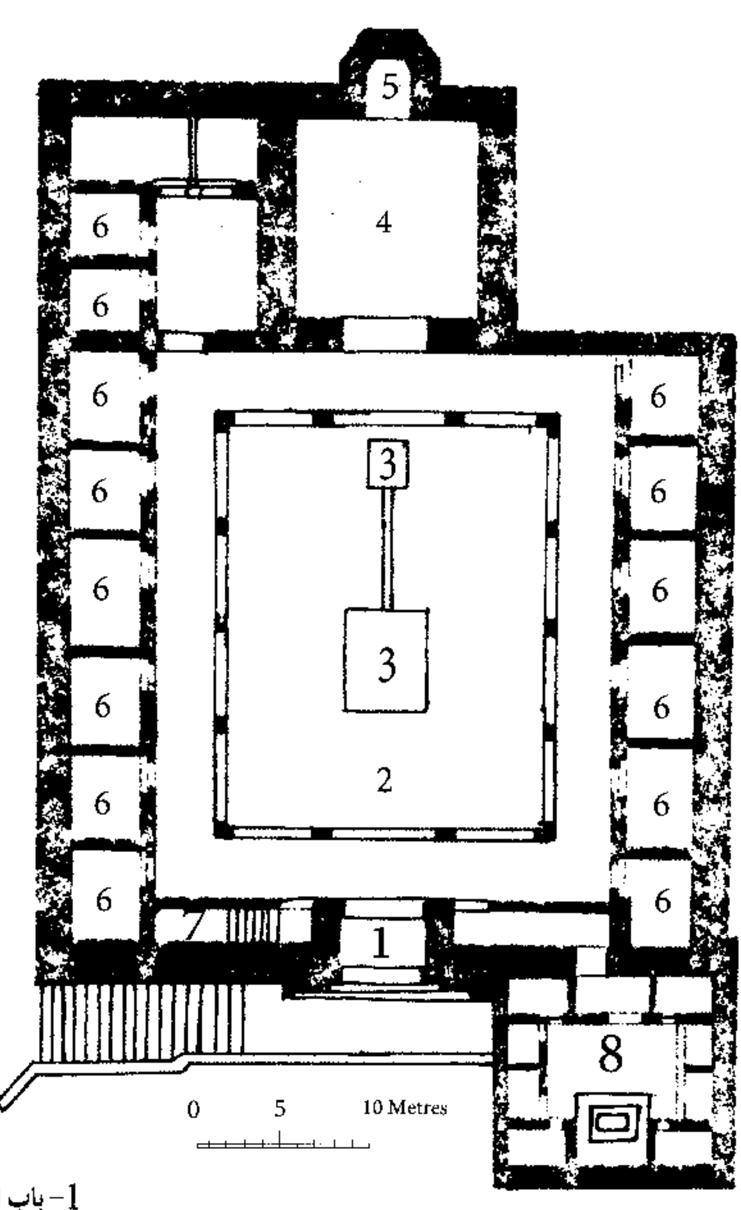
وعلى يسار الداخل يوجد مدرج يصعد به إلى الطبقة العليا المشتملة هي أيضا على بيوت أخرى شبيهة بالتي تحدثنا عنها وهي معدة لسكنى الطلبة أيضا لكنها حديثة العهد.

وعلى يمين الداخل يوجد المرحاض المشتمل على فناء صغير وستة بيوت للخلاء بها أحواض صغيرة للماء الذي يأتيها بواسطة ساقية من حوض كبير كائن في وسط الفناء الصغير الذي يجمع بينه وبين صحن المدرسة ممشي مسقف بقناطر صغيرة طولها أكبر من عرضها وفي الواجهة الجنوبية من ذلك الصحن توجد القاعة المعدة للدراسة وللصلاة معا وهي عبارة عن بيت كبير مربع الشكل مسقف بقبة كبيرة من الخشب تظهر من الخارج بالسطح العادي المغشى بالقرمود الأخضر فتحت فيها ست نوافذ عالية لدخول الضوء ولهذه القاعة محراب مفتوح في جدار القبلة ذو زخرفة جبسية بديعة مؤلفة من إفريز جبسي على شكل المضلع الثماني تحيط به خطوط عادية بسيطة وقناطر وصفحات مرونقة بالهيئات العربية. إن هذه الزخرفة شبيهة بزخرفة الجامع المشيد قبل المدرسة بثمانية أعوام فنماذج الزوايا الهندسية *شبيهة بالرسوم الزهرية الكائنة على مصارعي الباب الجوفي من الجامع ولكن تأثير الأبنية الأندلسية هنا* أظهر من حيث المبالغة في إبراز التماثيل ومن حيث استعمال القيشاني أو الرسوم النباتية ومن حيث بعض الزخارف المصطلح عليها فهنا المعين المزهر ينوب عن أشكال السعف الموضوع بعضها على بعض الموجودة في الزخارف التلمسانية وذلك من حيث رسم الخراطة اللامع.



رسم رقم 5 : تلمسان رسم مدرسة العباد

1- باب الدخول
2- الصحن
3- حوضان للوضوء
4- قاعة الدروس والصلاة
5- المحراب
6- بيوت للسكنى
7- مدرج للصعود إلى الطبقة العليا
8- المراحيض



1- باب الدخول
2- الصحن
3- حوضان للوضوء
4- قاعة الدروس والصلاة
5- المحراب
6- بيوت للسكنى
7- مدرج للصعود إلى الطبقة العليا
8- المراحيض

رسم رقم 5 : تلمسان رسم مدرسة العباد

وأما زخرفة القيشاني فإنها تحتوي على القرنفل المصحوب بغصنه الظاهر العروق وكذا السعف الموشي بأغصانه في مسجد أبي سيدي الحسن وتحت القبة يجري إفريز من الخشب نقشت عليه خطوط أندلسية تتضمن قصيدة في مدح مشيد هذه المدرسة وذكر تاريخ تشييدها[1] ودونك نص القصيدة: (الوافر)

بنـاني كي يقيم لـدي دينـــــا   الإسلام أمير المسلمينـــــا
أبو الحسن الـذي فيـه المزايـــــا   تفـوق النظـم بالـدم الثمينـــــا
إمـام لا يـعبر عنه وصـــــف   بما أجـرى بـه الأعمـال دينـــــا
سليـل أبي سعيـد ذي المعـــــالي   أقـر إلي الأمـام بها عيونـــــا
وقـد سمـاه خالقـه عليـــــا   فأعـلاه وأعطـاه يقينـــــا
أبانـا بالمصلحـات منـه دينـــــا   وإيمانـا يكـون لـه معينـــــا
لشهـر ربيـع الثـاني لسبـــــع   خلون مـن السنين وأربعينـــــا
إلى سبـع مئين فـدام سعـــــد   محولـه مقـاصـده فنـونـــــا
وكان لـه الإلـه على اتصـــــال   على مرضاتـه دأبـا معينـــــا

أما القبة المستديرة الشكل فإن رأسها مكون من عدة حفريات متتالية تلمع لمعانا حول نجمة ذات ثمانية وأربعين رأسا والقضبان المقوسة الشكل التي تتركب منها هذه النجمة يتشابك بعضها بعضا ويكون أشكالا هندسية تراوح على أربع قطع أفقية مزخرفة هي أيضا بقضبان من الخشب تشتبك اشتباكات عجيبة وعلى يمين القاعة المذكورة يوجد مكان خراب به قبر السيد عبد القادر ابن سي محمد بن دحمان المتوفي عام 1923م وقد علّم القران بهذه المدرسة مدة تزيد عن نصف قرن وكان والده رحمه الله مدرسا بها قبله أما على يسار القاعة فهناك بيوت أربعة كانت معدة على ما يظهر لسجن غير المهذبين من الطلبة مؤقتا تأديبا لهم على تخلفهم أو قلة وقارهم لمعلميهم واحترامهم لهم.

وبالجملة فكل من يرى هذه الأعمال الفنية اللطيفة يشعر بخفة روح وذوق متناه ألا يحق لنا أن نعجب بالبراعة الفائقة التي أبداها الفنانون الذين أعطوا لعمل «ظاهرة الضعف والوهن تلك القوة التي قاومت الأجيال والأحقاب منذ عدة قرون» كما صرح بذلك بعض المستشرقين.

وإذا انتهت زيارة المدرسة وعاد الزائر إلى السطح الصغير الكائن أمام الباب وألقي نظرة على الأفق الذي أمامه فإنه يتمتع بمظهر ساحر خلاب على قرية العباد ورباها الخضراء الممتدة إلى واد الصفصيف وعلى مدينة تلمسان والبسائط الزبرجدية الواقعة في شمالها المعروفة بالمنية وحينئذ لا يلبث أن يتذكر قول أحد شعراء تلمسان[2] المعجبين بها إذ هو يقول عنها وعلى العباد: (الرمل)

كل حسن على تلمســـان وقف   وخصوصا على ربى العبـــاد[3]

---

(1) 747 هـ (1346م) فهي متأخرة عن تشييد الجامع بثمانية أعوام.

(2) هذا الشاعر هو أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي من شعراء القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلاد).

(3) «أزهار الرياض» للمقري ج 2 ص 330 طبع القاهرة 1359 هـ (1940م).

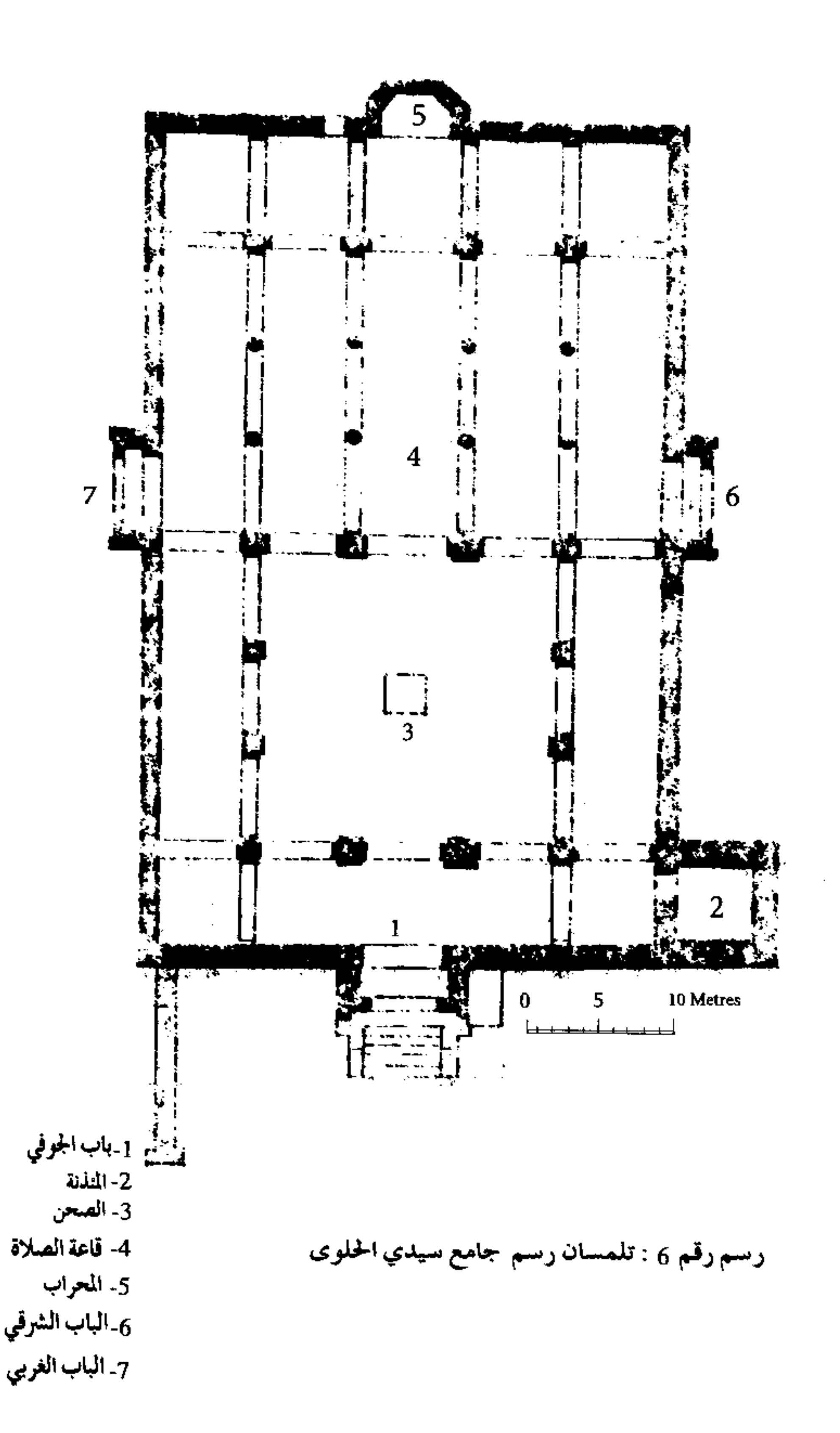
جامع سيدي الحلوي[1]

يوجد هذا الجامع خارج أسوار تلمسان في الشمال الشرقي منها قد شيده السلطان المريني أبو عنان فارس عام 754 هـ (1353م) ونسبه إلى الرجل الصالح والعالم الصوفي أبي عبد الله الشوذي الذي تولى قضاء إشبيلية ثم انتقل إلى تلمسان واستقر بها فلقب بالحلوي لأنه صار بها يصنع الحلوى ويبيعها للصبيان وكانت وفاته بها عام 737 هـ (1337م).

لهذا الجامع (رسم رقم:6) ثلاثة أبواب كجامع سيدي أبي مدين أحدهما شرقي والآخر غربي والثالث وهو الأعظم جوفي فإذا دخل الزائر إلى الجامع من هذا الباب الأخير وتأخر قليلا قبل الدخول فإنه يقابله منظر رائع الجمال مكون من شرعة محمولة على ثلاثة عشر مسندا منقوشة بدقة وتحتها إطار الباب المغشي بالفسيفساء ومع ما أصاب هذا الباب العجيب من حوادث الزمن فإن زخرفته لا تزال تأخذ بمجامع الأفئدة من حيث الهيئات الهندسية المشتبكة والأشكال الزهرية المختلفة وألوان الفسيفساء المتنوعة وفوق الإطار في جهته العليا تشاهد حاشية منقوشة بخطوط أندلسية تزيد في حسن هذا الإطار ونصها: «الحمد لله وحده أمر بتشييد هذا الجامع المبارك مولانا السلطان أبو عنان فارس بن مولانا السلطان أبي الحسن علي ابن مولانا السلطان أبي سعيد عثمان بن مولانا السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق أيده الله ونصره عام 754»[2] ومساند الشرعة تعتمد على حاشية من الخشب تحتوي على خطوط كوفية نصها: «الغبطة المتصلة والبركة الكاملة والسعادة» وهذه العبارة بعينها كرر نقشها على سقف الجامع الخشبي وعلى حاشية من الخشب وضعت فوق باب المرحاض.

(1) كان إزاء هذا الجامع زاوية ومدرسة انطمست آثارهما تماما ولا نعرف حتى موقعها.

(2) 754هـ (1353م).



رسم رقم 6 : تلمسان رسم جامع سيدي الحلوى

فإذا صعد الزائر ست درجات فإنه يجد نفسه بالجامع المشيد حسب الرسم الذي شيد عليه جامع العباد فهو مثله يحتوي على صحن مربع الشكل تقريبا مساحته تزيد على المائة وسبعة أمتار مربعة مفروش بالفسيفساء ذات الألوان المختلفة وفي وسطه الحوض المعلوم المعد للوضوء تحيط به اروقة من جوانبه الثلاثة كماله في واجهته الشمالية الغربية صومعة فخمة شبيهة بصومعة سيدي أبي مدين من حيث الوضع والزخرفة معا وعلى قاعة الصلاة الواقعة في الجانب القبلي المحتوية على أربعة بلاطات وخمسة أروقة وسقفها محمول على صف أول من السواري الضخمة ثم على صفين من الأعمدة المرمرية تزيدها بهاء وجمالا وأخيرا على صف آخر من السواري الضخمة كالصف الأول أما المحراب المفتوح في الجدار القبلي من الرواق الأوسط فإن فتحته المقوسة محمولة على عمودين من المرمر مكللين بتاجين مزخرفين بخطوط: فعلى تاج اليمين نقش مايلي: «جامع ضريح الشيخ ولي الله المجتبي بفضله الحلوي رحمة الله عليه» ونقش على تاج اليسار مايلي: «أمر بتشييد هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل عليه تعالى فارس أمير المؤمنين» وأما قبة المحراب فهي مزخرفة بالتماثيل المدلاة كبقية قبب المحاريب الأخرى وأما إطاره فليس عليه زخرفة وكذا القبة فهي سقف من الخشب مربع الشكل لكنه أعلى من سقف الجامع والذي يزيد هذه القاعة رونقا وبهاء هو أن قناطر الأروقة المقوسة على شكل حذوة الفرس تحملها أعمدة من المرمر عليها تيجان في منتهى الجمال وعلى العمودين القريبين من الباب الشرقي نقش على أحدهما ساعة شمسية وعلى الآخر خط نصه: «صنعه أحمد بن محمد اللمطي في شهريا من سنة ذمز» ومفاده حسب حساب الجمل في شهر ذي القعدة من سنة 747 . فوجود الساعة الشمسية في مكان لا تلتحقه الشمس أصلا وسنة 747 أي سبع سنين قبل تشييد الجامع كل ذلك يدل على أن هذين العمودين وربما الأعمدة كلها لم تكن معدة لهذا الجامع وإنما كانت معدة لهيكل آخر شيد قبله وقد يكون ذلك الهيكل «دار الفتح» التي شيدها أبو الحسن علي بالمنصورة عام 745هـ (1345م) أما جدران الجامع الداخلية فكلها مغشاة بستائر جبسية تزيد الجامع أبهة وجمالا وأما سقفه المصنوع من خشب الأرز فإنه مزخرف بنقوش باهرة وضعت على الكيفية الآية لوحة منقوشة تكون إفريز مزخرفا بالخط الكوفي الذي تقدم نصه في الحديث عن الباب الجوفي. لهذه النقوش الخشبية أسلوب قوي يقترب من أسلوب النحوت الجبسية التي تحدثنا عنها بجامع العباد لكنها هنا أعرض وأبلى وفقا للخشب الذي هو أشد صعوبة وأقل لطافة من الجبس وكونه زخرفة لمكان مرتفع وتحت هذا الإفريز تشاهد ألواحا أدخلت في الجدران المتوازية ومنقوش عليها نماذج صغيرة بسيطة. قد ركب هذا السقف الخشبي أولا من جملة أقواس تجمعها خشبات مشكلة ثم غشي الكل بشبكات بارزة من قضبان الأرز المبسوطة المنقطعة بزوايا قائمة أو بالورب المجتمعة في وسط الخشب بلوحات ثم تمت هذه الزخرفة ببعض قضبان مستديرة الشكل وبعض صفحات من الخشب داخلة في هذا التركيب العجيب أو تظهر كأنها داخلة فيه وأخيرا بعض نماذج مطلية باللون الأبيض أو الأسود على الألوان المكونة للبسائط الكثيرة الأضلاع. إن سقف مسجد أبي الحسن كان مزخرفا على هذا النمط قبل أن يصاب بالحريق الذي ذهب بمعظمه.

وبالجملة فهذا الجامع آية من آيات الفن والصناعة لا من حيث نقوش سقفه فحسب بل كذلك من حيث نحت تيجان أعمدته أو تزويق مئذنته ذات الصناعة (ص: 116) البديعة التي تشرح الخاطر وتسر الناظر وكان بالقرب من هذا الجامع زاوية ومدرسة اندثرتا كلاهما ونجهل حتى موقعهما.



116 - جامع سيدي الحلوي: منظر جوي للجامع والمئذنة (نرى كذلك سهل المنية)

خاتمة

القسم المعماري

وبالجملة فهذه الجوامع والمساجد والضرائح والمدرسة في وضعها وفخامة زخرفتها ونضارة منظرها آية في الإبداع وكمال الذوق إذ فيها من الأعمال الفنية ما يقف أمامه الإنسان باهتا مدهوشا فبينما يعجبك هذا الجامع بعظمته فيجذبك الجامع الآخر بفخامته فيستهويك الثالث بكمال جماله فيستلفتك الرابع ببديع مثاله فيسحرك الخامس بحسن صناعته ورشاقة أعمدته والحاصل ليس بالإمكان أنه يتخيل الإنسان أو يصور البيان مقدار ما في هذه المدينة من العظمة والفخامة وحسن الرونق وجمال الشكل وبديع الصور إذ بها أشياء عجيبة في غاية الدقة والأناقة لا يصل إليها وصف الواصف ولا مبالغة الناعت ولو بلغ من الفصاحة والبيان. فهذه المساجد والجوامع وما يلحق بها آيات من آيات الفن وكنوز من مبدعات الصناعة التي لا تبارى ولا تزال إلى اليوم مصدر الإعجاب والعجب.

وإني أستطيع أن أقرر أن هذه المساجد وما احتوت عليه من مناظر أعظم ما أبدعه فنان على مر القرون والأجيال فهي الكعبة التي يحج إليها كل فنان حيث يقف ناظرا مستلهما فيذهب به خياله إلى التسبيح بذكر العلي القدير الذي جعل من بين خلقه من استطاع الوصول بالفن إلى هذا الكمال فيحق لنا حينئذ أمام هذه الأعمال الفنية الخالدة أن نقول مع شوقي: (الكامل)

ما مات من حاز الثرى جثمانـــــه   واستولت الدنيا على اثـــــاره[1]

إن المشاهد يقف أمام هذا الخلق الرائع والجمال السامي والنبل العظيم كما لو كان في حلم هنيء فيشعر دون إرادة منه بعبيق العبادة يحيط به ونقاوة القلب وصفاء الضمير يغمران كيانه ويحسّ أنّه تجرّد من حاجات النفس المادية ثم لا يلبث أن يرجع ببصره مطأطيء الرأس أمام العظمة الإلاهية التي تمثلت خير تمثيل فيما أبدعه العبقري الملهم بهذه الديار ولله در الشاعر أبي عبد الله محمد بن خميس القائل عن تلمسان: (الطويل)

تلمسان لو أن الزمان بها يسخـــــو

مني النفس لا دار السلام ولا الــكرخ[2]

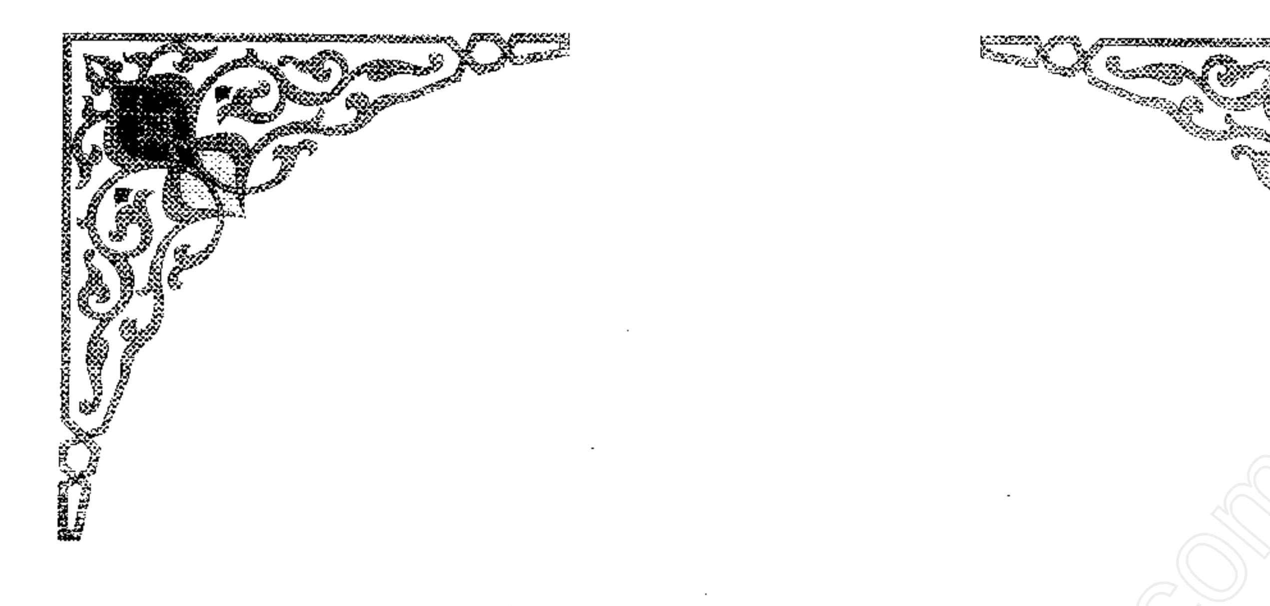
(1) إن شوقي استعمل كلمة «آدابه» فأبدلناها بآثاره لتوافق ما قصدناه.

(2) «أزهار الرياض» للمقري ج 2 ص323 طبع القاهرة1359هـ (1940م).

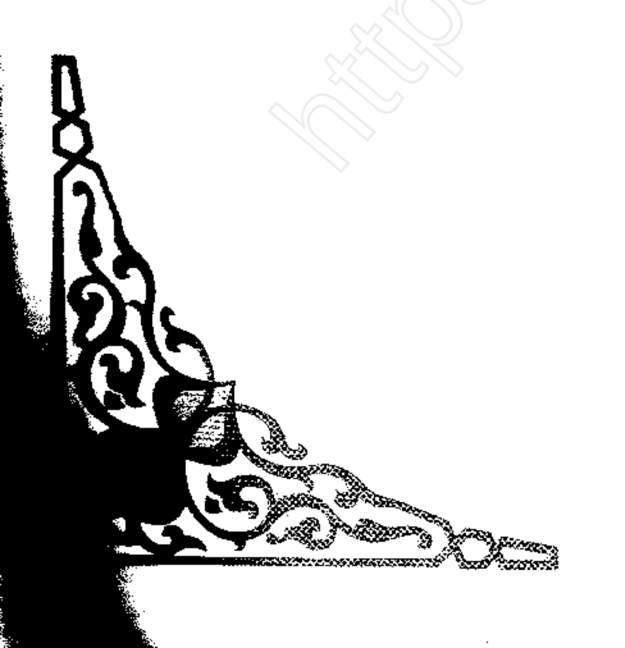
ملاحق الصور والرسوم

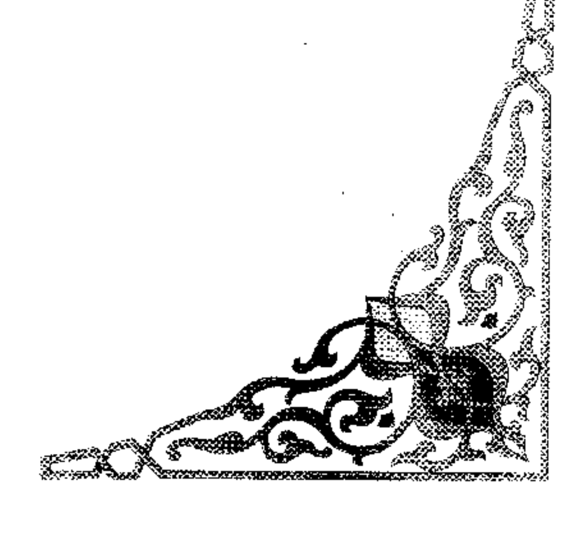
أ- الصور:

ب- الرسوم:



الفهـرس





فهرس الجزء الأول

فهرس الجزء الثاني

أنجز طبعه على مطابع

ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية – بن عكنون

الجزائر